الرائـــد

الجزء الثاني

الطّبعَة الأولى
١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢ م

دار الأندلس الخضراء
المملكة العَربيّة السّعُودية - جدّة
الإدارة : ص ب : ٤٢٣٤٠ جدّة ٢١٥٤١
هَاتف : ٦٨١٠٥٧٧ – فاكس : ٦٨١٠٥٧٨
المكتبات : * حَي السلاَمة - خلف مسجد الشعيبي
هَاتف – فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
* حي الثغر - شارع باخشب - سوق الجَامعَة التجاري
هَاتف : ٦٨١٥٠٢٧ – فاكس : ٦٨١٠٥٧٨
* مكتب الرياض : هاتف/فاكس : ٢٤٣٤٩٣٠

http://www.alandalos.com

الرائد

لا يكذب أهله

توازن

التوازن

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغة :

اتَّزن الحملُ على الدابَّة : اعتدل بالآخَرِ ، وصار مساويًا في الثقل .

ويقال : فلان متزنٌ في سلوكه : معتدل . « واتَّزن الشيئان : تساويا في الوزن . (توازن) الشيئان : تساويا في الوزن » [١].

قال ابن فارس : « الواو والزاي والنون : بناء يدل على تعديل واستقامة .. ووزينُ الرأي : معتدله . وهو راجح الوزن ، إذا نسبوه إلى رجاحة الرأي وشِدة العقل » [٢].

ب - اصطلاحًا :

التوازن : هو إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقص ؛ وهو ينشأ عن معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه ، ومعرفة حدودها وغاياتها ومنافعها .

وهو الحكمة المنوَّه بها في قوله تعالى : ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ** ﴾ [٣][٤].

ج - الألفاظ المقاربة :

١- الوسطية (التوسط) :

- وسط الشيء : ما بين طرفيه [٥]، بمعنى النصف أو المنتصف .
- الأوْسطُ والوسط : المعتدل من كل شيء [٦] .
- ويقال : إنه كان من أوسط قومه ، أي من أشرفهم وأحسبهم . ومنه سُميت الصلاة الوسطى ؛ لأنها أفضل الصلوات وأعظمها أجرًا ؛ ولذلك خُصَّت بالمحافظة عليها [٧] .

---

(١) المعجم الوجيز : ص ٦٦٧ .
(٢) معجم مقاييس اللغة : ج٦ ، ص ١٠٧ .
(٣) سورة البقرة [٢٦٩] .
(٤) بصائر تربوية : راجعه الدكتور عمر سليمان الأشقر : ص ٢٥ .
(٥) لسان العرب ، لابن منظور : ج٦ ، ص ٤٨٣١ .
(٦) المعجم الوجيز : ص ٦٦٨٠ .
(٧) انظر لسان العرب : ج٦ ، ص ٤٨٣٢ .

ومما سبق يتبين أن الوسطية تدل على العدالة والخيرية .

- والوسط يفيد معنى البعد عن الإفراط والتفريط ، والزيادة على المطلوب في الأمر إفراط والنقص عنه تفريط ، وكلٌّ من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة ؛ فهو شر ومذموم ، والخيار هو الوسط بين طرفي الأمر ، أي المتوسط بينهما ؛ ولذلك يقول القرطبي : « لما كان الوسط مجانبًا للغلو والتقصير كان محمودًا » [1] .

٢ - الاقتصاد أو القصد :

« **الاقتصاد لغة** : هو التوسط والاعتدال والرشد والاستقامة ، والعدل والتيسير من قصد في الأمر قصدًا واقتصد اقتصادًا توسط ، والمقتصد المعتدل ، قال تعالى : ﴿ ... **فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ** ... ﴾[2]، أي معتدل لا ينحرف نحو الإفراط ولا نحو التفريط .

وقال تعالى : ﴿ ... **مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ... ﴾[3]، أي أمة معتدلة ، تلتزم الحد الوسط .

ويقال : هو على قصد ، أي رشد من أمره . والقصد : إتيان الشيء . تقول : قصدته ، وقصدت له ، وقصدت إليه بمعنى ، والقصد العدل ، والقصد استقامة الطريق ، واقتصد في أمره استقام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ** ﴾[4] ، أي على الله الهداية إلى الطريق المستقيم . والسفر القاصد : هو الميسر الذي لا مشقة فيه . قال تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ** ... ﴾[5].

واستعمل الاقتصاد في التدين بهذه المعاني اللغوية نفسها .

وقال الفيومي : « قصد في الأمر قصدًا : توسط وطلب الأسدَّ ، ولم يجاوز الحد ، ورضي بالتوسط ؛ فالقصد والاقتصاد هو الاعتدال في الدين ، والتوسط في أحكامه ، والسلوك فيها مسلكًا وسطًا بين المغالاة والتقصير ، أو بين الإفراط والتفريط . القصد في النفقة أو الاقتصاد في النفقة هو التوسط بين الإسراف والتقتير » [6] .

٣ - الاعتدال :

---

(1) موسوعة أخلاق القرآن : ج٢ ، ص ٩٩ .
(2) سورة لقمان [٣٢] .
(3) سورة المائدة [٦٦] .
(4) سورة النحل [٩] .
(5) سورة التوبة [٤٢].
(6) الاعتدال في التدين فكرًا وسلوكًا ومنهجًا ، للدكتور محمد الرحيلي : ص (١٩٩ - ٢٠٠) .

اعْتَدَلَ : توسط بين حالين في كمٍّ ، أو كيفٍ ، أو تناسب [١] .

٤ - التسديد (السداد) :

السداد : الاستقامة ، والقصد [٢] ، قال ابن حجر : ((عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ **قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ [٣]. قال : السداد العدل المعتدل الكافي))[٤].

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من خلال عرض هذا الموضوع إلى :

١- إيجاد شخصية إسلامية متزنة تقتدي بالسلف الصالح في شمول فهمهم واعتدال منهجهم وسلامة سلوكهم من الإفراط والتفريط .

٢- التحذير من الشطط في أي جانب من جوانب الدين مع بيان عواقب الغلو وسوء نتائج التهاون .

٣- التأكيد على النظرة المعتدلة المنصفة والموقف المتزن من المؤسسات والأشخاص في الجرح والتعديل ؛ إذ الشطط غالبًا ما يطرأ في الأحكام لها أو عليها ، لا سيما عندما تتحكم العواطف وتتداخل المشاعر .

٤- بيان أسس وضوابط تحقيق التوازن في حياة المسلم لحمل النفس على الالتزام بها.

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- معنى التوازن ومرادفاته .
٢- أهمية الموضوع .
٣- الدعوة إلى التوازن في الكتاب .
٤- الدعوة إلى التوازن في السنة .
٥- التوازن في أقوال السلف .
٦- توازن الشخصية المسلمة .
٧- أسس وضوابط لتحقيق التوازن .
٨- مسائل في التوازن .

---

(١) المعجم الوجيز : ص ٤٠٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٠٦ .
(٣) سورة الأحزاب [٧٠].
(٤) فتح الباري : ج١١ ، ص ٣٠٠ ، بتصرف يسير .

٩- أحاديث في التوازن والوسطية .

رابعًا : العرض :

١ - معنى التوازن ومرادفاته [انظر دلالة المصطلح في صدر البحث] .

٢ - أهمية الموضوع :

٢ - ١ : إن التوازن من الموضوعات التي ينبغي أن يُعنى بها المربون بحثًا وتطبيقًا ؛ نظرًا لاضطراب الموازين عند الكثير من أبناء المسلمين ما بين غالٍ متشدد وجافٍ مفَرّط .

٢ - ٢ : إن التوازن في الشخصية مطلب شرعي ، ومبدأ تربوي ؛ إذ جاءت النصوص من الكتاب والسنة آمرةً به ، محذرةً مما سواه من الإفراط والتفريط .

قال الله تعالى : ﴿ **لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ** ﴾ . وقال ﷺ : ((**هلك المتنطعون**)) [١] ، وفي الطرف الآخر المفرط ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ [٢] .

٢ - ٣ : إن التوازن والوسطية والاعتدال .. صفات للمنهج الإسلامي في عقائده وتشريعه ، وهي تنسجم مع فطرة الإنسان وإمكاناته ، وتتناسب مع ضعفه وعجزه وقدرته ؛ ولهذا فالخروج عن الوسطية ابتداع في الدين وخروج عن المنهج الرباني القويم .

٢ - ٤ : إن في عرض موضوع التوازن علاجًا للمتحمس الغالي ، والمتباطئ المتثاقل الجافي فيحذر الأول من مغبَّة غلوه ، ويخوَّف الثاني من عاقبة تقصيره وتفريطه .

٢ - ٥ : إن فقد التوازن في حياة المسلم تنكب عن الفطرة يؤدي إلى الانقطاع عن الدين كلِّه أو بعضه ((**إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى**)) [٣] .

ولقد رأيت أشخاصًا كانوا متحمسين بل مغالين في جانب من جوانب هذا الدين ؛ سواء كان في العبادات المحضة ، أو في بعض الأعمال الدعوية إلى حدِّ التقصير

---

(١) رواه مسلم ، حديث رقم : ٢٦٧٠ .
(٢) سورة الماعون [٤ - ٥] .
(٣) قال ابن حجر في الفتح : ج١١ ، ص ٢٩٧ : أخرجه البزار من طريق محمد بن سوقه عن ابن المنكدر عن جابر ، ولكن الصواب إرساله ، وله شواهد في الزهد لابن المبارك من حديث عبد الله بن عمرو موقوف فذكره . . وأوله : ((**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة ربكم فإن المنبت..**)) .

المجحف ببقية الجوانب الأخرى ، ثم كانت عاقبتهم الانقطاع بل والنكوص على الأعقاب . نسأل الله السلامة والعافية ، وكذلك على طرف التفريط والتهاون ؛ فقد كان بعض الدعاة لا يبالون بالشبهات ولا يتورعون عن كثير من المكروهات بل وأحيانًا المحرمات حتى أغرقتهم أمواج الشهوات في لجِّ بحر السيئات . وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « **إيّاكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على المرء حتى تهلكه..** » [1] .

٢ - ٦ : إن التوازن أو التوسط (أو الاعتدال) أحد أركان أربعة يقوم عليها حسن الأخلاق وهي : الصبر ، والعفة ، والشجاعة ، والتوسط ؛ ويعبر ابن القيم عن معنى التوسط بلفظ العدل ، ويقول : « إن العدل يحمل الإنسان على اعتدال أخلاقه ، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ؛ فيحمله على خُلق الجود والسخاء الذي هو التوسط بين الذلة والوقاحة ، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور ، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة . إنما كان للتوسط هذه المكانة الجليلة لأن كل خلق محمود - كما يتحدث ابن القيم في توسع - مكثف بخلقين ذميمين ، وهو وسط بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ، كالجود يكتنفه خلقا البخل والتبذير ، والتواضع يكتنفه خلقا المهانة والكبر . فإن النفس متى انحرفت عن « التوسط » انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولابد ، فإذا انحرفت عن خلق التواضع [على سبيل المثال] انحرفت إما إلى كبر وإما إلى ذلة .. »[2] .

٢ - ٧ : بروز ظاهرة الشطط عند بعض الدعاة ما بين غالٍ متشدد ومفرِّط متساهل ، والتي أخذت مجالات عدة ؛ سواء كانت في العقائد ، أو في السلوك والأخلاق والسمات ، وهذا كلُّه يحتاج إلى التأكيد على مبدأ التوازن والوسطية في شخصية المسلم ؛ لكي تتضح معالمها في أذهان الناشئة ، فلا يغتروا بإلزامات المتشددين ولا بترخص المتهاونين .

٢ - ٨ : إن التوازن والوسطية دعاءُ كل مسلم ، ومطلب كل مؤمن ؛ إذ يقول في كل ركعة : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ [4]، وهو الوسطية التي جاء بها نبينا محمد ﷺ وسار عليها خلفاؤه من بعده ، ويسأل الله - عزَّ وجلَّ - ألا يجعله من المغالين ولا من المفرطين فيقول : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾. قال القرطبي : « الضلال .. هو الذهاب عن سنن القصد وطريق

---

(١) الصحيحة للألباني ، حديث رقم : ٣٨٩ .
(٢) انظر للتوسع في آثار الغلو ، آفات على الطريق ، السيد محمد نوح : ج ٣ : ص ٢٠٦ وما بعدها .
(٣) موسوعة أخلاق القرآن ، للشرباصي : ج ٢ ، ص (١٠٦ - ١٠٧) .
(٤) سورة الفاتحة [٥] .

الحق))[1].

٢ - ٩ : شكوى العديد من الدعاة وطلبة العلم من عدم قدرتهم على الموازنة بين اهتماماتهم ونوازعهم مما أحدث خللاً في العديد من الواجبات والتقصير في بعض المسؤوليات ؛ ولهذا كان لابد من عرض موضوع التوازن وبيان ضوابطه وأسسه ، والله المستعان .

٢ - ١٠ : المفاسد العظيمة التي جرت على المسلمين من جراء غلوّ بعض أبنائها أو تفريطهم وقد قال ﷺ : ((**يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُوْلُه . ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ..**)) .

قال ابن القيم : فأخبر أن الغالين يحرفون ما جاء به ، والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه ، والجاهلون يتأولونه على غير تأويله .

وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاث ؛ فلولا أن الله يقيم لدينه مَنْ ينفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء [2] .

٣ - الدعوة إلى التوازن في الكتاب :

لقد تعددت أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الاعتدال والتوازن ، وتنوعت صور تلك الدعوة ، وإليك بعض ما ورد في الحث على الوسطية والتحذير من ضدها .

٣ - ١ : الوسطية والتوازن من صفات الأمة :

قال الله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾[3].

قال القرطبي : ((ولما كان الوسط مجانبًا للغلو والتقصير كان محمودًا ؛ أي هذه الأمة لم تغلُ غلوَّ النصارى في أنبيائهم ، ولا قصَّروا تقصير اليهود في أنبيائهم))[4].

ولله درُّ سيد - رحمه الله - إذ يقول في تأمله لهذه الآية : ((وإنها للأمة الوسط

---

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج١ ، ص ١٥٠ بتصرف يسير . انظر أيضًا تفسيره للصراط المستقيم حيث نقل أقوال أهل العلم ومنها : الصراط المستقيم : هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحول عن أبي العالية : الصراط المستقيم : رسول الله وصاحباه من بعده . قال عاصم : فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول الصراط المستقيم رسول الله وصاحباه ، قال : صدق ونصح .(القرطبي : ج١ ، ص ١٤٧) . انظر أيضًا للتوسع شرح العقيدة الطحاوية ، المكتب الإسلامي : ص (٥٢٥ - ٥٢٦) .

(2) إغاثة اللهفان : ج١ ، ص ١٥٩ ، والحديث : ((**يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُوْله**)) في السلسلة الصحيحة للألباني : ج١ ، ص ٤٨٥ .

(3) سورة البقرة [١٤٣] .

(4) الجامع لأحكام القرآن : ج٢ ، ص ١٥٤ .

بكل معاني الوسط ؛ سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل ، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد ، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي))[١] ، أي في المكان ؛ فهي في أوسط بقاعها .

ثم ذكر - رحمه الله - بعض معالم هذه الوسطية [٢] .

٣ - ٢ : الوسطية والاعتدال والتوازن من صفات عباد الرحمن :

قال تعالى مادحًا عباده بتوازنهم : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾[٣] .

قال القرطبي : ((﴿ **قَوَامًا** ﴾ بفتح القاف ، يعني عدلاً))[٤] . وقال - رحمه الله- : ((قال ابن عطية : وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة المباحات ؛ فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقًّا آخر أو عيالاً ونحو هذا ، وألا يضيق أيضًا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح ، والحسن في ذلك هو القوام ، أي العدل ؛ والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه الخصال ، وخير الأمور أوساطها ؛ ولهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق يتصدق بجميع ماله ؛ لأن ذلك وسط بنسبة جَلَده وصبره في الدين ، ومنع غيره من ذلك))[٥] .

٣ - ٣ : الإنكار على أهل الغلو والتقصير :

قال الله - عز وجل - : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ** ﴾[٦] .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : نهى عن الغلو . والغلو التجاوز في الحد .. ثم قال : يعني بذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم ، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه ربًّا ؛ فالإفراط والتقصير كلُّه سيئة وكفر ؛ ولذلك قال مطرِّف بن عبد الله : الحسنة بين سيئتين ؛ قال الشاعر :

وأوفِ ولا تستوف حقَّك كلَّه وسامح فلم يستوفِ قطُّ كريمُ

---

(١) في ظلال القرآن : ج١ ، ص ١٣١ .
(٢) انظر للتوسع : ج١ ، ص (١٣٠ - ١٣٢) .
(٣) سورة الفرقان [٦٧] .
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج٢ ، ص ٧٤ .
(٥) المرجع السابق : ج ١٣ : ص ٧٣ بتصرف يسير .
(٦) سورة النساء [١٧١] .

ولا تغْـلُ في شـيءٍ مـن الأمـر واقتـ ـصد كـلا طـرفي قصْـدِ الأمـور ذمـيمُ

وقال آخر :

عليـك بأوسـاطِ الأمـور فإنها نجـاةٌ ولا تَركـب ذَلـولاً ولا صـعبًا

وفي صحيح البخاري عنه عليه الصلاة والسلام : ((**لا تطْروني كما أطْرَتْ النصارى عيسى وقولوا عبدُ الله ورسوله**)) [1] ، فرسول الله ﷺ في نهيه عن الإطْراء سدَّ باب الغلو فيه ، كما أنه في قوله عليه الصلاة والسلام : ((**قولوا عبد الله ورسوله**)) تذكير للأمة بأنه عبد الله ، وأنه رسول من عنده ؛ فيجل بما ينبغي للرسل من الإجلال والاحترام ؛ فكيف بسيدهم وخاتمهم ﷺ ، وذلك حتى لا يقع التفريط في حقه ﷺ ، وقد جاءت نصوص كثيرة تبين أدب الأمة مع رسول الله ﷺ حتى لا تقع في التقصير ؛ فنهينا عن التقدم بين يديه ، ونداءه كما ينادي بعضنا بعضًا ، ورفع الصوت عنده .. إلخ .

٤ - الدعوة إلى التوازن والوسطية في السنة :

لقد بين ﷺ لأمته منهج الوسطية والتوازن في الحياة كلِّها ، وحذَّر من عواقب الانحراف عن الوسطية والاعتدال وركوب التنطع في الأقوال والأفعال فقال ﷺ : ((**هلك المتنطعون**)) قالها ثلاثًا [2] قال النووي - رحمه الله - : ((المتنطعون : أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم)) [3] . قال التوربشتي : ((أراد بهم المتعمقين الغالين في خوفهم فيما لا يعنيهم من الكلام)) [4] .

والاعتدال في عبادة مع المداومة عليها أحب إليه ﷺ من الإكثار الذي يعقبه الانقطاع ، وقد أورد الإمام البخاري في باب القصد والمداومة على العمل حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه : ((**سدِّدوا وقاربوا ، واغدوا وروحوا ، وشيء من الدُّلجة ، والقصدَ القصدَ تبلغوا**)) [5] .

قال ابن حجر - يرحمه الله - : ((القصد ، هو سلوك الطريق المعتدلة أي

---

(١) المرجع السابق : ج٦ ، ص ٢١ .
(٢) رواه مسلم ، كتاب العلم ، باب هلك المتنطعون ، حديث رقم : ٢٦٧٠ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : ج١١ ، ص ٢٢٠ ، وانظر أيضًا الفتح : ج ١٣ ، ص ٢٦٧ .
(٤) المرقاة للقاري : ج٨ ، ص ٥٣٨ .
(٥) رواه البخاري ، كتاب الرقائق ، حديث رقم : ٦٤٦٣ .

استحباب ذلك))[1] ، وقال أيضًا : ((وقاربوا : أي لا تُفْرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملال فتتركوا العمل فتُفرِّطوا))[2]. وفي قوله ﷺ : ((**القصد** **القصد**)) : أي الزموا الطريق الوسط المعتدل ، وكرر اللفظ للتأكيد .

إليك أخي الكريم بعض المواقف التي تبرز الدعوة إلى الوسطية في السنة النبوية :

٤ – أ : ((من رغب عن سنتي فليس مني)) :

لما كانت السنة بأفعالها وأقوالها وتقريراتها تمثل الوسطية فإن الزائد عليها يُعد غاليًا ، والمقصر فيها يعتبر جافيًا ..

قال أنس رضي الله عنه : جاء ثلاثةُ رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ؛ فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أُفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا . فجاء رسول الله ﷺ فقال : ((**أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني**))[3] .

إنها موازنة بين حقوق الرب - عز وجلَّ - في الصيام والصلاة .. وبين متطلبات الفطرة من أكل ونوم ونكاح ، وتلك هي السنة التي من غلا فيها أو جفا عنها فقد ضل وابتدع .

٤ – ب : ((أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه)) :

القليل من الناس من يحسن الموازنة حين تجتمع عليه المسؤوليات وتتزاحم الواجبات ، بل ربما انشغل بمستحب فأعطاه أكثر مما يستحقه على حساب واجب أخلَّ به ؛ ولهذا فإن رسولنا ﷺ عندما علم أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد أخلَّ بحق زوجته عليه وذلك لإفراطه في الصيام والقيام نهاه عن ذلك وأوصاه بالاعتدال والتوازن .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - : قال رسول الله ﷺ : ((**يا عبد الله ، ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟**)) فقلت : بلى يا رسول الله . قال : ((

---

(١) فتح الباري : ج١١ ، ص ٢٩٥ .
(٢) المرجع السابق : ج١١ ، ص (٢٩٧ - ٢٩٨) .
(٣) رواه البخاري ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ، حديث رقم : ٥٠٦٣ ، ورواه مسلم في كتاب النكاح باب ٥ .

فـــــــلا تفعل ، صم وأفطر، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقًّا ، وإن لعينك عليك حقًّا ، وإن لزوجك عليك حقًّا ، وإن لزَوْرِكَ عليك حقًّا ، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإذن ذلك صيام الدهر كله)) . فشددت فشدد علي . قلت : يا رسول الله إني أجد قوة ، قال : ((**فصم صيام نبي الله داود – عليه السلام – ولا تزد عليه**)). قلت : وما كان صيام نبي الله داود - عليه السلام - ؟ قال : ((**نصف الدهر**)).
فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتني قبلت رُخصة النبي ﷺ [1].

٤ - ج : الاعتدال والتوازن في أمور الدين كلها :

قال ﷺ : ((**إيّاكم والغلوَّ في الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**)) [2] .

قال المناوي - رحمه الله - : أي التشديد فيه [في الدين] ومجاوزة الحد ، والبحث عن غوامض الأشياء ، والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها ؛ ((**فإنما هلك من كان قبلكم**)) من الأمم ((**بالغلو في الدين**)) ، والسعيد من اتعظ بغيره إلى أن قال ، قـــال ابـــن تيميـــة :
قوله : ((**إياكم والغلو في الدين**)) عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال [3] .

٥ - التوازن والوسطية في أقوال السلف :

لقد وعىالسلف الصالح وسطية المنهج والتوازن في الدين ؛ فراحوا يدعون إليه قولاً وعملاً ، ويربُّون طلابهم عليه ، وإليك طرفًا من أقوالهم وأخبارهم :

٥ - ١ : قال عمر بن الخطاب ﷺ: ((قد سُنَّت لكم السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة ، إلا أن تميلوا بالناس يمينًا أو شمالاً فالميل يمينًا أو شمالاً عن السنّة هو الإفراط أو التفريط)) .

٥ - ٢ : ويقول عليّ ﷺ : ((اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجادة ، عليها باقي الكتاب ، وآثار النبوة ، ومنها منفذ السنّة ، وإليها مصير العاقبة ؛ هلـــك مـــن

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الصوم ، باب حقِّ الجسم في الصوم ، حديث رقم : ١٩٧٥ .
(2) رواه أحمد ، حديث رقم : ١٨٥١ ، وصحح إسناده أحمد شاكر ؛ وهو في الجامع الصغير للسيوطي ، حديث رقم : ٢٩٠٩ ، ورمز له بالصحة ، ونسبه بالإضافة إلى أحمد ، إلى النسائي والحاكم .
(3) فيض القدير للمناوي : ج ٣ : ص (١٢٥ - ١٢٦) .

ادعى ، وخاب من افترى)) ، ويقول : ((خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يرجع إليهم الغالي ، ويلحق بهم التالي)) ، قال أبو عبيدة : النمط هو الطريقة (١) .

٥ ـ ٣ : تعبد عبدُ الله بن مطرّف بن الشخير فلم يقتصد ، فقال له أبوه : يا عبد الله ، الحسنة بين السيئتين ، وخير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة (٢) (هو إشارة إلى الرفق في العبادة) يعني عليك بالقصد في العبادة ، ولا تحمل على نفسك فتسأم ، وخير العمل ما ديم ، وإن قل ، وإذا حملت على نفسك من العبادة ما لا تطيقه انقطعت به عن الدوام على العبادة وبقيت حسيرًا ، فتكلف من العبادة ما تطيقه ولا يحْسِرَك . [الحقحقة عند العرب أن يُسارَ البعير ويُحملَ على ما يُتعبُهُ وما لا يطيقهُ حتى يُبدع براكبه] (٣) .

٥ ـ ٤ : لا تذهب مع أهل الإتراف في إترافهم .. قال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصري : قال : ((والسنَّة ، والذي لا إله إلا هو ، بين الغالي والجافي ، فاصبروا عليها رحمكم الله ؛ فإن أهل السنَّة كانوا أقلَّ الناس فيما مضى ، وهم أقلُّ الناس فيما بقي ، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ، ولا مع أهل البدع في بدعهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك ـ إن شاء الله ـ فكونوا)) (٤) .

٥ ـ ٥ : عبد الله بن مسعود ﵁ يصف أصحاب النبي ﷺ بعدم التكلف ويدعو لاقتفاء أثرهم . قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : وكان الصحابة أقل الأمة تكلفًا ، اقتداء بنبيهم ﷺ . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٥) ، وقال عبد الله بن مسعود ﵁ : ((من كان منكم مُستنًّا فليستنَّ بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحابُ محمد ، كانوا أفضل هذه الأمة : أبرَّها قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا . اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)) (٦)(٧) .

٥ ـ ٦ : ((عن عمر بن إسحاق قال : لمن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم ، فما رأيت قومًا أيسر سيرة ولا أقل تشديدًا منهم . وعن عبادة بن بسر الكندي ، وسُئل عن امرأة ماتت مع قوم ليس لها وليّ ، فقال : أدركت أقوامًا

---

(١) لسان العرب لابن منظور : ج٦ ، ص ٤٥٤٩ .
(٢) لسان العرب لابن منظور : ج٢ ، ص ٩٤٥ .
(٣) لسان العرب لابن منظور : ج ٢ . ص ٩٤٥
(٤) إغاثة اللهفان ، لابن القيم : ج١ ، ص ٧٠ ، ت محمد الفقي ، دار المعرفة .
(٥) سورة ص [٨٦] .
(٦) أثر عبد الله بن مسعود ﵁ رواه الإمام أحمد .
(٧) إغاثة اللهفان ، لابن القيم : ج١ ، ص ١٥٧ .

ما كانوا يتشددون تشديدكم ، ولا يسألون مسائلكم » (١) .

٦ - توازن الشخصية المسلمة :

ينبغي للمسلم أن يكون متوازنًا في شؤونه كلها ، يُعطي كل ذي حق حقه من المراعاة والاهتمام دون إفراط ولا تفريط ، وفيما يلي بعض ملامح التوازن في شخصية المسلم التي ينبغي أن تظهر جلية في أنفسنا وتبدو واضحة في واقعنا .

٦ - ١ : التوازن في المعتقد :

« فالمسلم يؤمن بربه - عزَّ وجلَّ- إيمانًا جازمًا ويقينًا راسخًا ، ويثبت لربه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وهو أعرف الناس به ، وهو وسط بين الغلو والتقصير وبين التشبه والتعطيل ، وبين الجبر والقدر ، وبين الأمن والإياس » (٢)، وهو وسط بين الذين زعموا أنه لا يضر مع الإيمان معصية مهما كبرت وبين الذين كفّروا المسلمين بالكبائر دون الشرك .

٦ - ٢ : التوازن في العبادة :

فمع أهمية التقرُّب إلى الله - عزَّ وجلَّ - بالنوافل المستحبة ، إلا أن المسلم ينبغي ألا يفرط في المستحبات إفراطًا يجعله يخل بالفرائض والواجبات فيكون كالذي أقام قصرًا وهدم مصرًا ... وفي الجانب الآخر ، فإن التفريط بالسنن والمستحبات مذموم وربما يؤدي بصاحبه إلى القعود عن الفرائض والواجبات ؛ ولهذا نُقل عن بعض السلف ردهم لشهادة أهل السنن الرواتب والوتر ، قال ابن حجر : « إن الأخذ بالتشديد في العبادة يفضي إلى الملل القاطع لأصلها ، وملازمة الاقتصار على الفرائض مثلاً ، وترك النوافل يفضي إلى إيثار البطالة وعدم النشاط إلى العبادة ، وخير الأمور الوسط » (٣) .

٦ - ٣ : التوازن بين الدنيا والآخرة :

« يبيِّن الله لنا صنفين من الناس : صنف ضيّق الأُفق مطموس البصيرة . كلُّ همه الدنيا فلا يلتفت إلا إليها ، ولا يحرص إلا عليها ..

وصنف رحب الأفق ، نيِّر البصيرة ، وَسِعَ قلبُه الدنيا والآخرة ، نسأل الله الحسنة فيهما جميعًا .

---

(١) قال الدهلوي في حجة الله البالغة بعد أن سرد هذه الآثار : أخرج هذه الآثار الدارمي ، وانظر أيضًا للتوسع الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ، للدكتور القرضاوي : ص ٩٥ - ١٠٤ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٥١٨ ، المكتب الإسلامي ، ط ٨ .

(٣) الفتح : ج ٩ ، ص ١٠٦ .

قال تعالى : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[1] .

ولم يذكر القرآن القسم الثالث من الناس بحسب التقسيم العقلي وهو من لا يطلب إلا حسنة الآخرة ، وما له في الدنيا من أرب ؛ وكأنه يعلمنا أن هذا الصنف لا يكاد يوجد في الناس .. ثم هو يشعرنا أن أعمال الدنيا وإدارة شأنها في حساب طالب الآخرة ؛ إنما هو أمر مذموم خارج عن سنة الفطرة ، وصراط الدين معًا »[2].

وقد قال الله تعالى في قاعدة التوازن في هذا الشأن : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآَخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾[3]. قال الغزالي : « إن التوسط هنا أن تملك الحياة لتسخرها في بلوغ المثل العليا ، لا أن تملك الحياة فتسخرك لدناياها ، ولا تحرم من الحياة أصلا فتقعد ملومًا محسورًا »[4] .

٦ - ٤ : توازن الشخصية المسلمة في أحكامها ومواقفها من الأفراد والمؤسسات :

قد عني الإسلام عناية كبيرة بموقف المسلم من الأشخاص والهيئات جرحًا وتعديلاً ، ولم يترك للعواطف الشخصية والحميّة الجاهلية مكانًا في الحكم على الناس حتى ولو اختلف معهم وأضمر لهم البغضاء أو أظهر لهم العداء .. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[5]. قال سيد -رحمه الله- : « ومن الميثاق الذي واثق الله به الأمة المسلمة ، القوامة على البشرية بالعدل .. العدل (المطلق) الذي لا يميل ميزانه مع المودة والشنآن ، ولا يتأثر بالقرابة ، أو المصلحة أو الهوى في حال من الأحوال . العدل المنبثق من القيام لله وحده بمنجاة من سائر المؤثرات .. والشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور »[6].

ومن أجل أن تكون مواقف المسلم موزونة ومعتدلة ومنصفة نذكر بعض الموازين التي ذكرها بعض أهل العلم والدعاة في الحكم على الأشخاص والهيئات

---

(1) سورة البقرة [٢٠٠ - ٢٠٢] .
(2) العبادة في الإسلام ، للقرضاوي : ص (١٨١ - ١٨٢) ، باختصار .
(3) سورة القصص [٧٧] .
(4) خلق المسلم ، محمد الغزالي : ص ٢٥٣ ، طبعة الاتحاد الإسلامي العالمي .
(5) سورة المائدة [٨] .
(6) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ج٢ ، ص ٨٥٢ ، ط ٧ .

جرحًا وتعديلاً :

٦ – ٤ – ١ : الإنسان يوزن بحسناته وسيئاته :

قال محمد بن سيرين : « ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم وتكتم خيره !! »[١]، ومن هذا الظلم أن تُذكر أخطاء المؤسسات الخيرية والجماعات الدعوية ويُتناسى حسناتها العظيمة وإصلاحاتها الجسيمة .

٦ – ٤ – ٢ : التثبت من النقل ومعرفة الأحوال :

قال ابن حجر - رحمه الله - : « إن التصدي لضبط الوقائع من الأقوال والأفعال والرجال ، يلزمه التحري في النقل ، فلا يجزم إلا بما يتحققه ولا يكتفي بالقول الشائع ، ولا سيما أَنْ تَرتَّب على ذلك مفسدة من الطعن في حق أحد من أهل العلم والصلاح ، وإن كان في الواقعة أمر فادح ؛ سواء كان قولاً أو فعلاً ، أو موقفًا في حق مستور ، فينبغي أن لا يبالغ في إفشائه ، ويكتفي بالإشارة ؛ لئلا يكون وقعت منه فلتة ؛ ولذلك يحتاج المسلم أن يكون عارفًا بمقادير الناس وبأحوالهم ومنازلهم فلا يرفع الوضيع ولا يضع الرفيع »[٢] .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - : « ومتى لم تتبين لكم المسألة لم يحل لكم الإنكار على من أفتى أو عمل حتى يتبين لكم خطؤه ، بل الواجب السكوت والتوقف ، فإذا تحققتم الخطأ بينتموه ولم تهدروا جميع المحاسن لأجل مسألة أو مائة أو مائتين أخطأت فيهم ، فإني لا أدعي العصمة »[٣] .

٦ – ٤ – ٣ : من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله :

قال سعيد بن المسيب - رحمه الله - : « إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس مَنْ لا ينبغي أن تذكر عيوبه . وقال : من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله »[٤] .

٦ – ٤ – ٤ : لا تنظر بعين واحدة :

لا تنظر إلى القضايا بعين الرضا فتحجبك عن رؤية الأخطاء ومواطن الزلل التي يجب أن تعالج وتقوم ، ولا بعين السخط التي لا ترى إلا المساوئ وقد قال الشاعر :

---

(١) البداية والنهاية : ج ٩ : ص ٢٧٥ .
(٢) نقلاً عن كتاب نفائس الخُلّة في التآخي والخلة ، لعدنان سالم الرومي وآخرون ، ط٢ .
(٣) تاريخ نجد : ج٢ ، ص ١٦١ ، نقلاً عن النقد آدابه ودوافعه على ضوء الكتاب والسنة ، لحسن بن فلاح القحطاني: ص ٧٤ - ٧٥
(٤) البداية والنهاية ، لابن كثير : ج ٩ : ص ١٠٠ ، دار الفكر .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

٦ – ٤ – ٥ : لا تحكم على مؤسسة أو جماعة من خلال خطأ وقع فيه بعض من ينتمي إليها[١] :

« إن من يعيب جماعة من الجماعات الإسلامية ، لخطأ بعض أفرادها ، فمثله كمثل من يعيب الإسلام لخطأ بعض المسلمين » [٢] .

٦ – ٤ – ٦ : لا تتعرض للنقد إلا إذا كان يحقق مصلحة راجحة .

٦ – ٤ – ٧ : الظلم محرّم حتى مع الكافر :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « الظلم محرم مطلقًا ، لا يباح قط بحال . قال الله تعالى ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾[٣] . وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار ، وهو بغض مأمور به ، فإذا كان البغض الذي أمر به الله قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه ، فكيف في بغض مسلم بتأويل وشبهة أو بهوى نفس ؟ ! فهو أحق أن لا يُظلم ، بل يعدل عليه » [٤] .

٦ – ٤ – ٨ : «أحبب حبيبك هونًا ما .. » :

إذا أردت أن تمدح فلا تبالغ ، وإذا هممت أن تقدح فلا تسفَّ . قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « والغلو مجاوزة الحد بأن يزاد من مدح الشيء أو ذمِّه على ما يستحق »[٥].

٦ - ٥ : توازن الشخصية المسلمة في المباحات :

المسلم لا يسرف في المباحات إلى حدِّ الإفراط .. ولا يحرم نفسه مما أحلَّ الله له من الطيبات ، كما أنه لا يكون بحالٍ عبد بطنه وأسير شهوته .. فالرجال الذين يغرقون في المباحات ، لا يصلحون لنشر فكرة ولا تقوم عليهم دعوة .. وإليك بعض الموازنات والضوابط التي وضعها الإسلام في هذا المجال :

٦ – ٥ – ١ : التوازن في الإنفاق :

---

(١) ضوابط رئيسة في تقويم الجماعات الإسلامية ، د . زيد الزيد : ص ١٠ - ١٣ ، [الضابط الثاني] .
(٢) المرجع السابق : ص ١٣ ، وما بعدها ، راجع الضوابط فإنها قيّمة .
(٣) سورة المائدة [٨] .
(٤) منهاج السنة النبوية : ج٥ ، (ص ١٢٦ - ١٢٧) .
(٥) فيض القدير للمناوي : ج ٣ : ص ١٢٦ .

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾(١) .

وقد قال عمر لرجل اشترى لحمًا اشتهاه : « أوكلما اشتهيت اشتريت ؟ » .

٦ – ٥ – ٢ : التوازن في المأكل :

ومن الموازين القرآنية في هذا قوله تعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا** ﴾(٢) ، وقوله - عزَّ وجلَّ - ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾(٣)، إلا أن الأكل قد حددت السنَّة مقداره وآثاره فقال ﷺ : « **ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه فإن كان ولابد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه** » (٤) ، قال ابن حجر - رحمه الله - : « والحق أن ملازمة استعمال الطيبات تفضي إلى الترفه والبطر ، ولا يأمن من الوقوع في الشبهات ؛ لأن من اعتاد ذلك قد لا يجده أحيانًا فلا يستطيع الانتقال عنه فيقع في المحظور ، كما أن منع تناول ذلك أحيانًا يفضي إلى التنطع المنهي عنه ، ويرد عليه صريح قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ (٥)(٦) .

٦ – ٥ – ٣ : التوازن في الملبس :

والإسلام يوصي بالاعتدال في ارتداء الملابس ، ويكره للرجل أن يباهي بها أو يختال فيها ؛ فهو لا يعتبر حسن البزة (٧) من عناصر الرجولة أو مقومات الخلق العظيم ، فرب امرئ لا تساوي ثيابه درهمًا تَرْجحُ نَفْسُهُ بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

قال رسول الله ﷺ : « **رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسَمَ على اللهِ لأبرَّه** » (٨) .

ولا يستنتج من هذا أن الدين يحب الملابس الزرية ، أو يرحب بالهيئات المستكرهة ، أو يندب إلى لبس المرقعات وارتداء الخرق الباليات (٩) .

« عن أبي الأحرص عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ وعليَّ ثوب دون (أي

---

(١) سورة الفرقان [٦٧] .
(٢) سورة الأعراف [٣١] .
(٣) سورة البقرة [١٧٢] .
(٤) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة ، وصححه الحاكم من حديث المقدام بن معد يكرب ، وحسَّنَه ابن حجر في الفتح : ج ٩ : ص ٥٢٨ ، وانظر أيضًا إرواء العليل : ج٧ ، ص ٤٢ ..
(٥) سورة الأعراف [٣٢] .
(٦) الفتح : ج ٩ : ص ١٠٦ .
(٧) الهيئة .
(٨) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب فضل الضعفاء والخاملين ، حديث رقم : ٢٦٢٢ .
(٩) خلق المسلم ، الغزالي : ص (٢٤٤ - ٢٤٥) ، مختصرًا .

دنيء غير لائق) فقال : ((**ألك مالٌ ؟**)) قلت : نعم . قال : ((**من أيِّ المال ؟**)) قلت : من كلِّ المال ، قد أعطاني الله من الإبل والبقر والغنم والخيل والرقيق . قال : ((**فإذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ أثرُ نعمةِ الله عليك وكرامته**)) [1].

٦ - ٦ : التوازن بين الرخص والعزائم :

إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، وحمْلُ النفس على العزيمة في موضع الرخصة قد يؤدي بصاحبه إلى الانقطاع ، كما أن تتبع الرخص تفريط وضياع ، ومن الغلو أن يُلزِمَ الأخُ إخوانَه بالعزيمة في موطن الرخصة ، وألا ينظر إليهم نظرة احتقار وامتهان .

وقد ذكر الإمام البخاري حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت : صنع رسول الله ﷺ شيئًا ترخص فيه ، وتنزه عنه قوم ؛ فبلغ النبي ﷺ ، فحمد الله ، ثم قال : ((**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني أعلمهم بالله وأشدُّهم له خشية**)) [2] . قال ابن حجر - رحمه الله - : ((إن الخير في الاتباع ؛ سواء كان ذلك في العزيمة أو الرخصة)) .

٧ - أسس وضوابط لتحقيق التوازن :

٧ - ١ : ((مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردّ)) [3] :

وهو من أعظم الأسس والضوابط التي يجب أن يزن بها المسلم أعماله وأقواله وأحواله ليحفظها من الإفراط والغلو والتقصير ؛ ولهذا أشاد أئمة الإسلام والعلماء الأعلام بهذا الحديث .

قال ابن حجر - رحمه الله - : ((وهذا الحديث معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده ، فإن معناه : من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه . قال النووي هذا الحديث مما ينبغي أن يعتنى بحفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به كذلك)) [4] . فكل ما كان عليه الرسول ﷺ فهو عين

---

(1) رواه أحمد ، حديث رقم : ١٧٢٢٩ ، والنسائي وصحح إسناده الألباني في تخريجه للمشكاة : ج ٢ ، ١٢٤٧ .

(2) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب : من لم يواجه الناس بالعتاب ، حديث رقم : ٦١٠١ .

(3) رواه البخاري ، كتاب الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صُلحِ جورٍ فالصلح مردود ، حديث رقم : ٢٦٩٧ ، من حديث عائشة .

(4) فتح الباري ، لابن حجر : ج٥ ، ص (٣٠٢ - ٣٠٣) .

الوسطية والتوازن ، وكل ما خالفه وشذ عنه فهو الشطط غلوًّا كان أو تقصيرًا .

٧ - ٢ : ترتيب الأولويات وتقديم المهمات :

إن مما يحفظ علينا توازننا في الأعمال والأقوال أن نعلم أن الشارع نظر إلى الأعمال فأعطى لكل عمل قيمته ، وجعل له منزلته في الدين ؛ ولهذا يجب أن نضع كل عمل حيث وضعه الشارع ؛ فلا نرفعه على ما هو أعلى منه ، ولا نقدمه على ما هو أحق بالتقديم عنه ؛ ولهذا ينبغي أن نقدم على الجزئيات ، ونهتم بالأصول أكثر من اهتمامنا بالفروع ، وعنايتنا بالضروريات أكبر من الحاجيات ، وحرصنا على الحاجيات أشد من حرصنا على التحسينات، وإن من الشطط أن نقيم المستحب مقام الواجب ، ومن الغلو أن ننشغل بالنوافل إلى درجة التفريط بالواجبات والفرائض .

٧ - ٣ : ((أعطِ كل ذي حق حقه)) [1] :

قد تتزاحم الواجبات أحيانًا ، وغالبًا ما يكون هذا بسبب سوء تنظيم الوقت ؛ فينبغي عندئذ أن نعالج أسباب هذا التزاحم ، ثم ننظر في الواجبات المتزاحمة ، فنقدم الواجب المؤقت على الموسع ، والعيني على الكفائي ، وما تعلق بمصلحة عظيمة على ما تعلق بمصلحة أقل منها ، وهكذا ..

٧ - ٤ : لا تبالغ .. هلك المتنطعون :

المبالغة والتهويل والتضخيم آفات سلوكية تكاد تقترب من الكذب في أكثر حالاتها ، وهي أمارة على شطط في التفكير وخلل في التصور ((ولا تكاد تجد مبالغًا إلا وفيه نقص في اتزانه واعتداله وتكامله ؛ إما على الجملة في شخصيته ونفسيته ، وإما في ذات القضية التي تناولها بالمبالغة والتهويل)) [2] :

- فلا تبالغ في وصف واقع تعيشه .
- ولا تبالغ في الجرح والتعديل .
- ولا تبالغ في عبادة مبالغة تُؤدي إلى انقطاعك أو ملالك .
- ولا تبالغ في موقفك من الأفراد والمؤسسات .
- ولا تبالغ في حماسك نحو عملٍ أحببته .

وهكذا ينبغي أن تكون دقيقًا عادلاً في أقوالك وأحكامك وأحوالك .

تنبيه : قد ذكرنا في مبحث توازن الشخصية المسلمة بعض الموازين مما أغنى عن إعادتها هنا .

---

(1) جزء من حديث رواه البخاري ، سيأتي تخريجه في المبحث (٩ – ٢) .
(2) زغل الدعاة ، سعيد الغامدي : ج١ ، ص ٥٧ ، دار الأندلس الخضراء ، ط ١ ، وانظر أيضًا أين الخلل : للقرضاوي : ص ٥٦ .

٨ - مسائل في التوازن :

لقد ذكر الدكتور محمد موسى عدة مسائل حول التوازن في كتابه « التنازع والتوازن في حياة المسلم » ، ونذكر هاهنا بعض هذه المسائل ملخصة :

٨ - ١ : التوازن بين طلب العلم وطلب ترقيق القلب :

ذكر الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - أمر الموازنة بين العلم وطلب ترقيق القلب فقال : « تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به فإذا يقوي القلب قوة يميل به إلى نوع قساوة ، ولولا قوة القلب وطول الأمل لم يقع التشاغل به ، فإني أكتب الحديث أرجو أن أرويه وأبتدئ بالتصنيف أرجو أن أتمه ؛ فإذا تأملت إلى باب المعاملات [1] قلَّ الأمل ، ورق القلب وجاءت الدموع ، وطابت المناجاة ، وغشيت السكينة .. إلا أن العلم أفضل وأقوى حجة وأعلى رتبة وإن حدث منه ما شكوت منه [2] ؛ والمعاملات وإن كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها فإنها قريبة إلى أحوال الجبان الكسلان ، الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره ، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم ؛ فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرقِّقات تلذيعًا لا يقدح في كمال التشاغل بالعلم » [3] .

وقول الإمام ابن الجوزي : « فالصواب العكوف على العلم مع تلذع النفس بأسباب المرققات .. » يُعد من القواعد الجامعة المُثلى في هذا الباب .

٨ - ٢ : التوازن بين العبادات المحضة (**كالصلاة والصيام**) **وغيرها من العبادات (كالدعوة والتعلم وصلة الرحم)** :

من الجوانب المساعدة على التوازن على هذا :

٨ - ٢ - ١ : الأولوية لإقامة الفرائض :

فلابد من الإتيان بها كاملة غير منقوصة ، ثم يأتي - بعد ذلك - بأنواع الطاعات حسب قدرته كما في الحديث القدسي : « **وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه** » .

٨ - ٢ - ٢ : فعل بعض التطوعات أمر لازم لطالب الدرجات العُلى :

---

(1) أي المعاملات القلبية مع الله تبارك وتعالى .
(2) أي نوع من قسوة القلوب .
(3) صيد الخاطر : ص ١٤١ .

فلابد للداعي من طاعات تطوعية يستعين بها على ترقيق قلبه ، واندفاعه نحو دعوته ، ومن تشاغل عن ذلك يُساق له قول الفضيل بن عياض - رحمه الله - : ((إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم ، كبَّلتْكَ خطيئَتُك)) (١) .

٨ – ٢ – ٣ : إقامة الحقوق الأخرى :

لابد من إقامة الحقوق الأخرى قبل القيام بالعبادات التطوعية ، وأعني بها حقوق الزوج والأولاد وما يماثلها مما يتعلق بذمة الشخص (٢) .

٨ – ٢ – ٤ : الشمولية في العبادة :

لابد من الجمع بين التطوعات المختلفة ؛ فلا يصلح الاقتصار على العبادات البدنية فقط ، بل هناك عبادات أخرى يحسن الإتيان بها : فالدعوة ، والتعلم ، وصلة الرحم كلها من الأمور المهمة ، بل قد تكون أهم من العبادات التطوعية البدنية ؛ وذلك - والله أعلم - لأن تلك نفعها متعدٍّ والعبادة البدنية نفعها ذاتي قاصر على العابد .

٩ - أحاديث في التوازن :

٩ - ١ : أهل العلم هم أهل التوسط والتوازن :

عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((**يحمل هذا العلم من كل خَلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين**)) (٣) .

قال ابن القيم - رحمه الله - : ((فأخبر أن الغالين يُحرِّمون ما جاء به ، والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه ، والجاهلون يتأوَّلون على غير تأويله . وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة ، فلولا أن الله - تعالى - يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء)) (٤) .

٩ - ٢ : تناصح الإخوان بالتوازن والتوسط :

عن عَونِ بن أبي جحيفة عن أبيهِ قال : آخى النبيُّ ﷺ بين سلمانَ وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أمَّ الدرداء متبذلةً فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوكَ

---

(١) نزهة الفضلاء : ج٢ ، ص ٧٧٧ .
(٢) قلت : انظر ما ذكره ابن حجر في فوائد حديث سلمان وأبي الدرداء في مبحث (٩ – ٢) .
(٣) الصحيحة للألباني : ج١ ، ص ٤٨٣ .
(٤) إغاثة اللهفان لابن القيم : ج١ ، ص ١٥٩ ، وانظر للتوسع شرح الحديث في المشكاة : ج ١ ، ص (٥٠٨ - ٥٠٩) .

أبو الدرداء ليس لهُ حاجةٌ في الدنيا ، فجاءَ أبو الدرداء فصنع لهُ طعامًا فقال له : كُلْ ، قال : فإني صائمٌ ، قال : ما أنا بآكلٍ حتى تأكُلَ ؛ فلمَّا كان الليلُ ذَهبَ أبو الدرداء يقومُ قال : نم ، فنام ، ثم ذَهب يقومُ ، فقالَ : نم ؛ فلمَّا كانَ من آخر الليل قال سَلمانُ : قُم الآنَ ، فصَلَّيَا ، فقال له سلمانُ : إنَّ لربك عليكَ حقًّا ، ولنفسِكَ عليكَ حقًّا ، ولأهلكَ عليكَ حقًّا ، فأعط كلَّ ذي حق حقَّه ؛ فأتى النبي ﷺ فذكر ذلكَ له ، فقال له النبي ﷺ : ((**صَدَق سَلمانُ**)) [١] .

قال ابن حجر - رحمه الله - في فوائد الحديث : ((وفي هذا الحديث من الفوائد : مشروعية المؤاخاة في الله ، وزيارة الإخوان والمبيت عندهم ، وجواز مخاطبة الأجنبية للحاجة ، والسؤال عمَّا يترتب عليه المصلحة . وإن كان في الظاهر لا يتعلق بالسائل ، وفيه النصح للمسلم وتنبيه من أغفل .. إلى أن قال : وفيه جواز النهي عن المستحبات إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السآمة والملل وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة أو المندوبة الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور ، وأما الوعيد الوارد على من نهى مصليًا عن الصلاة فمخصوص بمن نهاه ظلمًا وعدوانًا ، وفيه كراهية الحمل على النفس في العبادة)) [٢] .

٩ - ٣ : منهج الإسلام هو الوسطية :

عن ابن مسعود ﷺ ، قال : خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا بيده ، ثم قال : ((**هذه سبيل الله مستقيمًا**)) : ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : ((**هذه السبل ، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**)) ، ثم قرأ : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ** ﴾ [٣][٤] .

فالخط الأوسط هو سبيل الله .

٩ - ٤ : التوازن والوسطية من صفات النبوة ...

عن عبد الله بن سرجس أن رسول الله ﷺ قال : ((**السَّمْتُ الحسن ، والتؤدةُ ، والاقتصاد ، جُزءٌ من أربعةٍ وعشرين جُزءًا من النبوة**)) [٥] .

---

(١) رواه البخاري ، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ، ولم يرَ عليه قضاءً إذا كان أوفق له ، حديث رقم : ١٩٦٨ .
(٢) فتح الباري ، لابن حجر : ج٤ ، ص (٢١٢ - ٢١٣) .
(٣) سورة الأنعام [١٥٣] .
(٤) رواه أحمد في المسند ، حديث رقم : ٤١٤٢ ، ٤٤٣٧ ، وصححه أحمد شاكر إسناده ، وانظر للتوسع ، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم للقرضاوي : ص (٩٦ - ٩٧) .
(٥) صحيح الجامع الصغير : إسناده حسن ، حديث رقم : ٣٦٩٢ .

قال المناوي :« **السمت الحسن والتؤدة** : التأني والتثبت وترك العجلة ،(**والاقتصاد**) في الأمور بين طرفي الإفراط والتفريط ، (**جزء من أربعةٍ وعشرين جُزءًا من النبوة**) أي هذه الخصال من شمائل أهل النبوة وجزء من أجزاء فضائلهم فاقتدوا بهم فيها وتابعوهم عليها ؛ إذ ليس معناه أن النبوة تجزأ ، ولا أن من جمع هذه الخلال صار فيه جزء من النبوة ؛ لأنها غير مكتسبة ، أو المراد أن هذه الخلال مما جاءت به النبوة ودعا إليها الأنبياء أو أن من جمعها ألبسه الله لباس التقوى الذي ألبسه الأنبياء فكأنها جزء منها » [1] .

خامسًا : تطبيقات عملية لتأكيد معاني الدرس :

١ - وضع جدول ينظم فيه الطالب واجباته ويتذكر فيها مسؤولياته ليعطي كل ذي حق حقه من الاهتمام والرعاية .

٢ - محاسبة النفس على التقصير في الفرائض والحرص على أدائها على أحسن وأكمل وجه .

٣ - استعراض بعض صور الإفراط في « الجرح والتعديل » في واقع الدعوة مع البحث في الموقف العملي للطالب عندما يرى مثل هذا الغلو [من صور التفسيق والتضليل والتبديع والتكفير دون اتباع للضوابط الشرعية في هذا الشأن] .

٤ - التعاون في علاج صور التفريط والإهمال في عمل اليوم والليلة ، مثل :

أ - إيقاظ الأخ لإخوانه لصلاة الليل أو صلاة الفجر .

ب - دعوتهم لمجالس الذكر « تعالَ بنا نؤمن ساعة » .

٥ - مناصحة الإخوان الذين نرى فيهم انحرافاً نحو الإفراط أو التفريط .

(كما فعل سلمان مع أخيه أبي الدرداء - رضي الله عنهما -) .

سادسًا : قضايا ينبغي التنبيه عليها :

١- التأكيد على التفريط في عصرنا أكثر من الإفراط لا سيما في جانب العبادة ؛ وإنما تكاثرت النصوص في التحذير من الإفراط في العبادة ؛ لأن الصدر الأول كانوا أهل إيمانٍ قوي وهمَّة عالية ، وأما في زماننا فضعف الإيمان ، وكثرت الاستجابة لنزغات الشيطان ؛ فالقلوب تميل إلى التفريط أكثر من ميلها إلى الإفراط .

---

(1) فيض القدير شرح الجامع الصغير : ج٤ ، ص ١٤٥ .

وهذا يعني أن نركز في حديثنا على جانب التفريط أكثر من جانب الإفراط .

٢- التحذير من التسرع في تبديع أو تفسيق أو تكفير الدعاة الصالحين لمجرد خطأ وقعوا فيه ، والتحذير من أهل الغلو في الجرح في زماننا الذين لم يسلم من لسانهم أحد من الصالحين .

سابعًا : المراجع :

١- معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل .
٢- المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ط١ .
٣- بصائر تربوية ، عمر الأشقر ، دار النفائس ، ط١ .
٤- لسان العرب ، لابن منظور .
٥- موسوعة أخلاق القرآن ، للشرباصي ، دار الرائد العربي .
٦- الاعتدال في التدين فكرًا وسلوكًا ومنهجًا ، للدكتور محمد الزحيلي ، اليمامة للطباعة والنشر ، ط٣ .
٧- فتح الباري ، لابن حجر ، دار المعرفة .
٨- صحيح الإمام مسلم ، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
٩- شرح النووي لصحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي ، ط ٢ .
١٠- السلسلة الصحيحة للألباني ، المكتب الإسلامي ، مكتبة المعارف .
١١- آفات على الطريق ، السيد محمد نوح ، دار الوفاء ، ط ١ .
١٢- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، دار إحياء التراث العربي .
١٣- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق الفقي .
١٤- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط ٧ .
١٥- المرقاة شرح المشكاة ، للقاري ، المكتبة التجارية .
١٦- فيض القدير ، للمناوي ، دار المعرفة .
١٧- حجة الله البالغة ، للدهلوي ، دار المعرفة .
١٨- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ، للقرضاوي ، دار الوفاء ، ط ١ .
١٩- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة ، للقرضاوي ، مكتبة وهبة ، ط ١ .
٢٠- شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبى العز الحنفي ، المكتب الإسلامي ، ط ٨ .
٢١- التنازع والتوازن في حياة المسلم ، لمحمد حسن عقيل موسى ، دار الأندلس

الخضراء ، ص ٣ .
٢٢- زغل الدعاة ، سعيد بن ناصر الغامدي ، دار الأندلس الخضراء ، ط ١ .
٢٣- خلق المسلم ، للغزالي ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية .
٢٤- البداية والنهاية ، لابن كثير ، دار الفكر .
٢٥- نفائس الحلة في التآخي والخلة ، لعدنان سالم الرومي وآخرون ، ط ٢ .
٢٦- ضوابط رئيسية في تقويم الجماعات الإسلامية ، للدكتور زيد الزيد ، دار العاصمة ، ط ١ .
٢٧- النقد وآدابه ودوافعه على ضوء الكتاب والسنة ، لحسن بن فلاح القحطاني ، مكتبة دار الحميضي للنشر ، ط ١ .
٢٨- الإنصاف سبيل للائتلاف واجتماع الكلمة ، عبيد بن أبي نفيع الشعبي ، دار الوطن ، ط ١ .
٢٩- العبادة في الإسلام ، للقرضاوي ، مؤسسة الرسالة .
٣٠- أين الخلل ، للقرضاوي ، دار الصحوة للنشر ، ط ١ .
٣١- صيد الخاطر ، ابن الجوزي ، دار اليقين للنشر والتوزيع ، ط ١ .
٣٢- نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ، لمحمد حسن عقيل موسى ، دار الأندلس الخضراء .
٣٣- هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًّا ، محمود محمد الخازندار ، دار طيبة ، ط ١ .
٣٤- صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، المكتب الإسلامي .
٣٥- مسند الإمام أحمد ، دار قرطبة ، بترقيم الألباني .
٣٦- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للمناوي ، دار المعرفة .
٣٧- الوسطية في الإسلام (تعريف وتطبيق) زيد الزيد ، دار العاصمة ، ط ١ .

تــوبة

التوبــة

أولا : دلالة المصطلح :

أ - لغــة :

قال ابن منظور : ((التوبة : الرجوع من الذنب ، وتاب إلى الله يتوب توبًا وتوبة ومتابًا : أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة . رجل توَّاب : تائب إلى الله .. والله التوَّاب : يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه)) [1] .

قال ابن فارس : ((توب : التاء والواو والباء كلمة واحدة تدل على الرجوع)) [2] .

ب - اصطلاحًا (شرعًا) :

- قال ابن القيم - رحمه الله - : ((التوبة هي رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ..)) [3] .
- وقال - رحمه الله - : ((فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي ، والإقلاع عنه في الحال ، والعزم على أنه لا يعاوده في المستقبل)) [4] .
- قال الجرجاني - رحمه الله - : ((والتوبة في الشرع الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة ..)) [5] .
- قال سهل بن عبد الله : ((التوبة هي : الندم والإقلاع والتحول عن الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة)) [6] ، وهو معنى حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ : ((**الندم توبة**)) [7] .
- قال الراغب الأصفهاني : ((والتوبة في الشرع : ترك الذنب لقُبحه ، والندم على ما فَرَط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يُتدارك من

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور : ج١ ، ص ٤٥٤ ، مادة (توب) .
(٢) معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس : ج١ ، ص ٣٥٧ .
(٣) تهذيب مدارج السالكين ، لابن القيم : ص ١٢١ .
(٤) المرجع السابق : ص ١٢٣ .
(٥) التعريفات للجرجاني : ص (٩٥ - ٩٦) .
(٦) مكفرات الذنوب ، لابن الديبع ، دار الإصلاح : ص ٣٠ ، وللتوسع انظر بقية التعاريف التي ساقها المؤلف - رحمه الله - .
(٧) حديث صحيح رواه أحمد وعده عن ابن مسعود ، صحيح الجامع برقم : ٦٨٠٢ .

الأعمال بالإعادة ؛ فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كَمُلَ شروط التوبة)) [1] .

ج - الألفاظ المقاربة للمصطلح :

١ - الإنابـة :

قال الجرجاني : ((والإنابة قريبة من التوبة لغةً وشرعًا)) [2] .

قـال الراغـب - رحمـه الله - : ((والإنابـة إلـى الله تعـالى : الرجـوع إليـه بالتوبـة وإخلاص العمل قال الله تعالى : ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [3])) [4] .

٢ - الأوبـة :

قال ابن منظور - رحمه الله - : أوّابٌ : كثيرُ الرجوع إلى الله - عزَّ وجلَّ - من ذنبـه ، والأوبة : الرجوع كالتوبة . والأوَّاب : التائب [5] .

قـال الطبـري - رحمـه الله - فـي تأويـل قولـه تعـالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [6] : ((إنه رجَّاع إلى طاعة الله ، توَّاب إليه)) [7] .

قيل : ((من رجع عن المخالفات خوفًا من عذاب الله فهو تائب .

ومن رجع حياءً من نظر الله ، فهو منيب .

ومن رجع تعظيمًا لجلال الله ، فهو أوَّاب)) [8] .

قال أبو القاسم القشيري : ((التوبـة صـفة المـؤمنين . قـال تعـالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [9] ، والإنابـة صـفة الأوليـاء والمقـربين . قـال تعـالى : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [10] ، والأوبـة صـفة الأنبيـاء والمرسـلين . قـال تعـالى : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [11])) [12] .

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني : ص ٧٦ ، وانظر أيضًا فتح الباري : ج١١ ، ص ١٠٣ .
(2) التعريفات للجرجاني .
(3) سورة ص [٢٤] .
(4) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني : ص ٨٢٦ .
(5) لسان العرب : ج١ ، ص ١٦٧ .
(6) سورة ص [٣٠] .
(7) مختصر تفسير الطبري : ج٢ ، ص ٢٦٦ .
(8) التوبة ، للبيانوني : ج١ ، ص ٢٩ .
(9) سورة النور [٣١] .
(10) سورة ق [٣٣] .
(11) سورة ص [٤٤] .
(12) مكفرات الذنوب وموجبات الجنة ، لابن الديبع الشيباني ، دار الإصلاح : ص (٢٩ - ٣٠) .

٣ ـ الاستغفــار :

قال القرطبي في تفسيره : « الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هي الاستغفار » [١] .

قلت : وهناك من فرّق بين التوبة والاستغفار مثل شيخ الإسلام ابن تيمية (انظر الفتاوى : ج ١٠ ، ص ٣١٩) ، وكذلك فعل البخاري في صحيحه ؛ حيث عقد بابين مستقلين أحدهما للاستغفار ، ثم الذي يليه مباشرة عن التوبة مما يشعر بأنه - رحمه الله تعالى - يرى أن بينهما فارقًا في المعنى ، والله أعلم .

قال ابن القيم : « الاستغفار إذا ذُكر مفردًا يُراد به التوبة مع طلب المغفرة من الله ، وهو محو الذنب ، وإزالة أثره ووقاية شره ، والستر لازم لهذا المعنى ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [٢] ، فالاستغفار بهذا المعنى يتضمن التوبة .

أما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى ؛ فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى ، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله [٣] ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [٤] .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من الدرس إلى غرس المفاهيم التالية :

١- بيان المعنى الحقيقي للتوبة ، وأنها تجمع بين توبة الأحوال وتوبة الأعمال (أو توبة القلب وتوبة الجوارح) .
٢- الحث على خلق التوبة حتى تعتاده النفوس ، وذلك ببيان فضل التوبة وثمراتها .
٣- التحذير من توبة الكذابين التي يتحرك بها اللسان دون أن يكون لها أثر في الجنان .
٤- التأكيد على علامات التوبة المقبولة ، وذلك بذكر الآثار الحسنة والأعمال الصالحة التي تعقب توبة التائب ، وإنابة المنيب .
٥- التعريف بأسباب استدامة العبد على توبته ، واستقامته عليها مما يثبت العبد على الطاعة ، ويقلل من « الحَور بعد الكور » [٥] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ج ٩ : ص ٣ .
(٢) سورة نوح [١٠] .
(٣) مدارج السالكين : ج١ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، وانظر أيضًا للتوسع : الموسوعة الفقهية : ج ١٤ : ص ١١٩ ، وزارة الأوقاف ـ الكويت ، ط ٢ .
(٤) سورة هود [٥٢] .
(٥) أي من النقصان بعد الزيادة ، والنكوص بعد الاستقامة ، وانظر لسان العرب مادة (كور) : ج٥ ، ص ٣٩٥٣ .

٦- عرض صورة لتوبة سلفنا الصالح لتتجسد معاني التوبة النظرية بترجمة عملية .
٧- بيان بعض الأحكام التي تتعلق بتوبة التائب حتى تكون توبته صحيحة موافقة لما يريده الشارع .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- دلالة المصطلح (سبق في مقدمة البحث) .
٢- أهمية الموضوع .
٣- حكم التوبة :
   ٣ - ١ : حكمها .
   ٣ - ٢ : المبادرة إليها .
   ٣ - ٣ : الوقاية خير من العلاج .
٤- ثمرات التوبة وفضلها .
٥- شروط التوبة الصحيحة .
٦- توبة الكذابين .
٧- هل قُبلت توبتك ؟ وهل أنت صادق فيها ؟
٨- حوار مع دمعة .
٩- بواعث التوبة وأسباب استدامتها . (لماذا ننقض التوبة ؟ وكيف نثبت عليها ؟).
١٠-مراتب التوبة .
١١-مسائل في التوبة .
١٢-مع التائبين .

رابعًا : العرض :

١ - دلالة المصطلح : (راجع مقدمة المبحث) .

٢ - أهمية الموضوع :

هناك أسباب كثيرة تجعل الحديث عن التوبة من الأهمية بمكان ، ومنها :

٢ - ١ : جهل الكثير من الناس بحقيقة التوبة وشروطها وآدابها ، واقتصارهم على ترديدها باللسان دون أن يكون لها أثر في الجنان والكيان . كما قيل : ((توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم)) ، يعني يقولون : نستغفر الله ونتوب إليه ؛ وهم مصرون على المعصية .

٢ - ٢ : لابد للعبد من التوبة وإلا كان ظالمًا لنفسه ، جاهلاً لنفسه ، جاهلاً بربه ،

قـال مجاهد - رحمـه الله - : ((من لم يتب كل صباح ومساء فهو من الظـالمين)) ؛ ولهـذا قـال ابـن القـيم - رحمـه الله - : ((قـال الله تعـالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [1] ، قسم العباد إلى تائب وظـالم ، ومـا ثَمَّ قسم ثالث ألبتـة ، وأوقـع اسم (الظالم) على من لـم يَتُبْ ولا أظلـم منـه ، لجهلـه بربـه وبحقـه ، وبعيب نفسـه وآفـات عمله)) [2] .

٢ - ٣ : أمر الله بها ، وكرر ذكرها في كتابـه (سبعة وثمـانين مـرة) [3] ، وأمـر بها رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : ((**يا أيها الناس توبوا إلى الله**)) [4] ، وكثـرة ملازمتـه ﷺ لهـا فهو يقول عن نفسه : ((**فإني أتوب في اليوم مائة مرة**)) . يدل ذلك كله على أهميـة التوبـة في صقل جنان المسلم وتطهيره ، وتزكيـة نفسـه وصـفاء روحـه ، فهـي كالترياق من السم [5] .

٢ - ٤ : إن التوبـة مـن أفضـل القربـات التـي ينبغـي الحـث عليهـا والتـذكير بهـا والحديث عنهـا ؛ ذلـك لأن لهـا عنـد الله تعـالى ((منزلـة ليسـت لغيرهـا مـن الطاعـات ؛ ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر ، كمـا مثلـه النبـي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه فـي الأرض المهلكـة ، بعدما فقدها ، وأيس من أسباب الحياة [6] . ولم يجيء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبـة)) [7] .

٢ – ٥ : ضرورة استصحاب التوبة في جميع مراحل التربية ، وأهمية التعبد بها في كل الأحوال عند تقصير العبد وعند طاعته وعند إحسانه وإساءته فهـي ضـرورة في بداية سيره ونهايته ؛ ولهذا قال الله تعالى لرسوله ﷺ في خاتمة حياتـه : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾[8]، وقد أمره بها في أول حياته كما في سورة المزمل ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ** ﴾ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن التوبة : ((هي مقام يستصحبه العبد من أول ما

---

(١) سورة الحجرات [١١] .
(٢) تهذيب مدارج السالكين ، لابن القيم : ص ١٢١ .
(٣) توب ومشتقاتها ، وانظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فؤاد عبد الباقي : ص ١٥٦ - ١٥٨ .
(٤) رواه مسلم ، كتاب الذكر ، باب استحباب الاستغفار الاستكثار منه ، برقم ٢٧٠٢ .
(٥) للتوسع انظر الفتاوى لشيخ الإسلام : ج١٠ ، ص (٦٣٧ - ٦٣٨) .
(٦) حديث أنس في الصحيحين قال : قال رسول الله ﷺ : ((**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلّه في أرض فلاة**)) .
(٧) مدارج السالكين ، لابن القيم : ج١ ، ص ٣٢٣ .
(٨) سورة النصر [١ – ٣] .

يدخل فيه إلى آخر عمره ، ولابد منه لجميع الخلق ، فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وأن يستديموا التوبة » (١) .

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : « ومنزلة التوبة » أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات ، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ونزل به . فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك » (٢) .

٣ - حكم التوبة :

٣ - ١ : حكم التوبة :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « التوبة نوعان : واجبة ومستحبة .

فالواجبة : هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور ، وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك في كتابه وعلى ألسنة رسله .

والمستحبة : هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكرهات :

- فمن اقتصر على التوبة الأولى (الواجبة) كان من الأبرار المقتصدين .
- ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين .
- ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين » (٣) .

قال القرطبي : « ولا خلاف بين الأمة في وجوب التوبة ، وأنها فرض متعين » (٤) .

قلت يعني النوع الأول .

٣ - ٢ : المبادرة بها والتحذير من التسويف بها :

قال الجرجاني : « وهي - أي التوبة - واجبة على الفور ، عند عامة العلماء ، أما الوجوب فلقوله تعالى : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (٥) ، وأما الفورية ، فلما في تأخيرها من الإصرار المحرّم » (٦) .

---

(١) الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية : ج١١ ، ص ٦٨٨ .
(٢) تهذيب المدارج : ص ١٢١ ، وانظر أيضًا للتوسع الإحياء للغزالي : ج٤ ، ص (٢ - ٣) .
(٣) رسالة في التوبة ، لشيخ الإسلام ابن تيمية : ص ١١ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن : ج١٢ ، ص ٢٣٨ ، وانظر أيضًا للتوسع الإحياء : ج٤ ، ص ٤ .
(٥) سورة النور [٣١] .
(٦) التعريفات للجرجاني : ص ٦٩ ، وانظر للتوسع الإحياء : ج٤ ، ص ٧ [بيان أن وجوب التوبة على الفور] .

وقد وصف الله عباده المتقين بعدم الإصرار على المعصية فقال : ﴿ **وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (١) . قال سهل بن عبد الله : « الجاهل ميت ، والناسي نائم ، والعاصي سكران ، والمصرُّ هالك ، والإصرار هو التسويف ، والتسويف أن يقول : أتوب غدًا ؛ وهذا دعوى النفس ، كيف يتوب غدًا وغدًا لا يملكه » (٢) .

قال محمود الورَّاق :

قــدّم لنفسِــك توبــة مرجــوّةً قبل المماتِ وقبل حَبْس الألْسُنِ

بادر بهــا غَلَــقَ النفــوس فإنها ذُخْـرٌ وغُـنم للمنيـبِ المحسـنِ (٣)

فبادر بالتوبة واحذر التسويف ، فإن الموت يأتي بغتة ، والأجل ينقضي فجأة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾ (٤) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **من كانت لأخيه مظلمة من عرض أو مال ، فليتحلله اليوم ، قبل أن يُؤخذ منه يومَ لا دينار ولا درهم ، فإن كان له عملٌ صالح ، أُخذ منه بقدر مظلَمتِه ، وإن لم يكن له عمل ، أُخذ من سيئات صاحبه فجعلت عليه** » (٥) .

٣ - ٣ : الوقاية خير ..

الوقاية من الذنوب ، والسلامة من الآثام خير من طلب التوبة ؛ ولهذا قال الحسن البصري - رحمه الله - : « يا ابن آدم : ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة » (٦) ؛ وذلك لأنه ربما لا يوفق لها ، وإذا وفق وتاب فإنها ربما لا تقبل والسلامة خير مغنم .

٤ - ثمرات التوبة وفضلها :

التوبة - كما ذكرت - من أجل الطاعات ، وأفضل القربات وصاحبها له عند الله منزلة عظيمة وعطايا كريمة .. نسأل الله - عزَّ وجلَّ - أن يجعلنا من التوابين المتطهرين .. ومن ثمرات التوبة وفضلها :

---

(١) سورة آل عمران [١٣٥] .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ج٤ ، ص ٢١١ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج٥ ، ص ٩٢ ، غلق النفوس : يُقال : غلق الرهن إذا لم يقدر على افتكاكه . يريد : بادر بالتوبة قبل ضياع الفرصة (الحاشية) .
(٤) سورة النساء [١٨] .
(٥) رواه البخاري ، كتاب المظالم ، باب مَنْ كانت له مظلمة عند الرجل فحلَّلها له هل يبين مظلمته ، برقم : ٢٤٤٩ .
(٦) الزهد ، للإمام أحمد : ج٢ ، ص ٢٤٢ .

٤ ـ ١ : التوبة طريق للفلاح :

قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [1]. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : ((وهذه الآية في سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ، ثم علَّق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة (لعلَّ) المشعرة بالترجي ؛ إيذانًا بأنكم إذا تُبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون . جعلنا الله منهم)) [2] .

٤ ـ ٢ : الملائكة تدعو للتائبين :

قال الله تعالى يخبرنا عن هذه الثمرة : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [3].

قال خلف بن هاشم النجار القارئ : ((كنت أقرأ على سليم بن عيسى ، فلما بلغت هذه الآية ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا... ﴾ بكى ثم قال : يا خلف ! ما أكرمَ المؤمن على الله ، نائمًا على فراشه ، والملائكة يستغفرون له)) [4] .

٤ ـ ٣ : سعة الرزق ورغد العيش :

قال تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [5] ، أي يمتعكم بالمنافع : من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب ، كما فعل بمن هلك قبلكم من الأمم [6] .

[وقيل : استغفروا من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقع منكم] .

وفي هذا المعنى ما قاله هود لقومه : ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [7] ، وقد وعد نوح ـ عليه السلام ـ

---

(1) سورة النور [٣١] .
(2) تهذيب مدارج السالكين : ص ١٢١ .
(3) سورة غافر [٧] .
(4) التوبة ، للبيانوني : ج١ ، ص (١٠٧ ـ ١٠٨) .
(5) سورة هود [٣] .
(6) التوبة ، للبيانوني : ج٢ ، ص ٣٩ .
(7) سورة هود [٥٢] .

قومه ، بخمسة أصناف من الرزق إن هم تابوا واستغفروا ربهم : ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾ (١) .

٤ - ٤ : تكفير السيئات وغفران الخطيئات ..

وفي ثمرات التوبة العظيمة وبركاتها الجسيمة ، أن الله يبدل سيئات من تاب إلى الله حسنات ، كما بشر الله - عزَّ وجلَّ - عباده بذلك فقال : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ (٢) ..

وخلاصة أقوال السلف في تأويل قوله تعالى : ﴿ **يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ﴾ يمكن حصرها في قولين هما :

((**القول الأول** : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصًا ، وأبدلهم بالفجور إحصانًا ، وبالكفر إسلامًا ؛ أي أن التبديل يكون في الدنيا ، وأثره في الآخرة [بمعنى التبديل يكون في عمل الشخص ومنهجه في الحياة من الطلاح إلى الصلاح] . وهذا هو معنى قول الحسن البصري في الآية .

القول الثاني : أن تلك السيئات تنقلب بالتوبة النصوح نفسها حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ؛ فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، أي أن التبديل يكون في الآخرة)) (٣) .

قال القرطبي (٤) - رحمه الله - : فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ، وقد ((قال رسول الله ﷺ : **إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجًا منها رجلٌ يُؤتى به يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ؛ فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ؛ فيقول : يا رب قد**

(١) سورة نوح [٩ - ١٢] .
(٢) سورة الفرقان [٧٠] .
(٣) التفسير المنير ، لوهبة الزحيلي : ج ١٩ : ص ١١٠ ، بتصريف .
(٤) الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ : ص (٧٨ - ٧٩) .

عملتُ أشياء لا أراها هاهنا .. فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه))[1].

وقال أبو طويل : يا رسول الله ، أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئًا ، وهو في ذلك لم يترك حاجَّة ولا داجَّة [2] إلا اقتطعها ؛ فهل له من توبة ؟ قال : ((**هل أسلمت ؟**))

قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال : ((**نعم ، تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات**)). قال : وغدراتي وفجراتي يا نبي الله ؟ قال : ((**نعم**)) . قال : الله أكبر ! فما زال يكررها حتى توارى [3] .

وأي شيء أعظم من ذلك النداء الذي حدّث به النبي ﷺ عن ربه أنه يقول : ((**يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أُبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني ، غفرت لك ولا أُبالي ، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**)) [4] .

وقال ﷺ : ((**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**)) [5] .

٤ - ٥ : نور البصيرة وانشراح الصدر :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : ((إنه ليقف خاطري في المسألة ، والشيء أو الحالة التي تشكل عليّ ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة ، أو أكثر ، أو أقل ، حتى ينشرح الصدر ، وينحل إشكال ما أشكل)) [6] .

٤ - ٦ : صقل القلب وطهارته ووضاءته :

---

(1) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، برقم : ١٩٠ .
(2) أراد بالحاجَّة : الحاجة الصغيرة ، وبالداجّة : الحاجة الكبيرة ، وانظر مجمع الزوائد : ج١ ، ص ٣١ .
(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير : ج٧ ، ص ٣٧٦ ، قال الهيثمي في المجمع : ج١ ، ص ٣٢ ، رواه الطبراني والبزار بنحوه ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة ، وقال المنذري في الترغيب : ج٤ ، ص ١١٣ : ((إسناده جيد قوي))، وانظر الإصابة ، لابن حجر : ج٤ ، ص ١٤٩ .
(4) رواه الترمذي ، حديث رقم : ٣٥٤٠ ، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : ج٢ ، ص ٤٠٠ ، إسناده لا بأس به ، والحديث في صحيح الجامع : ٤٣٣٨ ، وللتوسع انظر أيضًا : المرقاة شرح المشكاة ، حديث رقم : ٤٣٣٦ .
(5) رواه ابن ماجة : ٤٢٥٠ ، وقال السخاوي في المقاصد (٣١٣) : ((حسَّنَه شيخنا - يعني ابن حجر - لشواهده)) ، وقد حسنه الألباني في الجامع الصحيح : ٣٠٠٨ ، وفي السلسلة الضعيفة : ٦١٥ ، ٦١٦ .
(6) ابن تيمية بطل الإصلاح الديني : ص ٧ ، ط ٢ .

التوبة بمنزلة المصقلة للقلب تذهب بوسخه وسواده ، وتنظفه وتحافظ على بياضه ؛ ولهذا قال ﷺ : ((**إن المؤمن إذا أذنب كانت نُكتةٌ سوداء في قلبه ، فإن تاب واستغفر صُقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلوَ قلبَه ، فذلكم الرَّان الذي ذكر الله تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [1])) [2] . والنكتة : الأثر ، أي الذي يتركه الذنب في قلب صاحبه ، قال القاري : ((كقطرة مداد تقطر في القرطاس ، ويختلف على حسب المعصية وقدرها .. قال الطيبي : والآية ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم** ﴾ في الكفار إلا أن المؤمن بارتكاب الذنب يشبههم في اسوداد القلب ، ويزداد ذلك بازدياد الذنب ، قال ابن الملك : ((هذه الآية مذكورة في حق الكفار ، لكن ذكرها ﷺ تخويفًا للمؤمنين كي يحترزوا عن كثرة الذنب كيلا تسودَّ قلوبهم كما اسودت قلوب الكفار ؛ ولذا قيل : المعاصي بريد الكفر))[3]، والقلب كلما تاب واستغفر ازداد وضاءة وطهارة كما قال ﷺ : ((**إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**)) [4].

٤ - ٧ : محبة الله - عزَّ وجلَّ - :

مع فرح الله - عزَّ وجلَّ - بتوبة عبده جعل محبته له ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [5] .

قال العلماء : ((التوابين)) من الذنوب ، ((المتطهرين)) من الأقذار [6] ، وهذا يدل على سعة رحمته وعظيم جوده وكرمه ؛ إذ يرغب العباد بالتوبة إليه وهو الغني عنهم من كل وجه ، وهم الفقراء إليه من كل وجه .

٤ - ٨ : الخيرية على عباده :

---

(1) سورة المطففين [١٤] .
(2) رواه الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجة ، وأحمد في مسنده برقم : ٧٩٥٧ .
(3) المرقاة شرح المشكاة ، للقاري : ج٥ ، ص (١٧٢ - ١٧٣) .
(4) رواه مسلم في كتاب الذكر ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، برقم : ٢٧٠٢ ، قال النووي في معنى الغين : ما يتغشى القلب ، قال القاضي : قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه ، فإذا أفتر عنه أو غفل ، عُدَّ ذلك ذنبًا ، واستغفر منه ، وانظر صحيح مسلم : ج ٤ ، ص ٢٠٧٥ ، وانظر أيضًا الفتح : ج١١ ، ص ١٠١ .
(5) سورة البقرة [٢٢٢] .
(6) التفسير المنير للزحيلي : ج٢ ، ص ٣٩٧ .

إن خير العباد مَنْ أسرع التوبة واستدام الأوبة . قال ﷺ : ((**كل بني آدم خطَّاء ، وخير الخطَّائين التوابون**)) (١) ، أي الرجاعون إلى الله بالتوبة من المعصية إلى الطاعة ، أو بالإنابة من الغفلة إلى الذكر .

٤ - ٩ : فرح الخالق بالتائب :

يفرح الحق - عزَّ وجلَّ - بتوبة عبده فرح المستغني عنه المتفضل عليه ؛ ولهذا قال ابن القيم (٢) - رحمه الله - وهذه فرحة إحسان وبر ولطف ، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده ، منتفع بها .. فهو سبحانه لا يتكثَّر به من قلة ، ولا يتعزز به من ذِلَّة ، ولا ينتصر به من غلبة ، ولا يَعُدُّه لنائبة ، ولا يستعين به في أمر . ويصوِّر لنا رسول الله ﷺ تلك الفرحة بمثال فيقول : ((**لله أشدُ فرحًا بتوبة عبده ، حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحِلتهِ بأرض فِلاةٍ . فانفلتت عنه ، وعليها طعامُهُ وشرابُهُ ، فأيس منها ؛ فأتى شجرةً ، فاضطجع في ظلها . قد أيِسَ من راحلته ؛ فبينا هو كذلك إذا هو بها ، قائمةً عنده ، فأخذ بخطامِها ، ثم قال من شدةِ الفرح : اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربك ! أخطأ من شدة الفرح**)) (٣) قلت : والحديث فيه فوائد دعوية تربوية ؛ وهي عدم المؤاخذة بالخطأ غير المتعمد في حق الله - عزَّ وجلَّ - ، وفيه التعليم بضرب الأمثلة ، وتقريب المفاهيم ، وزيادة الإيضاح .

٤ - ١٠ : التوبة : سبيل الظفر برحمة الله الواسعة :

إن التائبين هم أهل رحمة الله - عزَّ وجلَّ - وكرامته ، وفضله ومنته ، وانظر إلى عاقبة آدم وإبليس لترى مكانة التائبين عند الله وسعة رحمته لهم ، فآدم تاب واستغفر ، فكانت عاقبته كما قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** ﴾ وإبليس كفر واستكبر فكانت عاقبته ﴿ **قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ (٤) فشتان بين المآلين ، وما أعظم البون بين العاقبتين ، نسأل الله - عزَّ وجلَّ - أن يحسن عاقبتنا ويتوَلانا برحمته وعفوه .

٤ - ١١ : حفظ الله ورعايته :

---

(١) رواه الترمذي : ٢٧٩٩ ، وابن ماجة : ٤٢٥١ ، والدارمي في سننه : ج٢ ، ص ٣٠٣ ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده : ١٣٠٤٨ ، قال صاحب التمييز (١٣٩) : سنده قوي ، وقد حسَّنَه الألباني في صحيح الترمذي ، ٢٠٢٩ .

(٢) تهذيب مدارج السالكين ، لابن القيم : ص ١٢٤ .

(٣) رواه البخاري ، في الدعوات ، باب التوبة ، برقم : ٦٣٠٩ ، ورواه مسلم ، واللفظ له ، في كتاب التوبة ، باب الحض على التوبة برقم : ٢٧٤٧ .

(٤) سورة الأعراف [١٨] .

كان الفضيل بن عياض - رحمه الله - يقول للمجاهدين : إذا أرادوا أن يخرجوا للجهاد : ((عليكم بالتوبة فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف)) [1] .

٥ - شروط التوبة الصحيحة :

لما كانت حقيقة التوبة لا تقتصر على إقرار اللسان بالذنب واعترافه به واستغفاره منه - كما يفهمه كثير من الناس - بل يتضمن أيضًا توبة الجنان وهي الندم على ارتكاب التقصير ، وعزمه على عدم مواقعته مرة أخرى ؛ وهو ما يعقبه استقامة الأركان على طاعة الرحمن ؛ ونظرًا لغياب هذا المفهوم للتوبة عند كثيرٍ من الخلق - لا سيما من الخلف - واقتصارهم على توبة اللسان ؛ لذا كان من الأهمية الحديث عن شروط التوبة ولوازمها ، وهذا يفسر لنا سبب تأصيل أهل العلم لشروطها حتى لا تضيع معالمها التي كانت تبدو جلية عند سلفنا الصالح حال توبتهم ، كما قال تعالى في وصف حال الثلاثة الذين خلفوا عند توبتهم : ﴿ **حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [2] .

إنها ملامح القلب التائب الذي أقلقه الذنب حتى ضاقت عليه الأرض على سعتها **!!** .

ومما ذكر العلماء من شروط التوبة إن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي :

٥ - ١ : الإقلاع عن الذنب :

وهو الكف عن الذنب في الحال [3] . قال ابن القيم : ((فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب)) [4] .

قال الشيخ ابن عثيمين : ((والإقلاع عن الذنب إن كان الذنب ترك واجب فالإقلاع بفعله مثل أن يكون شخص لا يزكي فأراد أن يتوب إلى الله فلابد أن يخرج زكاته التي مضت ولم يؤدِّها ، وإن كانت المعصية بفعل محرم فالواجب أن يقلع عنه فورًا ، ولا يبقى فيه ولا لحظة . إذا كان مثلاً من آكلي الربا فالواجب أن يتخلص من الربا بتركه والبعد عنه وإخراج ما اكتسبه عن طريق الربا)) [5] .

٥ - ٢ : الندم على فعلها :

---

(1) التوبة النصوح : ص ١٥ .
(2) سورة التوبة : [١١٨] .
(3) انظر الجامع لأحكام القرآن : ج٥ ، ص ٩١.
(4) تهذيب المدارج : ص ١٢٣ .
(5) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين : ج١ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

قال رسول الله ﷺ : ((**الندم توبة**)) [1] ، وهو الركن الأعظم في التوبة . قال الكلبي - رحمه الله - : ((التوبة النصوح الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان والإقلاع عن الذنب ، والاطمئنان على ألا يعود)) ، والاطمئنان على ألا يعود ، أي العزم وهو الشرط التالي ، وأما الاستغفار فقد قال بعض أهل العلم : إنه مكمّل وليس بشرط .

٥ - ٣ : العزم على ألا يعود [2] :

قال ابن مسعود ﷺ : ((التوبة النصوح هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع)) .

قال أهل العلم [3] : من حقوق الله - عزَّ وجلَّ - ما لم يكتف الشرع فيها بإقلاع العاصي وندمه وعزمه على ألا يعود لمعصيته ، بل أضاف إليه القضاء أو الكفارة ، هذا محصلة ما ذكره ابن حجر نقلاً عن القرطبي في المفهم ، ومن أمثلة ذلك كتأخير الصلاة عن وقتها لغير عذر وتأخير قضاء رمضان ، والطهارة ، ونحوها .

قال السيوطي [4] : قول الله تعالى : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا** ﴾ [5] يدل على أنه لا يكتفي في صحة التوبة بالندم على ما سلف ، بل لابد من تدارك ما فات في المستقبل حيث قال تعالى : ﴿ **وَبَيَّنُوا** ﴾ ذكره الرازي والكيا .

٥ - ٤ : رد المظالم إلى أهلها أو التحلل منهم :

قال الإمام النووي - رحمه الله - بعد أن ذكر الشروط الثلاثة السابقة : ((وإن كانت المعصية تتعلق بآدميٍّ فشُرُوطها أربعة : هذه الثلاثةُ ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كان مالاً أو نحوه ردَّه إليه ، وإن كانت حدَّ قذفٍ ونحوه مكّنهُ منهُ أو طلب عَفْوَهُ ، وإن كانت غيبةً استحلَّه منها)) [6] .

٥ - ٥ : الإخلاص :

فشرط التوبة الصحيحة أن يكون صاحبها قد ترك الذنب لله - عزَّ وجلَّ - وخوف

---

(1) رواه أحمد : ج١ ، ص (٣٧٦ - ٤٢٣) ، وقد صحح إسناده أحمد شاكر ، وابن ماجة : ٤٢٥٢ ، وغيرهما ، وهو في صحيح الجامع برقم : ٦٨٠٢ . قال ابن حجر في الفتح (ج١١ : ص ١٠٣) : وقد تمسك من فسّر التوبة بالندم بما أخرجه أحمد وابن ماجة وغيرهما من حديث ابن مسعود رفعه ((الندم توبة)) ، ولا حجة فيه ؛ لأن المعنى الحض عليه وأنه الركن الأعظم في التوبة لا أنه التوبة نفسها ، وانظر للتوسع الموسوعة الفقهية : ج١٤ : ص ١٢١ .

(2) الفتح ، لابن حجر : ج١١ : ص ٩١ ، وانظر أيضًا : نزهة المتقين : ج١ ، ص ٣٠ .

(3) انظر للتوسع الفتح : ج١ ، ص ١٠٣ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج٤ ، ص ٢١٣ .

(4) الإكليل : ص ٢١ .

(5) سورة البقرة [١٦٠] .

(6) رياض الصالحين ، للإمام النووي : ص ١٢، مؤسسة الرسالة : ط٥ ، وانظر أيضًا : فتح الباري : ج١١ : ص ١٠ .

عذابه وابتغاء مغفرته ، ورجاء ثوابه .. قال ابن حجر : قال القرطبي في المفهم : ((ولا تصح التوبة الشرعية إلا بالإخلاص ، ومن ترك الذنب لغير الله لا يكون تائبًا اتفاقًا)) [1] ، فلا يقصد بتوبته ((مراءاة الناس والتقرُّب إليهم ، ولا يقصد بذلك دفع الأذية من السلطان وولي الأمر ؛ وإنما يقصد بذلك وجه الله والدار الآخرة ، وأن يعفو الله عن ذنوبه)) [2].

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : ((لابد من أن يعتقد أنه (أي الذنب) سيئة ، ويكره فعله لنهي الله عنه ويدعه لله تعالى ؛ لا لرغبة مخلوق ، ولا لرهبة مخلوق ؛ فإن التوبة من أعظم الحسنات ، والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره ، كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [3] . قال : أخلصه وأصوبه .. ثم قال : الخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة)) [4] .

((قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا** ﴾ [5] قيل : النصوح : الخالصة ؛ يقال : نصح أي أخلص له القول)) [6] .

٥ - ٦ : أن تكون في زمن التوبة :

وزمن التوبة الصحيحة المقبولة على نوعين :

النوع الأول : باعتبار كل إنسان بحسبه [7] ، وهو يمتد إلى أن يبلغ الإنسان أجله فيصل إلى حدِّ الغرغرة فإنه عندئذٍ لا تُقبل توبته ، قال تعالى : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾ [8] فهذا توبته ، وفي هذه الحالة غير مقبولة ؛ لأنها ليست في زمن التوبة المقبولة ، وقد قال ﷺ : ((**إن الله – عز وجل – يقبلُ توبةَ العبد ما لم يغرغر**)) [9] ، أي ((ما لم تصل الروح الحلقوم)) [10]

---

(1) الفتح : ج١١ ، ص١٠٣ .
(2) شرح رياض الصالحين في كلام سيد المرسلين ، لابن عثيمين : ج١ ، ص٧٤ ، وانظر أيضًا التوبة ، للحارثي المحاسبي : ص ٥٥ .
(3) سورة الملك [٢] .
(4) الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية : ج١٠ ، ص ٣١٨ .
(5) سورة التحريم [٨] .
(6) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ج١٨ : ص ١٩٧ .
(7) شرح رياض الصالحين ، لابن عثيمين : ج١ ، ص (٧٩ - ٨٠) .
(8) سورة النساء [١٨] .
(9) رواه الترمذي : ٣٥٣٧ ، وقال حديث حسن غريب ، وابن ماجة : ٤٢٥٣ ، وأحمد في المسند : ج٢ ، ص١٣٢ ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع ، برقم : ١٩٠٣ .
(10) شرح رياض الصالحين ، لابن عثيمين : ج١ ، ص٩٣ ، وانظر أيضًا الجامع لأحكام القرآن : ج٥ ، ص (٩٢ - ٩٣) .

. ومن الأمثلة على ذلك توبة فرعون عندما أدركه الغرق ؛ فهي توبة غير مقبولة وقد أحاط به الموت .

وأما النوع الثاني : للوقت الذي لا تقبل عنده التوبة فهو لجميع الخلق ؛ وهو عند طلوع الشمس من مغربها ، فعندئذ لا تقبل توبة أحدٍ من الخلق ، قال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى يبسط يدَه بالليل ليتوب مسيءُ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل ، حتى تَطْلُعَ الشمس من مغربها** » [1]. وقال ﷺ : « **من تاب قبل أن تطْلُعَ الشمس من مغربها تاب الله عليه** » [2] .

٦ - توبة الكذابين :

« توبة العبد من المعصية بلسانه مع بقاء حلاوتها في قلبه ، وتمني مقارفتها ما وجد السبيل إليها ، وحديث النفس الدائم بلذتها ، هذه التوبة تسمَّى توبة الكذابين ، وهي التي وصف أبو هريرة رضي الله عنه صاحبها بأنه كالمستهزئ بربه » [3] وتوبته غير مقبولة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وقول من قال من العلماء : الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين ، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة أو يدعي أن استغفاره توبة ، وأنه تائب بهذا الاستغفار ، فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائبًا ، فإن التوبة والإصرار ضدان : الإصرار يضاد التوبة ، لكن لا يضاد الاستغفار بدون توبة » [4] . قلت : يرى شيخ الإسلام أن الاستغفار نوع من الدعاء ، وأن الدعاء ربما ينفع صاحبه فيستجيب الله له ، وإن كان العبد مقيمًا على المعصية . أما التوبة فهي رجوع إلى طاعة الله ، وهذا لا يكون مع الإصرار أبدًا ؛ لأنهما ضدان .. والله تعالى أعلم .

ومن صور توبة الكذابين : توبة العاجزين الذين حال بينهم وبين اقتراف المعصية عائق منعهم من اقترافه ، فقالوا : تبنا إلى الله ، ولو ارتفع العائق لعادوا .. قال الشيخ بن عثيمين : « مثل : رجل كان - والعياذ بالله - يتسعين بالمال على معصية الله ، ويشتري به المسكرات ، ويذهب إلى البلدان من أجل الزني ، والسكر ، فأُصيب بفقر وقال : اللهم إني تبت إليك ، وهو كاذب ، هو في نيته أنه إذا عادت الأمور إلى مجاريها الأولى فعل فعله الأوَّل . فهذه توبة عاجز » [5] .

---

(1) رواه مسلم ، كتاب التوبة : باب غيرة الله تعالى ، برقم : ٢٧٦٠ .
(2) رواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار : ٢٧٠٣ ، وانظر للتوسع في شروط التوبة ، الإحياء : ج٤ ، ص ١٣ - ١٦ .
(3) انظر التوبة ، للحارث المحاسبي : ص (٥٥ - ٥٩) .
(4) الفتاوى : ج١٠ ، ص ٣١٩ .
(5) شرح رياض الصالحين ، لابن عثيمين : ج١ ، ٧٩ .

٧ - هل قُبلت توبتك ؟ وهل أنت صادق فيها ؟

هناك علامات يمكن أن تجيب بها عن هذين السؤالين ؛ إذ قد ذكر أهل العلم علامات ودلائل للتوبة المقبولة الصادقة يحسن بنا استعراضها لكي يتحلّى بها التائبون :

٧ - ١ : شكر الله - عزَّ وجلَّ - على التوفيق للتوبة :

فيحمد الله - عز وجل - على ما وفقه إليه من الهداية ، وتيسير أسبابها ، بما أظهر له من الآيات ، وساق إليه من التنبيهات ، وأطلعه عليه من التخويفات والتحذيرات ، وعرّفه وبصّره بغوائل الذنوب ، وعواقب مخالفة أوامر علاَّم الغيوب ، وقد قال أهل العلم إن من معاني صفة الله « التواب » : هو الذي ييسر أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى ويقبلها . قال ابن القيم - رحمه الله - في النونية :

وكذلك التواب من أوصافِهِ ... والتـوابُ في أوصافه نوعان

إذنٌ بتوبةِ عبدِهِ وقبولها ... بعد المتاب بمنّة المنَّانِ[1]

٧ - ٢ : المبادرة للعمل الصالح بعدها :

لقد قرن الحق - عزَّ وجلَّ - العمل الصالح بالتوبة في آيات كثيرة ؛ وهو ما يدل على أن مبادرة التائب بالطاعات واتباعه للسيئات بالحسنات من أبرز العلامات على صدق توبته ، وقبول الله لأوبته ؛ ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتابًا** ﴾ [3].

قال القرطبي - رحمه الله - في معنى هذه الآية : « وقيل : أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة ، بل من تاب وعمل صالحًا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متابًا ؛ أي تاب حق التوبة وهي النصوح ؛ ولذا أكدَّ بالمصدر فـ (متابًا) مصدر معناه التأكيد ؛ أي فإنه يتوب إلى الله حقًّا فيقبل الله توبته حقًّا » [4] ،

---

[1] النونية : لابن القيم : ج٢ ، ص٢٣١ ، وانظر للتوسع النهج الأسمى ، لمحمد النجدي : ج٢ ، ص١٨٤ .
[2] سورة الفرقان [٧٠] .
[3] سورة الفرقان [٧١] .
[4] الجامع لأحكام القرآن : ج١٣ ، ص ٧٩ .

بل إن سعيد بن جبير جعل فعل الطاعات والاستمرار على أداء الصالحات من شروط قبول التوبة [١] فقال وهو يبيّن معنى التوبة النصوح : ((هي التوبة المقبولة ؛ ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط : خوف ألا تقبل ، ورجاء أن تقبل ، وإدمان الطاعات)) [٢].

٧ - ٣ : محبة الله ورسوله والمؤمنين :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : ((وكذلك التائب من الذنوب من أقوى علامات صدقه في التوبة هذه الخصال ؛ محبة الله ورسوله ، ومحبة المؤمنين فيه)) [٣] .

٧ - ٤ : الخوف من الله :

فيخاف من سوء عاقبة ما وقع فيه ، وما بدر منه ؛ خوفًا يجعله ذليلاً خاشعًا بين يدي ربه ، كلما تذكر ذنبه انكسر قلبه ، وهملت عيناه بالدموع لتجدد عهدها مع ربها في الاستقامة والثبات على منهجه .

٧ - ٥ : السعي في الاستدراك :

إن من صدق التائب استدراكه لما فرّط فيه ، فتراه يجاهد نفسه في الإكثار مما قصّر فيه ، والإحسان فيما أخلَّ به ، ولعل هذا المَعْلَم من أبرز ما امتاز به السلف في توبتهم ، ومنهم عكرمة بن أبي جهل .. جاء تائبًا مسلمًا إلى رسول الله ﷺ فقال مستدركًا : ((كل نفقة أنفقتها لأصدَّ بها عن سبيل الله ، فوالله لئن طالت بي حياة لأضعفنّ ذلك كله)) ! [أي أنفقها في سبيل الله] وفي رواية : ((إلا أنفقت مثلها في سبيل الله)) [٤] .

٨ - حوار مع دمعة :

قال [تائب أحسَّ بكثرة ذنوبه ، فهملت عيناه بدموع الندم على التفريط والحسرة على التقصير] :

((بكيت يومًا من كثرة ذنوبي ، وقلة حسناتي ؛ فانحدرت دمعة من عيني

وقالت : ما بك يا عبد الله ؟

---

(١) انظر الفتاوى في قول شيخ الإسلام ابن تيمية ((هل يشترط مع التوبة إظهار الإصلاح في العمل؟ على قولين للعلماء))، الفتاوى : ج١١ و ص ٥٥١ ، وانظر أيضًا تفصيل القولين في الموسوعة الفقهية لوزارة الأوقاف الكويتية : ج١٤ ، ١٢٣ ، مدارج السالكين : ج١ ، ص٢٧٦ ، المغني ، لابن قدامة : ج٩ ، ص ٢٠٢ ، تفسير الألوسي : ج٢٨ : ص ١٥٩ .

(٢) الفتاوى : ج١٨ : ص ١٩٨ .

(٣) الفتاوى : ج١٠ ، ص٧٥١ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر ، لابن منظور : ج١٧ ، ص ١٣٢ وما بعدها ، وانظر أيضًا أُسد الغابة ، لابن الأثير : ج٤ ، ص ٤ - ٥ .

قلت : ومن أنت ؟

قالت : أنا دمعة .

قلت : وما الذي أخرجك ؟

قالت : حرارة قلبك .

قلت مستغربًا : حرارة قلبي ؟! .. وما الذي أشعل قلبي نارًا ؟

قالت : الذنوب والمعاصي .

قلت : وهل يؤثر الذنب في حرارة القلب ؟

قالت : نعم .. ألم تقرأ دعاء النبي ﷺ دائمًا : « **اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد** » ، فكلما أذنب العبد اشتعل القلب نارًا ، ولا يطفئ النار إلا الماء البارد والثلج .

قلت : صدقت .. فإني أشعر بالقلق والضيق وأظنّها من حرقة القلب بكثرة المعاصي .

قالت : نعم .. فإن للمعصية شؤم على صاحبها ، فتب إلى الله يا عبد الله .

قلت : أريد أن أسألك سؤالاً .

قالت : تفضل .

قلت : إنني أجد قسوة في قلبي ؛ فكيف خرجت منه ؟

قالت : إنه داعي الفطرة يا عبد الله .

وإن الناس اليوم تحجرت قلوبهم فلم تكد ترى قلبًا نقيًّا دائم الاتصال بالله إلا ما نذُر .

قلت : وما السبب يا دمعتي ؟

قالت : حب الدنيا والتعلق بها .

فالناس كلهم منكَبين عليها إلا من رحم ربي ، ومَثَلُ الدنيا كالحية تعجبك نعومتها وتقتلك بسُمّها ، والناس يتمتعون بنعومتها ولا ينظرون إلى السُّمِّ القاتل بها .

قلت : وماذا تقصدين بالسُّم ؟

قالت : الذنوب والمعاصي ، فإن الذنوب سموم القلوب ؛ فلابد من إخراجها ، وإلا مات القلب .

قلت : وكيف نطهر قلوبنا من السموم ؟

قالت : [بالتوبة المستمرة إلى الله تعالى] [1] .

٩ - بوا عث التوبة وأسباب استدامتها :

- لماذا ينقض بعضنا توبته من الذنب ويرجع إليه مرة أخرى ؟
- لماذا لا يطول زمن توبة بعضنا إلا قليلاً ؛ حتى يعاوده الحنين إلى ذنبه فينكص إليه؟
- لماذا استقام بعض التائبين على توبتهم وصلح حالهم ، في الوقت الذي تذبذب فيه آخرون ؛ فمرة يتوب وأُخرى يعود ؟

إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة ومثيلاتها التي ربما ترددت في قلوب الكثيرين منا تكمن في معرفة بواعث التوبة وأسباب استدامتها ؛ ولهذا سنذكر بعض هذه الأسباب :

٩ - ١ : معرفة حقيقة التوبة :

لابد حتى يستقيم العبد على توبته حقًّا ، وتقوى أركانها في قلبه صدقًا ، أن يعرف حقيقتها وتظهر عليه آثارها ، من ندم وحسرة على ما مضى ، وعزم وإرادة للاستدراك فيما بقي .. وكم من التائبين من لا يعرفون من التوبة إلا استغفارًا باللسان ينتهي أثره في قلوبهم بانتهاء استغفارهم !! فأين هؤلاء من تلك التائبة التي جاءت للنبي ﷺ قائلة له : طهّرني يا رسول الله ، فيرجئها رسول الله ﷺ حتى تضع حملها ثم ترضعه حتى تفطمه ، فظلت طوال هذه السنين نادمةً على فعلها ، قلقة من ذنبها ، تريد أن تضعه عن كاهلها ، وتطهّر من أدرانه قلبها ، ولو أدى ذلك إلى قتلها ؛ فلما بلغت الأجل الذي أجلها رسول الله ﷺ جاءت فجادت بنفسها توبة لخالقها [2] ، فأين صدق هذه التوبة من توبة بعضنا اليوم يفعل العظائم ثم يستغفر بلسانه وقلبه مقيم على حب ما استغفر منه !! ..

قال القرطبي : « قال سهل بن عبد الله : علامة التائب أن يشغله الذنب عن الطعام والشراب كالثلاثة الذين خُلِّفوا » [3] .

٩ - ٢ : استشعار عواقب الذنوب :

إن من أدرك ضرر الذنوب واستشعر سوءَ عاقبتها ، فرَّ إلى التوبة واشتاق إليها ، فإذا ما ظفر بها تشبث بها تشبث الغريق بمنقذه ؛ ولهذا جاء ذكر عواقب الذنوب في نصوص كثيرة في الكتاب والسنة .

---

(1) قطار المستغفرين ، لجاسم المطوع ، الغلاف الأخير ، وما بين المعكوفتين فيها تصرف .
(2) حديث الغامدية حديث صحيح .
(3) الجامع لأحكام القرآن : ج٤ ، ص٢١٢ .

وقد ذكر ابن القيم جملة من عقوبات المعاصي وآثار الذنوب ، وكان مما ذكره : حرمان العلم ، حرمان الرزق ، قال ﷺ : ((**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**)) (١) ، والوحشة يجدها العاصي في قلبه ، وبينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً ، والوحشة التي بينه وبين الناس . قال بعض السلف : ((إني لأعصي الله ، فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي)) (٢) ، وتفسير الأمور ؛ فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه ، وظلمة يجدها في قلبه حقيقة ، وحرمان الطاعة ، وقصر العمر ومحق بركته ، وهوان العاصي على ربه .. إلى آخر ما ذكره - رحمه الله - (٣) .

٩ - ٣ ، ٤ : هجران سيئ الخلان ، ومفارقة بيئة العصيان :

إن مفارقة الصحبة الطالحة السيئة من أكبر أسباب قوة التوبة واستدامتها ؛ ذلك لأنهم يحببون إليه الذنب ويدعونه إليه ، ويسهّلونه له ويشجعونه عليه ، مما يضعف العزيمة على الطاعة ، ويقوّي في قلبه داعي المعصية ، كما أن ابتعاد التائب عن مكان الفتن والشهوات والمعاصي والمنكرات مما يحصنه من الوقوع فيها ويبعده عنها ؛ ولهذا أشار العالم الفقيه على التائب الذي سُئل عنه : هل له من توبة ؟ وقد قتل مائة نفس ؛ فقال الفقيه العالم : ((نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلقْ إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أُناسًا يعبدون الله تعالى فاعبدِ الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرضُ سُوءٍ)) (٤) . ومع مفارقة الصحبة الطالحة لابد له أن يلتزم صحبة صالحة ، يذكرونه إذا نسي ، ويعينونه إذا ذكر ، ويقومونه إذا انحرف ، ويقودونه إلى الحق ويصبرونه عليه .

٩ - ٥ : قراءة القرآن وتدبره :

قال القرطبي - رحمه الله - : ((قال علماؤنا : الباعث على التوبة وحلُّ الإصرار إدامةُ الفكر في كتاب الله العزيز الغفار ، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعده به المطيعين ، وما وصفه من عذاب النار وتهدد به العاصين ، ودام على ذلك حتى قوِي خوفه ورجاؤه فدعا الله رغبًا ورهبًا)) (٥) .

---

(١) رواه ابن ماجة ٤٠٢٢ ، قال البوصيري في الزوائد : إسناده حسن ، ورواه أحمد في مسنده : ج٥ ، ص ٢٧٧ ، والحاكم في مستدركه : ج١ ، ص ٤٩٣ ، وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢) لعله قول الفضيل بن عياض في الحلية : ج٨ ، ص١٠٩ ، وهو : إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي .

(٣) انظر للتوسع الداء والدواء ، لابن القيم ، ت : يوسف علي بديوي : ص (١٠٣ - ٢٢١) ، وانظر للتوسع الإحياء : ج٤ ، ص٣ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، برقم : ٣٤٧٠ ، ورواه مسلم ، في كتاب التوبة ، برقم : ٢٧٦٦ ، [وسيأتي الحديث بطوله في المبحث : ١٢ – ٢] .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج٤ ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

٩ - ٦ : الدعــاء :

إن من أعظم أسباب التوفيق للتوبة والديمومة عليها سؤال الله إياها ، فإن التائب حقًّا من وفّقه لها وتقبلها منه ، وثَبّتَهُ عليها ؛ ولهذا لهج أنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم - بسؤال الله التوبة .. فهذا إبراهيم - عليه السلام - يقول : ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ (١) .

قال المراغي : « وتب علينا : أي وفّقنا للتوبة لنتوب ونرجع إليك من كل عمل يشغلنا عنك » (٢)، وهذا ﷺ يقول : « **يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإني أتوب في اليوم مائة مرة** » (٣).

٩ - ٧ : معرفة عظمة الخالق :

لأن من عرف قدرته - عزَّ وجلَّ - وشدة بطشه ، وعظيم قوته وعقابه ، خاف وسارع بالتوبة إلى ربه ؛ ولهذا قال بعض السلف : « لا تنظر إلى صغر المعصية ، ولكن انظر إلى مَنْ عصيت » .

٩ - ٨ : تذكر الموت وفجأة نزوله :

ومما يعين على انبعاث العبد للتوبة إلى خالقه تذكره للموت وسرعة أخذته وفجأة موعده .

١٠ - مراتب التوبـة :

« لما كانت التوبة رجوعًا إلى الله من مواقع البعد عنه بسبب المعاصي والذنوب ، أو المخالفات والتقصيرات ، أو الغفلات واشتغال النفس والفكر والقلب بغير مراقبة الله والتفكر فيه ، كانت ذات مستويات متفاوتات .

- فأدناها التوبة من الكفر والشرك ؛ وهي توبة ترفع إلى مستوى الإيمان .
- وفوقها التوبة من الكبائر ؛ وهي توبة ترفع إلى بعض درجات التقوى .
- وفوقها التوبة من الصغائر ؛ وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات التقوى .
- وفوقها التوبة من المكروهات وترك المندوبات ؛ وهي توبة ترفع إلى درجات البر .

---

(١) سورة البقرة [١٢٨] .
(٢) تفسير المراغي : ج١ ، ص ٢١٦ .
(٣) رواه مسلم ، وقد سبق تخريجه .

- وفوقها التوبة من التقصيرات عن درجات الكمال الإنساني في السلوك ؛ وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات الإحسان .
- وفوقها التوبة من الغفلات عن الله والاشتغال بغير مراقبته والتفكر فيه ؛ وهي توبة ترفع إلى مرتبة المقربين .

ولهذه المستويات درجات يرتقي فيها التائبون بحسب ما يكون منهم من توبة إلى الله ، وتوبة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - من مستوى التوبة العليا ، واستغفارهم هو من شعورهم بتقصيرهم عن بلوغ أعلى الدرجات ، فكلما وجدوا من أنفسهم تقصيرًا ينزل بهم عن المرتقى الرفيع الذي ينشدونه تابوا إلى الله واستغفروا وأنابوا)) [1] ، ((ولهذا كان رسول الله ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه في كل يوم أكثر من سبعين مرة)) [2] .

١١ - مسائل في التوبة :

هذه بعض المسائل التي يكثر السؤال عنها عند الحديث عن التوبة أو مما ينبغي أن يعرفه المسلم لينتفع بها في حياته .

١١ - ١ : إذا تاب المذنب من ذنبه ثم عاد ، فما حكم توبته الأولى ؟

((لا يشترط في التوبة عدم العود إلى الذنب الذي تاب منه عند أكثر الفقهاء ؛ وإنما تتوقف التوبة على الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم الجازم على ترك معاودته ، فإن عاوده مع عزمه حال توبته على ألا يعاوده صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة ولا يعود إليه إثم الذنب الذي ارتفع بالتوبة ، وصار كأن لم يكن ، وذلك بنص الحديث ((**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**)) [3][4] .

١١ - ٢ : هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على ذنب غيره ؟

قال الإمام ابن القيم : ((والذي عندي في المسألة أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه . وأما التوبة من ذنب ، مع مباشرة آخر لا تعلق له به ، ولا هو من نوعه فتصح . كما إذا تاب من الربا ، ولم يتب من شرب الخمر مثلاً

---

(1) الأخلاق الإسلامية وأسسها ، لعبد الرحمن الميداني : ج١ ، ص ٦٩٠ ، وانظر أيضًا للتوسع الفتاوى : ج١١ : ص (٦٨٧ - ٦٨٨) ، شرح رياض الصالحين ، لابن عثيمين : ج١ ، ص ٧٤ .

(2) الحديث رواه البخاري بلفظ ((**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**)) في كتاب الدعوات ، باب استغفار النبي - في اليوم والليلة : ج١١ ، ص٨٥ (الفتح) .

(3) رواه ابن ماجة : ج٢ ، ص ١٤١٨ ، قال السخاوي : ((حسّنهُ شيخنا - يعني ابن حجر - لشواهده)) ، المقاصد الحسنة : ص ٢٤٩ ، والحديث في صحيح الجامع للألباني ، برقم : ٣٠٠٨ .

(4) الموسوعة الفقهية ، لوزارة الأوقاف الكويتية : ج١٤ : ص ١٢٣ ، وانظر أيضًا مدارج السالكين ، لابن القيم : ج١ ، ص ٣٠٩ .

فإن توبته من الربا صحيحه ، وأما إذا تاب من تناول الحشيشة وأصرَّ على الخمر أو العكس ؛ فهذا لا تصح توبته ، وهو كمن يتوب عن الزنى بامرأة ، وهو مصرٌّ على الزنى بغيرها غير تائب منها ؛ فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب » [1] .

١١ - ٣ : هل يشترط في التوبة من الغيبة إخبار من اغتبته ؟

« مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي اشترطوا الإعلام . ذكره أصحابهم في كتبهم . واحتجوا بحديث النبي ﷺ : « **من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات** » [2] .

فهذا الذنب يتضمن حقين : حقًّا لله ، وحقًّا لآدمي ؛ فالتوبة منه بتحلل الآدمي لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه . قالوا : ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولي الدم من نفسه ؛ إن شاء اقتص ، وإن شاء عفا . وكذلك توبة قاطع الطريق ،

« ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أنه لا يشترط الإعلام ، بل يكفي توبته بينه وبين الله ، وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة . فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عفته ، ويستغفر له بقدر ما اغتابه . واحتج لذلك بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة ، وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه ، فضلاً عن أن يوجبه أو يأمر به » [3] .

١١ - ٤ : كيف يتوب من بيده مال حرام من سرقة أو ربا ؟

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : « قال علماؤنا : إن سبيل التوبة مما بيده من الأموال الحرام إن كانت من ربا فيردّها على من أرْبَى عليه ، ويطلبه إن لم يكن حاضرًا ، فإن أيس من وجوده فليتصدّق بذلك عنه ، وإن أخذه بظلم فليفعل كذلك في أمر من ظلمه ، فإن التبس عليه الأمر ولم يدرِ كَمْ الحرام من الحلال مما بيده ، فإنه يتحرى قدر ما بيده مما يجب عليه ردّه ، حتى لا يشك أن ما يبقى قد خلص له فيردّه من ذلك الذي أزال عن يده إلى من عُرف ممن ظلمه أو أربى عليه ، فإن أيس من وجوده تصدّق به عنه ، فإن أحاطت المظالم بذمته وعلم أنه وجب عليه من ذلك ما لا يطيق أداءه أبدًا لكثرته فتوبته أن يُزيل ما بيده أجمع ؛ إما إلى المساكين ، وإما إلى ما فيه صلاح المسلمين ؛ حتى لا يبقى في يده إلا أقل ما يجزئه في الصلاة من اللباس ؛

---

(1) مدارج السالكين ، لابن القيم .
(2) سبق تخريجه .
(3) التوبة النصوح ، مجدي فتحي السيد : ص ٥٦ ، قلت : قد استعرض القرطبي - رحمه الله تعالى - أقوال أهل العلم في توبة المغتاب ، وهل يلزمه التحلل ممن اغتابه؟ ، وذهب إلى قول الجمهور ، وانظر للتوسع والوقوف على أدلة كل فريق : الجامع لأحكام القرآن : ج١٦ : ص (٣٣٧ - ٣٣٩) .

وهو ما يستر العورة ، وهو من سُرته إلى ركبتيه ، وقوتُ يومه ؛ لأنه الذي يجب له أن يأخذه من مال غيره إذا اضطر إليه ؛ وإن كره ذلك من يأخذه منه ، وفارق هاهنا المفلس في قول أكثر العلماء ؛ لأن المفلس لم يصر إليه أموال الناس باعتداء ، بل هم الذين صيروها إليه ، فُيتْرك له ما يُواريه وما هو هيئة لباسه . وأبو عبيد وغيره يرى ألا يترك للمفلس من اللباس إلا أقل ما يجزئه في الصلاة ؛ وهو ما يواريه من سُرته إلى ركبته ، ثم كلما وقع بيد هذا شيء أخرجه عن يده ولم يمسك منه إلا ما ذكرنا ، حتى يعلم هو ومن يعلم حاله أنه أدّى ما عليه » [1] .

١٢ - مع التائبيـن :

١٢ - ١ : التوبة من التخلف عن ركب الدعـوة :

المتخلفون عن قافلة الدعوة كثير ؛ ولكن القليل منهم من يستشعر ذنب تخلفه ، والقليل من هؤلاء من يتوب من معصية قعوده وتكاسله ؛ ومن هذا القليل الذي استدرك فقبل الله توبته كعب بن مالك ، الذي تخلّف عن ركب رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وكان ﷺ يحدث بتوبته تنبيهًا للقاعدين وتحذيرًا للمتثاقلين ، وتذكرة للدعاة العاملين فإن الذكرى تنفع المؤمنين فيقول : « وغَزَا رسولُ الله ﷺ تِلْك الغزوة حين طابت الثِّمار والظِّلالُ ، فأنا إليها أَصْغَرُ [أي أميل] ، فَتَجهَّز رسولُ الله ﷺ والمسلمونَ مَعَهُ ، وطفقْتُ أغدوا لكي أَتَجَهَّز مَعَهُ فأرجع ، ولم أُقْضِ شيئًا ، وأقول في نفسي : أنا قادرٌ على ذلك إذا أردْتُ ، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى استمرَّ بالنّاسِ الجدُّ ، فأصبَحَ رسولُ الله ﷺ غاديًا والمسلمون معهُ ، ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، ثم غدوتُ فرجعت ولم أَقْضِ شيئًا ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارطَ الغزو ؛ فهممت أن أرتحِلَ فأُدْرِكَهم ، فياليتني فعلت ! ثم لم يُقدَّرْ ذلك لي ، فَطَفِقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يَحزُنُني أني لا أرى لي أُسْوَةً ، إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق ، أو رجلاً ممنْ عذَرَ الله تعالى من الضُّعفاء .. » [2] إلى آخر قصة توبته [انظرها كاملة في كتاب رياض الصالحين ، باب ٢ : التوبة] .

وإليك بعض الدروس المستفادة من الحديث ، مع أنه ينبغي أن يُفردَ بدرسٍ مستقلٍ للوقوف على فوائده الجمّة :

- صراحة المسلم وصدقه ، واعترافه بتقصيره وعدم تلفيقه الأعذار .
- خطته ﷺ الحكيمة على الصعيد العسكري ، كمحافظته على سِرِّية الخطط

---

[1] الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج٣ ، ص (٣٣٦ - ٣٦٧) .
[2] رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك ، حديث رقم : ٤٤١٨ .

وحسن تقديره للموقف ، وعدم تغريره بجنده ، ووضعهم في الصورة الواقعية حتى يكونوا على مستوى المهمة الملقاة على عاتقهم .

- اندفاع المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله - عزَّ وجلَّ - عن رضا وطواعية رغم ما كانوا عليه من شدة ومخمصة .
- عدم التردد في التطوع ، والمبادرة بأخذ الأهبة والاستعداد .
- تألم المسلم من تقصيره في أداء الواجب ، وحرصه ألا يكون من المتخلفين أو المنافقين .
- صراحة الصحابة ﷺ وصدقهم مع النبي ﷺ ، وقولهم الحق ولو كان على أنفسهم .
- يعامل الإنسان على ظاهره ويترك أمر باطنه إلى الله تعالى .
- لا يعفي المنافق من المسؤولية انتحالُه الأعذار وتزيينه الباطل .
- الاقتداء بأهل الصلاح والتقوى والتشبه بهم في السلوك والأخلاق .
- عدم الاكتراث بأهل النفاق والفسوق ، وتركهم للأيام تفضحهم وتذلهم .
- وجوب مقاطعة من ظهرت منه المعصية بعدم مخالطته والسلام عليه والرد على سلامه ، وغير ذلك من دواعي المقاطعة ؛ وهو ما يشعره بالهوان حتى يقلع عن الذنب ويظهر التوبة .
- ندم المؤمن وتألمه على ما فرط من فعل المعصية ، والبكاء جزاء ما اقترفت يداه .
- تشديد الإسلام في هجر العصاة ولو بعزلهم عن المجتمع ليكون أبلغ في التأديب .
- استحباب التعرض لمواضع الرحمة واستمطار المغفرة واستجلاب التوبة .
- تلطف المسيء بالتعرض لمن أساء إليه والتودد إليه بالاعتذار .
- حسن خلقه ﷺ ورأفته في صحبه ، وإشفاقه عليهم وسروره بسرورهم ، وفرحه بخيرهم .
- المؤمن يُبتلى في دينه ودنياه ، ومن أراد الله به خيرًا صدق مع الله تعالى وثبت على ما عاهد عليه الله .
- المؤمن يؤثر طاعة الله تعالى وطاعة رسوله على ما سواهما .
- من بدرت منه معصية يظن فيها نفاقه أو كفره فلا يجوز لزوجته أن تمكنه من نفسها.
- يستحب التبشير بالخير ، ومكافأة المبشر ، وتقديم التهنئة في مناسبات الفرح والسرور .

- كراهية التصدق بجميع المال ؛ كي لا يؤدي ذلك إلى الافتقار وسؤال الناس .
- أثر الصدق في نجاة الإنسان في الدنيا والآخرة .
- شكر الله تعالى على تفضله وقبول التوبة ، وعفوه عن المذنبين التائبين .
- التزام الوفاء بالعهود والطاعة بعد المعصية .
- فرح المؤمن بالتوبة والتوفيق للحق والصدق .
- وللحديث فوائد جمة وإرشادات كثيرة ، اقتصرنا على أهمها مما يخص باب التوبة (١) .

ومما ذكره ابن حجر - رحمه الله تعالى - في فوائد الحديث :

- عظم أمر المعصية ، وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال : « يا سبحان الله !! ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حرامًا ، ولا سفكوا دمًا حرامًا ، ولا أفسدوا في الأرض ؛ أصابهم ما سمعتم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ؛ فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر ؟
- وفيها أن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ به الضعيف في الدين .
- وجواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه ، وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره تحذيرًا ونصحه لغيره (٢) .

١٢ - ٢ : هَجَر أصحاب السوء وفَارَقَهم :

وعن أبي سعيد بن مالك بن سنان الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «**كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفسًا ، فسأل عن أعلمِ أهل الأرض ؛ فدُلَّ على راهبٍ ، فأتاهُ فقال : إنّه قتل تسعةً وتسعينَ نفسًا ؛ فهل لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فقال : لا ، فقتلهُ فكملَ به مائة ، ثم سأل عن أعلمِ أهلِ الأرضِ ، فَدُلَّ على رجل عالم فقال : إنه قتلَ مائة نفس ؛ فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلقْ إلى أرض كذا وكذا**

---

(١) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ، للدكتور الخن وآخرين : ج١ ، ص (٤٤ - ٤٥) ، وانظر أيضًا للتوسع ما ذكره ابن حجر - رحمه الله تعالى - في « الفتح » من فوائد للحديث : ج٨ ، ص (١١٣ - ١٢٥) .

(٢) فتح الباري ، لابن حجر : ج٨ ، ص ١٢٣ ، وسيأتي شرح هذه الفوائد التربوية والدروس الدعوية مفصلاً في كتاب القائد - إن شاء الله - .

فإنَّ بها أُناسًا يعبدون الله تعالى فأعبدِ الله معهُمْ ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرضُ سوءٍ ؛ فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاهُ الموتُ فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ! وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط : فأتاهُمْ مَلَكٌ في صورة آدمي فجعلوه بينهم – أي حكمًا – فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ؛ فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أرادَ فقبضته ملائكة الرحمة » (متفق عليه) . وفي رواية الصحيح « **فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها** » وفي رواية في الصحيح : « **فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي** » ، وقال : « **قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له** » ، وفي رواية : « **فنأى بِصَدْرِه نحوها** » [1].

وفي الحديث دروس وفوائد منها :

- حسن أسلوب النبي ﷺ في التوجيه والموعظة بضرب الأمثلة الواقعية ، وكذلك جواز التحدث عن الأمم السابقة مما لم يأت الإسلام بما يخالفه .
- النفوس التي فيها استعداد للخير والحق ترجع إلى الاستقامة وإن انحرفت بها الأهواء حينًا عن طريق الهدى .
- فضل العلم مع قلة العبادة على كثرة العبادة مع الجهل ؛ لأن العابد الجاهل ربما أساء من حيث أراد أن يحسن صنعًا فهلك وأهلك ، والعالم يهتدي بنور العلم فيوفق للحق فينتفع وينفع .
- باب التوبة مفتوح ، والتائب مقبول مهما عظم منه الذنب وكثرت الخطايا .
- على الداعي إلى الخير ، ومن ينتصب لمعالجة النفوس ، أن يكون ذا حكمة بالغة بحيث يفطن لما يصلح النفوس ، ويسلك بها سبيل الأمل وفتح باب الرجاء .
- قبول توبة القاتل عمدًا ؛ وعليه إجماع العلماء ؛ لأن الظاهر من الحديث أن قتله للنفوس كان عمدًا وعدوانًا ، ولم يمنع ذلك من قبول توبته ، وهذا وإن كان في شرع من قبلنا لكنه جاء في شرعنا ما يؤيده كقوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ**

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث رقم : ٣٤٧٠ ، ورواه مسلم ، كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل : ٢٧٦٦ .

حَسَنَاتٍ﴾ (١) بعد قولـه تعـالى : ﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (٢) ، وهذا بالنسبة لقبول التوبة ، أما بالنسبة لإقامة الحد عليه فإنه إذا رُفع أمره إلى القضاء فلا تحول توبته دون القصاص وإقامة الحد عليه .

- مجانبـة أهـل المعاصـي ومقـاطعتهم مـا دامـوا علـى حـالهم ، ومصـاحبة أهـل التقوى والعلم والصلاح .
- حـب الله تعـالى لتوبـة عبـاده وإخبـاره الملائكـة بـذلك مباهـاة بهـم ، وأخـذه بيـد عباده التائبين إلى النجاة .
- بذل الجهد وتحمل المشقة من أجل اللحـاق بالصـالحين ، وفعـل عمـل المقـربين دليل صدق الرغبة في التوبة إلى الله - عزَّ وجلَّ -)) (٣) .

خامسًا : التطبيقات العملية لتأكيد معاني الدرس وتحقيق أهدافه :

١- المحاسبة اليومية للنفس (قبل النوم مثلاً) مع التوبة من التقصير والتفريط .

٢- الإكثـار مـن الاسـتغفار والتوبـة فـي كـل مجلـس ، ولـيكن مـن الـورد اليـومي : الاستغفارُ مائة مرةٍ .

٣- حفظ حديث كفـارة المجلس ، وسيد الاستغفار ، مـع تعاهد الـدعاء بـه بخشـوع وحضور قلب .

٤- هجر أصحاب السوء إلا إذا كانت هناك مصلحة شرعية تقتضي الجلوس معهم أحيانًا لدعوتهم ، أو الإنكار عليهم ، على أن يكون الداعي فقيهًا حكيمًا قد ثبتت على طريق الدعوة قدمه .

٥- اتباع التوبة بالصدقة ، وهي سنّة سلفية فعلها الكثير من السلف ، منهم كعب بن مالك ، وأبو لبابة ﵁ (٤) .

٦- أداء صلاة التوبة ، لحديث علي ﵁ قال : حدثني أبو بكر وصدق أبـو بكـر قـال : سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول : ((**ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله تعالى إلا غُفِرَ له**)) ، ثم قرأ : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا**

(١) سورة الفرقان [٧٠] .
(٢) سورة الفرقان [٦٨] .
(٣) نزهة المتقين ، شرح رياض الصالحين ، للخن وآخرين : ج١ ، ص (٣٥ - ٣٦) .
(٤) راجع قصة توبته في جامع البيان للطبري : ج٩ ، ص ١٤٦، وكتاب التوابين للمقدسي : ص (١٠٢ - ١٠٣) .

اللهَ ﴾ إلى آخرها (١)(٢)(٣) .

سادسًا : المراجــع :

١- لسان العرب ، لابن منظور.
٢- معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس .
٣- التعريفات ، للجرجاني .
٤- تهذيب مدارج السالكين ، لابن القيم .
٥- مكفرات الذنوب وموجبات الجنة ، لابن الديبع الشيباني ، دار الإصلاح .
٦- صحيح الجامع الصغير ، للألباني .
٧- مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني .
٨- فتح الباري ، لابن حجر .
٩- مختصر تفسير الطبري ، للصابوني .
١٠- التوبة ، للبيانوني .
١١- الموسوعة الفقهية ، وزارة الأوقاف الكويتية ، ط٢ .
١٢- صحيح الإمام البخاري .
١٣- صحيح الإمام مسلم .
١٤- الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية .
١٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فؤاد عبد الباقي .
١٦- رسالة التوبة ، لشيخ الإسلام ابن تيمية .
١٧- الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي .
١٨- الزهد ، للإمام أحمد .
١٩- التفسير المنير ، للزحيلي .
٢٠- مجمع الزوائد ، للهيثمي .
٢١- الترغيب والترهيب ، للمنذري .
٢٢- صحيح الترغيب والترهيب ، للألباني ، المكتب الإسلامي .
٢٣- المرقاة شرح المشكاة ، للقاري .

---

(١) سورة آل عمران [١٣٥] .
(٢) رواه الترمذي وقال : ((حديث حسن غريب)) ، وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان ، وقد صححّه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، برقم : ٦٨٠ .
(٣) انظر المغني والشرح الكبير ، لابن قدامة : ج١ ، ص ٧٦٩ .

٢٤- المقاصد الحسنة ، للسخاوي .
٢٥- مسند الإمام أحمد .
٢٦- أسد الغابة ، لابن الأثير .
٢٧- مختصر تاريخ ابن عساكر ، لابن منظور .
٢٨- قطار المستغفرين ، لجاسم المطوع ، دار الدعوة .
٢٩- شرح رياض الصالحين ، لابن عثيمين .
٣٠- شرح النونية .
٣١- النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ، لمحمد الحمود النجدي . مكتبة الإمـــــام الذهبي ، ط٢ .
٣٢- نزهة المتقين ، شرح رياض الصالحين ، للخن وآخرين .
٣٣- كتاب التوابين ، للإمام موفق الدين أبي محمد عبد الله بن قدامة ، ت : عبد القادر الأرناؤوط ، دار الكتب العلمية .
٣٤- أريد أن أتوب ولكن ، لمحمد المنجد ، دار الوطن للنشر ، ط١ .
٣٥- حلية الأولياء ، لأبي نعيم .
٣٦- الداء والدواء ، لابن القيم ، مكتبة دار التراث ، تحقيق : يوسف علي بديوي ، ط٣ .
٣٧- المغني والشرح الكبير ، للإمامين موفق الدين ابن قدامة ، وشمس الدين ابن قدامه ، دار الكتاب العربي .
٣٨- الأخلاق الإسلامية وأسسها ، لعبد الرحمن الحبنكة ، دار القلم ، ط٤ .
٣٩- التوبة النصوح ، مجدي فتحي السيد ، مكتبة الصحابة ، ط١ .
٤٠- التوبة ، للحارث المحاسبي ، دار الإصلاح .
٤١- التائبون إلى الله ، إبراهيم الحازمي ، دار الشريف ، ط٢ .
٤٢- العائدون إلى الله ، محمد بن عبد العزيز ، ط١ .
٤٣- معاتبة النفس ، الحارث المحاسبي ، ت : محمد عبد القادر عطا ، دار الاعتصام .
٤٤- الإحياء ، للغزالي .
٤٥- الإكليل في استنباط التنزيل ، السيوطي ، دار الباز .

توكل

التوكـل

أولاً : دلالة المصطلـح :

أ - لغة :

قال ابن منظور -رحمه الله - : ((التوكل : إظهارُ العَجْزِ والاعتمادُ على غيرك ، والاسمُ التُّكْلاَنُ . واتّكلْتُ على فلانٍ في أمري إذا اعتمدتُهُ ..

ووكلت أمري إلى فلانٍ ، أي ألجأتُهُ إليه واعتمدت فيه عليه ، ووكّل فلانٌ فلانًا إذا استكفاه أمرَهُ ثِقَةً بكفايته أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه)) (١) .

ب - اصطلاحًا :

قد ذكر أرباب السلوك عدة تعريفات للتوكل ، ومنها :

- قال ابن رجب - يرحمه الله - : ((وحقيقة التوكل : هو صدقُ اعتماد القلب على الله - عزَّ وجلَّ - في استجلاب المصالح ، ودفع المضارّ من أمور الدنيا والآخرة كلّها ، وكِلَةُ الأمور كلِّها إليه ، وتحقيق الإيمان بأنه لا يُعطي ولا يمنعُ ولا يضرُّ ولا ينفع سواه)) (٢) .
- وقال الغزالي - يرحمه الله - : ((فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده))(٣).
- وقال القرطبي - يرحمه الله - : ((هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماضٍ ، واتباع لسنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد له منه من الأسباب .. قال : وهذا قول عامة الفقهاء .

وإليه ذهب محققو الصوفية ؛ لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب ، فإنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًا ، بل السبب المسبَّب فعل الله تعالى ، والكل منه وبمشيئته ، ومتى وقع من المتوكِّل ركونٌ إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم)) (٤) . ((قلت : وإلى هذا أشار الحافظ أبو حاتم البستي حين

---

(١) لسان العرب : ج٦ ، ص ٤٩٠٩ ، وانظر أيضًا معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس : ج٦ ، ص ١٣٦ ، مختار الصحاح : ص ٧٣٤ .

(٢) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب : ج٢ ، ص ٤٩٧ ، بتحقيق الأرناؤوط .

(٣) الإحياء : ج٤ ، ص ٢٥٩ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج٤ ، ص ١٨٩ ، وانظر أيضًا شرح صحيح مسلم ، للنووي : ج٣ ، ص ٩١ .

قال : التوكل هو قطع القلب عن العلائق برفض الخلائق ، وإضافته بالافتقار إلى مموّل الأحوال ›› (1) .

ومن خلال هذه التعريفات يتبيّن أن التوكل من أعمال القلوب : كالإيمان والرضا والخوف والرجاء والحب والبغض ؛ ولهذا قال الإمام أحمد : ‹‹التوكل عملُ القلب›› (2) .

وقد ذكر القشيري عدة تعريفات للتوكل نقلها ابن القيم في مدارجه(3) ، ثم علق عليها وانتقد بعضها لتعارضها مع هدي نبينا ﷺ وروح الإسلام ومبادئه .

التوكل على غير الله :

قال الشيخ سليمان - رحمه الله - : ‹‹ التوكل على غير الله قسمان :

أحدهما : التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة ؛ فهذا شرك أكبر ، فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى .

الثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة العادية ، كمن يتوكل على أمير أو سلطان ، فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك ؛ فهذا نوع شرك خفي ، والوكالة الجائزة هي توكل الإنسان في فعل مقدور عليه ؛ ولكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وكّله ، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكّله فيه ، كما قرره شيخ الإسلام ›› (4) .

ج - الألفاظ المقاربة للمصطلح :

التفويض : قال ابن القيم : ‹‹ وهو روح التوكل ولُبُّه وحقيقته ، وهو إلقاءُ أموره كلِّها إلى الله ، وإنزالها به طلبًا واختيارًا ، لا كرهًا واضطرارًا ، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كلَّ أموره إلى أبيه ، العالم بشفقته عليه ورحمته ، وتمام كفايته ، وحسن ولايته له ، وتبريره له ؛ فهو يرى أن تدبير أبيه له خيرٌ من

---

(1) روضة العقلاء : ص ٢٦٦ .
(2) المدارج ، لابن القيم : ج٢ ، ص ١٣٠ ، وانظر أيضًا الرسالة القشيرية : ص ١٦٣ ، نهاية المحتاج : ج٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ط . مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، الموسوعة الفقهية : ج١٤ : ص ١٨٥ ، ط٢ ، حجة الله البالغة : ج٢ ، ص ٩٣ .
(3) المدارج : ج٢ ، ص (١٣٠ - ١٣٣) ، الرسالة القشيرية : ص (١٦٣ - ١٧٣) ، فلتراجع هناك لمن شاء التوسع .
(4) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد : الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : ص (٤٩٧ - ٤٩٨) ، وانظر للتوسع : التوكل للقريني : ص (١٠٦ - ١١٤) .

تدبيره لنفسه)) [١] .

وهل التفويض أرفع مكانةً وأجَلّ منزلة من التوكل أم التوكل أرفع منه وأوسع . إلى الأول ذهب الهروي في منازله ، وإلى الثاني ذهب ابن القيم في مدارجه [٢] .

قال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ ﴾ [٣] .

- **الاستسلام** [٤] .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من إلقاء هذا الدرس إلى :

١- ربط قلب الداعية المسلم بربه ، وطمأنينته إليه وثقته به وزيادة إيمانه بتمام كفايته ، وحسن ولايته ، وحكمة تدبيره وتقديره ﴿ **أليس الله بكافٍ عبده** ﴾ بلى ، والذي نفسي بيده .

٢- تنبيه الداعية إلى إخلاص توحيده ، وتجرده لله وحده ؛ وذلك بعدم التفات قلبه إلى الأسباب المادية وتعلقه بها والركون إليها ، وأنها لا تغني عنه شيئًا إلا بمشيئة الله وإرادته . قال الله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا** ﴾ [٥] .

٣- بيان التوكل الحق الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﷺ ، في الجمع بين تعلق القلب بالله وتلبس جوارحهم بالأسباب التي أمرهم الله بالأخذ بها للوصول إلى مسبَّباتها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ [٦]، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى** ﴾ [٧]، ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ [٨].

٤- ردُّ الشُّبَه الكثيرة التي علقت بالتوكل مما ابتدعه بعض المتصوِّفة ، والتي تدعو المسلم إلى الدعة والتكاسل والسكون والقعود عن الإعداد والأخذ بالأسباب ،

---

(١) المرجع السابق : ج٢ ، ص ١٣٨ .
(٢) المدارج : ج٢ ، ص ١٥٦ .
(٣) سورة غافر [٤٤] .
(٤) المرجع السابق : ج٢ ، ص ١٣٨ .
(٥) سورة التوبة [٢٥] .
(٦) سورة الأنفال [٦٠] .
(٧) سورة الأنفال [١٧] .
(٨) سورة الأنفال [١٠] .

وبيان الفرق بين التوكل والتواكل .

٥ - إدراك الداعية لأهمية التوكل في الدعوة إلى الله تعالى ، وضرورته في تثبيته على دعوته وصبره على مشاقها وعقباتها ، وعدم الخوف على الرزق والأجل ؛ لأنه لا سبيل للمخلوقين عليها . قال الله تعالى عن المتوكلين : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾(١).

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- لماذا نتحدث عن التوكل ؟

٢- ولكن ما حقيقة التوكل الذي نريد ؟

٣- فضل التوكل وجزاء المتوكلين .

٤- مجالات التوكل .

٥- التوكل لا التواكل .

٦- متى تُذم الأسباب ؟

٧- أصناف الناس بالنسبة للأسباب .

٨- من ثمار التوكل على الله .

٩- بواعث التوكل .

١٠-نواقض التوكل وموهناته .

١١-**مسائل في التوكل** :

١١ – ١ : هل التداوي يخلٌّ بالتوكل ؟

١١ - ٢ : هل البعد عن المريض خوفًا من العدوى مخلٌّ بالتوكل ؟

رابعًا : العرض :

١ - لماذا نتحدث عن التوكل ؟

للحديث عن التوكل على الله أهمية كبيرة ، لاسيما في مثل عصرنا هذا ؛ نظرًا لأسباب كثيرة منها :

---

(١) سورة آل عمران [١٧٣ - ١٧٤] .

١ - ١ : إن التوكل من أجلِّ صفات المؤمنين ، وأرفع درجات السالكين ، وأعلى مقامات الموحدين ، وأوثق خِلال الربانيين الصادقين ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (١) . قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : « أي لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولايطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب » (٢) .

وفي مقدمة هؤلاء المؤمنين حقًّا ، والمتوكلين صدقًا ، الأنبياء والرسل الذين قالوا جميعًا : ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا** ﴾ (٣) ؛ ولهذا يجب أن يكون التوكل من أجلى صفات حملة لواء الإسلام والداعين إليه .

١ - ٢ : إن التوكل دليل على إيمان صاحبه ، بل هو شرط من شروط صحته ، فلا إيمان لمن لا توكل له . قال الله تعالى : ﴿ **وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾(٤)، فشرط في إيمان مَنْ آمن أن يكون من المتوكلين ، والمعلّق على الشرط يعدُم عندَ عَدَمِه . قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل ؛ فمن لا توكل له لا إيمان له (٥) ، وقال موسى - عليه السلام - لقومة ما أخبرنا به الله في كتابه : ﴿ **وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ (٦). قال سعيد بن جبير : « التوكل على الله جماع الإيمان » (٧) .

١ - ٣ : إن التوكل نصف الدين ، كما قال ابن القيم : « فإن الدين استعانة وعبادة . فالتوكل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة » (٨) قال شيخ الإسلام : « فقوله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾(٩) إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته : من المحبة ، والخوف

---

(١) سورة الأنفال [٢] .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، للصابوني : ج٢ ، ص ٨٥ .
(٣) سورة الرعد [١٢] .
(٤) سورة المائدة [٢٣] .
(٥) مختصر تفسير ابن كثير : ج٢ ، ص٨٥ ، وللتوسع راجع في ظلال القرآن : ج٣ ، ص ١٤٧٦ .
(٦) سورة يونس [٨٤ - ٨٥] .
(٧) المدارج : ج٢ ، ص ١٤٦ ، وانظر للتوسع : الفتاوى لشيخ الإسلام : ج٧ : ص (١٦ - ١٧) .
(٨) المدارج : ج٢ ، ص ١٢٩ .
(٩) سورة الفاتحة [٥] .

، والرجاء ، والأمر ، والنهي . ﴿ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [1] إشارة إلى ما اقتضته الربوبية : من التوكل والتفويض والتسليم)) [2].

١ - ٤ : حاجة المسلم إلى التذكير بالتوكل لعلاج همّ الرزق الذي شغل قلوب كثير من الناس وأرّق ليلهم وأحزنهم وأجبنهم وأذلهم ، فيتذكّر أنَّ الله كافل رزقه وأمره كلِّه فيركن إليه ، ويعتمد عليه ، ويثق به وحده لا شريك له ، ويعلم يقينًا أن الأمة لو اجتمعت على أن يضرّوه بشيء لم يضرّوه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه اللهُ له ، فالأمر كلُّه بيد الله - عزَّ وجلَّ - لا إله إلا هو .

١ - ٥ : حاجة الداعية لصفة التوكل على الله في مواجهة عقابيل الطريق ، والمحن والتضييق ، لاسيما مع قلة الناصر والصديق ؛ ولهذا أمر الله به رسوله في عدة آيات في كتابه الكريم ، ووصاه به فقال : ﴿ وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [3] ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ ﴾ [4] ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [5] .

فصاحب الدعوة ومريدُ الإصلاح يجد في التوكل ركنًا مكينًا وحصنًا منيعًا يلوذ به في مواجهة طواغيت الكفر وشياطين الإنس والجن ؛ فهو ينتصر بالله ، ويستعز بالله ، ومن انتصر بالله فلن يُغلَب أبدًا ، ومن استغنى بالله فلن يفتقر أبدًا : ﴿ إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[6]، ولقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾[7] حتى يستعين بالتوكل على الله في حمل القول الثقيل ، الذي ألقاه الله عليه ، ومواجهة المكذبين أولي النعمة ، والصبر على ما يقولون ، وهجرهم الهجر الجميل [8].

---

(١) سورة الفاتحة [٥] .
(٢) الفتاوى : ج١ ، ص ٨٩ .
(٣) سورة الفرقان [٥٨] .
(٤) سورة هود [١٢٣] .
(٥) سورة الشعراء [٢١٧] .
(٦) سورة آل عمران [١٦٠] .
(٧) سورة المزمل [٩] .
(٨) التوكل ، للقرضاوي : ص ١١ ، وهو من أفضل ما اطلعت عليه في موضوع التوكل ؛ ولهذا لخصت معظم فصول الكتاب .

قال الشاعر:

ومَنْ لبس التوكلَ لم تجده يخاف جرائر المتجبرينا [١]

١ - ٦ : أمر اللهِ لعباده بالتوكل عليه والالتجاء إليه في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم أكثر من أمره ببعض العبادات ؛ وهو ما يدل على أهميته في حياة المسلم وضرورته وحاجته إليه في ثباته واستمساكه بربه . قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : ((وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ، ونهى عن التوكل على غير الله)) [٢] .

١ - ٧ : وبعد ، فهو علاج لتلك القلوب التي تعلقت بالأسباب المادية ، واعتمدت عليها اعتمادًا نست معه ربّ الأسباب ومسبِّبها وخالقها ومسخرها ، فوُكِلوا إلى ما اتكلوا عليه ، وفي الأثر : ((من توكل على الله كفاه مؤونته ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وَكَلَه اللهُ إليها)) [٣] ، وهو وقاية وعلاج لحالات التردد والنكوص ، والجبن والبخل ، التي قد تصاب بها فئام من الدعاة في أوقات الفتن ، فتلهج ألسنتهم بما لهجت به ألسنة المتوكلين من قبلهم : ﴿ **فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[٤]، ﴿ **رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [٥] .

٢ - .. ولكن ما حقيقة التوكل الذي نريد ؟

- لابد من تحديدٍ لمفهوم التوكل من هَدي النبي ﷺ ، وفهم السلف الصالح لهذا الخلق ، وإلا حَسِبَ كثير من الناس أنفسهم متوكلين ، وما هم من التوكل في شيء ، أو ألزموا أنفسهم لكي يتحلوا بالتوكل ما لم يلزمهم الله به .
- انظر دلالة المصطلح في مقدمة البحث .

٣ - فضل التوكل وجزاء المتوكلين :

لقد جاءت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة مبيّنة فضل التوكل وجزاء المتوكلين في الدنيا والآخرة ، نذكر بعضها تشويقًا للقلوب للوصول إليه والتحقق به :

---

(١) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي ، لأحمد قبش : ص ٥٤ .
(٢) الفتاوى : ج٧ ، ص١٦ .
(٣) كنز العمال : ج٣ ، ص ١٠٣ ، برقم : ٥٦٩٣ ، وعزاه إلى الديلمي عن عمران بن حصين ، والشاسي وابن جرير .
(٤) سورة يونس [٨٥] .
(٥) سورة الممتحنة [٤] .

٣ ـ ١ : دخول الجنة بغير حساب :

قال عمران بن حصين : قال نبيُّ الله ﷺ : ((**يدخل الجنَّةَ مِنْ أُمّتي سبعون ألفًا بغير حسابٍ**)) . **قالوا : ومَنْ هم يا رسولَ اللهِ ؟ قال** : ((**هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون**)) [1] .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**)) [2]. قيل معناه : متوكلون [3].

وقد ذكر الحق ـ عزَّ وجلَّ ـ صفات أهل الجنة فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [4] ، فجعل من أبرز صفات أهل الجنة صبرهم لله وتوكلهم عليه .

٣ ـ ٢ : التوكل سبب لمحبة الله :

فالتوكل خلق من أخلاق المؤمنين بالله أمرهم اللهُ به ، وأحب المتصفين به فقال : ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾[5] . قال الغزالي : ((وأعظِمْ بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبُه ، ومضمون كفاية الله ملابسُه ، فمَنِ اللهُ حسبُه وكافيه ، ومحبُّه وراعيه فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لا يُعذَّبُ ولا يُبعد ولا يحجب)) [6] .

٣ ـ ٣ : المتوكلون في حماية الله ورعايته وحفظه وكفايته :

فالمتوكلون على الله حقًّا كفاهم الله شر الأشرار وكيد الفجار . كما قال تعالى : ﴿

---

(1) رواه الإمام البخاري في صحيحه من طريق ابن عباس ، كتاب الرقائق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ، برقم : ٦٥٤١ ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، برقم : ٣٧١ . من طريق عمران بن حصين .

(2) رواه مسلم في كتاب الجنة ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ، برقم : ٢٨٤٠ .

(3) التوكل على الله ، للدكتور سالم القرني : ص ٤٨ ، ممرات الحق ، الممر الثالث : ص ١٩٥ ، إسلامنا ، للسيد سابق : ص ٤٩ .

(4) سورة العنكبوت [٥٨ ـ ٥٩] .

(5) سورة آل عمران [١٥٩] .

(6) الإحياء : ج٤ ، ص ٢٤٣ .

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١)، أي كافيه .

قال الإمام ابن القيم - يرحمه الله - : « التوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب في ذلك ، فإن الله حسبه أي كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش ، وإما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا . وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه ، وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يتشفى به منه . قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال : ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه - سبحانه - كافيَ عبدِه المتوكل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومَنْ فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره » (٢) .

ولهذا لهج المتوكلون كلما خوّفهم الناس من عاقبة تمسكهم بدينهم ودعوتهم ، ومن كيد عدوهم بهم بقولهم : ﴿**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ** ﴾ (٣) فمن توكل عليه ، وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه ورعاه وحرسه .

٣ - ٤ : الهداية والسداد والبعد عن مزالق الشيطان :

كلُّها هبات إلهية ومنح ربانية للمتوكلين عليه ، قال الله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (٤) .. قال سيد - رحمه الله - : « فالذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه ، وينقادوا إليه . وقد يخطئون ، لكنهم لا يستسلمون فيطردون الشيطان عنهم ويتوبون إلى ربهم من قريب .. » (٥) .

وعندما يعلن المتوكلون على ربهم عند دخولهم البيت وخروجهم منه فإن حفظ

---

(١) سورة الطلاق [٣] .
(٢) بدائع الفوائد : ج٢ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
(٣) سورة آل عمران [١٣٧ - ١٧٤] .
(٤) سورة النحل [٩٨ - ٩٩] .
(٥) الظلال : ج٤ ، ص ٢١٩ .

الله وكفايته وهدايته جزاؤهم ، قال رسول الله ﷺ : ((**من قال - يعني إذا خرج من بيته - باسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . يقال له : هُديت وكُفيت ووُقِيت وتنحى عنه الشيطان**)) (1) ، وفي دخولهم أيضًا : قال رسول الله ﷺ : ((**إذا ولج الرجلُ بيته فليقل : اللهم إني أسألك خير المَوْلِج وخيرَ المخْرَجِ ، بسم الله ولجنا ، وبسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم ليسلّم على أهله**)) (2) .

٣ - ٥ : المتوكلون هم القدوات الذين جعلهم الله أسوة يقتدى بهم :

قال الله تعالى عن إبراهيم - عليه السلام - والذين آمنوا معه : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ (3) ، ثم وصفهم الله بقوة إيمانهم وسلامة توحيدهم وبراءتهم من الشرك وأهله ، ثم أخبرنا عن توكلهم على الله فقال : ﴿ **رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾(4) .

٣ - ٦ : التوكل من أكبر أسباب الرزق :

عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**)) (5) .

٣ - ٧ : التوكل من أكبر أسباب النصر على الأعداء :

قال الله تعالى : ﴿ **إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾(6) ، أي فليخصه المؤمنون بالتوكل ؛ لأنه لا

(1) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا خرج من بيته ، برقم : ٥٠٩٥ ، وأخرجه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا خرج من بيته ، وقال : حديث حسن ، برقم : ٣٤٢٦ ، وصححه ابن حبان : ج٢ ، ص ٩٥ ، وأعلّه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) ، المجلس الحادي والثلاثين ، وذكر له شاهدًا مرسلاً في المجلس الذي يليه .

(2) رواه أبو داود ، كتاب الأدب ، برقم : ٥٠٩٢ ، وقال الأرناؤوط في تحقيق الأذكار للنووي ، برقم (١٩) : حديث حسن .

(3) سورة الممتحنة [٤] .

(4) سورة الممتحنة [٤] .

(5) رواه الترمذي في الزهد ، برقم : ٢٣٤٥ ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجة ، برقم : ٤١٦٤ ، وأحمد في مسنده ، برقم : ٢٠٥ ، قال أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(6) سورة آل عمران [١٦٠] .

ناصر لهم سواه (١). قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : ((وعلى الله فليتوكل المؤمنون فنهى عن التوكل على غيره ، وأمره بالتوكل عليه ليحصل عليه النصر الذي لا يقدر عليه غيره)) (٢).

٤ - مجالات التوكـل :

قال ابن القيم في حديثه عن منزلة التوكل : ((ومنزلتُه : أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنازلين ، لسعة متعلَّق التوكل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار ..)) (٣) ؛ ولهذا فإن مجالات التوكل أو متعلّقاته كثيرة تشمل حاجات الإنسان في الدنيا والآخرة ، كما أن الأصل بالمؤمنين أن يتوكلوا على الله في جميع أمورهم كما وصفهم السعدي - رحمه الله - (٤) :

صحبوا التوكل في جميع أمورهم   مع بذل جهد في رضا الرحمن

ولكننا سنذكر مجالين مهمين يجب أن يقوى فيهما توكل العبد على ربه وهما :

٤ - ١ : التوكل على الله في الرزق والأجل :

يقول القرضاوي : ((ولا ريب أن أمر الرزق قد أهمَّ الناس وشغلهم ، كما شغلهم أمر الأجل ، بَيْد أن المتوكلين على الله قد فرغوا من هذين الأمرين ؛ فقد اطمأنوا إلى أن الرزق مقسوم ، والأجل معلوم ، فلا يملك أحد أن ينقص من رزقهم مثقال حبَّة ، ولا أن يُقدِّم أجلهم مقدار لحظة .

وهذا لا يعني أن يهمل السعي لرزقه ، بل يسعى ويكدح ، وهو مطمئن أن أحدًا لا يأكل رزقه ، كما لا يأكل هو رزق غيره ، وأن ما أصابه من رزق لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)) (٥) ؛ ولهذا فإذا دُعيَ المتوكلون إلى الإنفاق ، أنفقوا وقد اطمئنوا إلى أن الله سيرزقهم خيرًا مما أنفقوا ، وإذا جاهدوا أيقنوا أن جهادهم لن يقدم من آجالهم ، وأن الله سيبارك في أعمارهم .. فعلى الدعاة أن يوقنوا أن انتظام مسلم في صفوف الدعاة إلى الله لن يحجبه رزقًا قد كتبه له ، ولن يجلب له رزقًا قد كتبه الله لغيره .

وإليكم بعض نماذج الدعاة المتوكلين على الله في دعوتهم وجهادهم :

---

(١) تفسير المراغي : ج٤ ، ص ١١٨ ، وانظر للتوسع ما قبلها في مفهوم التوكل الحق .
(٢) جامع الرسائل ، لابن تيمية : ص (٩٤ - ٩٥) ، نقلاً عن التوكل ، للقرني : ص ٢١٣ .
(٣) المدارج : ج٢ ، ص ١٢٩ .
(٤) الدُّرة الفاخرة ، للشيخ السعدي - رحمه الله - ص ٢٥ .
(٥) التوكل ، للقرضاوي : ص ٢٨ .

- ((عند تجهيز جيش العُسرة في غزوة تبوك ، تسابق الصحابة في الإنفاق والبذل ؛ فجاء عمر بنصف ماله ، وجاء أبو بكر بماله كله ، وقال له الرسول ﷺ : ((**وماذا أبقيتَ لأهلك وعيالك**)) ؟ قال : أبقيتُ لهم الله ورسوله !
- وقيل لبعض المجاهدين في عصور الفتح : مَن يكفي أولادك من بعدك ؟ قال : علينا أن نجاهد في سبيله كما أمرنا . وعليه أن يرزقنا كما وعدنا !)) [1] .
- وقيل لزوجة مجاهد من السلف : من أين تعيشين أنت وأولادك بعد ذهاب زوجك ؟ فقالت بكل ثقة : عَرَفتُ زوجي أكّالاً ، وما عرفته رزّاقًا ، فلئن ذهب الأكّال لقد بقي الرزَّاق .

٤ ـ ٢ : التوكل على الله في أمر الدين :

((ولكن هناك ما هو أعظم من هذا (يعني التوكل على الله في أمور الدنيا) ، وهو من يتوكل على الله تعالى ، حتى يأخذ بيده ، ويعينه على سلوك الصراط المستقيم ، ويثبته عليه ، ويجعله من ﴿**الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [2] ، ويمنع عنه المشوشات وقواطع الطريق ، من النفس والشيطان ، والدنيا والناس . كما قال العبد الصالح :

إني بُليتُ بأربعٍ يرمينني ... بالنبل عن قوس له وتر

إبليس والدنيا ونفسي والورى ... يا رب أنت على الخلاص قدير

وهناك ما هو أعلى من هذه المرتبة في متعلقات التوكل ، وهي مرتبة مَن يتوكل على الله تعالى في إعلاء كلمته ، ونُصْرة دعوته ، وتأييد شريعته ، وتبليغ رسالته ، وجهاد أعدائه ، والتمكين لدينه في الأرض ، حتى يحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويقوم العدل ، وينقشع الظلم ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وبذلك لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله)) [3].

قال الإمام ابن القيم مفاضلاً بين مجالات التوكل ومتعلقاته : ((فأفْضَلُ التوكل : التوكُّلُ في التأثيرِ في الخارج في مصلحةٍ دينيةٍ ، أو في دَفعِ مَفسدة دينيةٍ ، وهو

---

(1) التوكل ، للقرضاوي : ص (٢٩ - ٣٠) .
(2) سورة فصلت [٣٠] .
(3) المرجع السابق : ص ٣١ .

توكُّلُ الأنبياء في إقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين في الأرض ، وهذا توكُّلُ ورثتهم . ثم النَّاس بعدُ في التوكل على حسب هِمَمِهم ومقاصدهم ، فَمِنْ متَوكلٍ على الله في حُصول المُلكِ ، ومِنْ مُتوكلٍ في حصولِ رَغيفٍ ›› (١) .

(انظر مبحث ٨ ، نماذج لتوكل الرسل في تبليغ رسالة ربهم ، وصبرهم على أذى أقوامهم) .

٥ - التوكل لا التواكـل :

الأخذ بالأسباب مع تعلق القلب بالله واتكاله عليه لا ينافي التوكل ، كما أن القعود عن الأسباب التي جعلها الله سبيلاً موصولاً لمسبباتها مراغمة للحكمة الإلهية ، وجهل بالسنن الكونية التي مضت بها أقدار الله وحكم بها شرعه ؛ ولهذا قال سهلُ بن عبد الله التستري : ‹‹ من طعن في الحركة [أي السعي والأخذ بالأسباب] ، فقد طعن في الإيمان . فالتوكل حالُ النبي ﷺ ، والكسب سُنَّتُه ؛ فمن عمل على حاله ، فلا يتركن سُنَّتُه ›› (٢).

٥ - ١ : الأمر برعاية الأسباب في القرآن :

لقد جاءت نصوص كثيرة في القرآن أمرت برعاية الأسباب ؛ داعية إلى ضرورة الحرص عليها ، والسعي لتحصيلها ، مع تعلق القلب بالله - عزَّ وجلَّ - وعدم الركون إليها .. ومن تلك النصوص (٣) :

قولـه تعـالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾(٤)، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ** ﴾ (٥) ، وقال في صلاة الخوف : ﴿ **وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ** ﴾(٦)، وقال تعالى لموسى - عليه السلام - : ﴿ **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً** ﴾(٧)، والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب دفعًا للضرر - كما يقول الغزالي - وكذلك أمر الله تعالى لنبيه لوط - عليه السلام - : ﴿ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ** ﴾ (٨) ، أي في أثنائه حين تنام العيون ، ولا يدري أحد عن

---

(١) المدارج : ص ١٢٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ١٣٢ .
(٣) للتوسع راجع الإحياء : ج٤ ، ص ٢٧٩ ، والتوكل ، للقرضاوي : ص (٤٢ - ٤٤) ، مختصر تلبيس إبليس : ص (٢٢٧ - ٢٣٠) ، الاعتدال في التدين ، للدكتور محمد الرحيلي : ص (٧٧ - ٩٩) .
(٤) سورة الأنفال [٦٠] .
(٥) سورة النساء [٧١] .
(٦) سورة النساء [١٠٢] .
(٧) سورة الدخان [٢٤] .
(٨) سورة الحجر [٦٥] .

مسراك [١] [٢]، وإلى جانب هذه النصوص المتعلقة بالأمر بالسعي في تحصيل أسباب القوة واتخاذ التدابير ؛ للتخلص من كيد الأعداء وكفِّ آذاهم وكسر شوكتهم وإرهابهم ، هناك نصوص أخرى تدعو المسلم لبذل أسباب تحصيل الرزق كالضرب في الأرض والانتشار فيها :

قال الله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[٣] .

وقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ** ﴾[٤] .

وقال - عزَّ وجلَّ - في عبادة الحج : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى** ﴾[٥] . قال القرطبي - رحمه الله - : قوله تعالى : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا** ﴾ أمْرٌ باتخاذ الزاد . قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد : نزلت الآية في طائفة من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا ؛ فكانوا يبقون عالة على الناس ، فنُهوا عن ذلك ، وأمروا بالزاد ، وقال عبد الله بن الزبير : « كان الناس يتّكل بعضهم على بعض بالزاد ؛ فأُمروا بالزاد » . روى البخاري عن ابن عباس قال : « كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ؛ فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى** ﴾[٦] »[٧].

قال أبو الفرج الجوزي : وقد لَبّس إبليس على قوم يدعون التوكل ، فخرجوا بلا زاد ، وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ . قال رجل لأحمد بن حنبل : أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل بغير زاد ، فقال له أحمد : اخرج في غير القافلة . فقال : لا ، إلا معهم . فقال : فعلى جُرُب الناس توكلت ؟! »[٨] (جُرُب : جمع جراب وهو الوعاء) .

٥ - ٢ : الأمر بالتسبب في السنَّة :

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للسعدي : ص ٣٨٦ .
(٢) وفيها دليل على ضرورة التخطيط لدعوة الله بما يكفل - بإذن الله - حمايتها من تربص المتربصين ، وكيد الحاقدين ، ومشروعية الأخذ بالسرية والكتمان في بعض برامج الدعوة عند الحاجة إلى ذلك .
(٣) سورة الملك [١٥] .
(٤) سورة الجمعة [١٠] .
(٥) سورة البقرة [١٩٧] .
(٦) سورة البقرة [١٩٧] .
(٧) رواه البخاري في كتاب الحج ، باب قوله تعالى : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى** ﴾ ، برقم : ١٥٢٣ .
(٨) الجامع لإحكام القرآن : ج٢ ، ص (٤١١ - ٤١٢) ، باختصار .

عن عمرو بن أمية ، قال : يا رسول الله ، أُرْسل ناقتي وأتوكّلُ ؟ فقال : ((**اعْقِلها وتوكل**)) [1] .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : ((**لو أنكم تتوكلون على اللهِ حقَّ توكلهِ لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصًا وتروحُ بطَانًا**)) [2]. قال الإمام أحمد - رحمه الله - في دلالة هذا الحديث على الأخذ بالأسباب لكسب الرزق والرد على مَنْ اتخذه حجة له في القعود عن التكسب ، بل فيه ما يدل على طلب الرزق : ((لأن الطير إذا غَدَتْ فإنما تغدُو لطلب الرزق ؛ وإنما أراد - والله تعالى أعلم - لو توكلوا على الله في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ورأوا أن الخير بيده ومِنْ عنده لم ينصرفوا إلا سالمين غانمين كالطير تغدو خماصًا ، وتروح بطانًا ، لكنهم يعتمدون على قوتهم وجَلَدِهم ويغشُّون ويكذبون ، ولا ينصحون ، وهذا خلاف التوكل)) [3] .

وأما فعله ﷺ في إتيان الأسباب للوصول إلى مسبباتها مع كونه ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين وإمام المتوكلين فهي أكثر من أن تحصى . قال ابن الجوزي - رحمه الله - : ((وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ، وشاور طبيبين ، واختفى في الغار . وقال : ((**مَنْ يحرسني الليلة ؟**)) . وأمر بغلق الباب . وفي الصحيحين من حديث جابر أنه ﷺ قال : ((**أغلق بابك**)) [4])) [5]، ودخل مكة وقد لبس المِغْفر ، ومن قبل حفر الخندق واستأجر الرماح واتخذ الدليل ، وهذا بيّن لمن قرأ سيرته ودرس مغازيه ﷺ ، وقال ﷺ : ((**كنت أرعى غنمًا لأهل مكة بالقراريط**)) [6] .

٥ - ٣ : اتخاذ الأسباب سنّة الأنبياء جميعًا :

---

(١) رواه البيهقي ، في شعب الإيمان : ج٢ ، ص٨٠ ، وابن حبان في صحيحه ، برقم : ٧٣١ ، قال الأرناؤوط في الإحسان : حديث حسن ، وقال العراقي في تخريج الإحياء : ج٤ ، ص ٢٧٩ : أخرجه الترمذي من حديث أنس ، قال يحيى القطان : منكر ، ورواه ابن حزيمة في التوكل ، والطبراني من حديث عمرو ابن أمية الضميري بإسناد جيد ، وانظر أيضًا مجمع الزوائد : ج١٠ ، ص ٢٩٤ .

(٢) صحيح سنن الترمذي ، برقم : ١٩١١ ، وصحيح سنن ابن ماجة ، برقم : ٣٣٥٩ .

(٣) صحيح شعب الإيمان ، لخالد العك : ص ١٧٠ ، وانظر أيضًا جامع العلوم والحكم : ج٢ ، ص ٥٠٢ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ، برقم : ٣٢٨٠ ، ومسلم كتاب الأشربة باب الأمر بتغطية الإناء ، برقم : ٢٠١٢ .

(٥) مختصر تلبيس إبليس ، لابن الجوزي : ص ٢٢٧ .

(٦) رواه البخاري ، كتاب الإيجارة ، باب رعي الغنم على قراريط ، برقم : ٢٢٦٢ .

من تأمل قصص الأنبياء في كتاب الله علم أن اتخاذ الأسباب لم يكن سنّة نبينا محمد ﷺ وحده ، بل هي سنّة الأنبياء جميعًا :

فنبيُّ الله نوح - عليه السلام - يصنع الفلك كما أمره الله : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾(١) لتكون وسيلة النجاة له ومن معه من الطوفان .. والله - عزَّ وجلَّ - قادر على إنجائهم من غير سفينة ، ولكن جعل الله قدرته وقدره من خلال سنن وأسباب أوجدها سبحانه لنعمل وفقها ..

ونبي الله يعقوب يوصي يوسف بالسرية والكتمان كسببٍ للتخلص من كيد إخوته ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾(٢) .

وموسى عليه السلام يعطي الأسباب حقها عندما رأى النار فيذهب إلى موضعها لكي يأتي بالخبر أو الجذوة فيقول لأهله : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾(٣) ، فلم يجلس اتِّكالاً على الله في أن يأتي له بالخبر أو الجذوة .

ولم يكن عمل داود - عليه السلام - في صناعة الدروع التي يحصن لبسها من بأس العدو منافيًا للتوكل ، بل عدَّها القرآن نعمة من نعم الله عليه : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٤) .

٥ - ٤ : السلف يصححون مفهوم التوكل للمتواكلين :

لم ير الصحابة - وهم أفضل هذه الأمة إيمانًا وتوكلاً - منافاة بين توكل قلوبهم على الله ، وسعي جوارحهم في التكسب واتخاذ الأسباب ؛ لذلك فالكثير من المهاجرين أهل تجارة ، وأما الأنصار فقد كثر فيهم الزرّاع . حتى قالت عائشة - رضي الله عنها - تصف أصحاب رسول الله ﷺ : « كان أصحاب رسول الله ﷺ عمَّالَ أنفسِهم ، فكان يكون لهم أرواح (أي يعملون بأنفسهم في زراعتهم وتجارتهم فتكون لهم رائحة العرق) فقيل لهم : لو اغتسلتم » (٥)، ولما بويع أبو بكر ﷺ بالخلافة ، أصبح غاديًا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها ، فلقيه عمر وأبو عبيدة ، فقالا : أين يريد ؟

---

(١) سورة هود [٣٧] .
(٢) سورة يوسف [٥] .
(٣) سورة القصص [٢٩] .
(٤) سورة الأنبياء [٨٠] .
(٥) رواه البخاري ، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، برقم : ٢٠٧١ ، ورواه مسلم في الجمعة ، باب وجوب غسل الجمعة على كل بالغ من الرجال .

قال : السوق ، قالا : تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين ؟! قال : فمن أين أُطعم عيالي ؟! [١] ، وكذلك اشتغل عمر رضي الله عنه بالتجارة والتكسب حتى قال عندما فاته حديث رسول الله ﷺ في الاستئذان : ((ألهاني عنه الصفق بالأسواق)) . وشهرة عثمان وعبد الرحمن بن عوف - وكلاهما من المشهود لهم بالجنة - في التجارة تغنينا عن ذكر أخبارهم في ذلك .

وراح أولئك الأبرار ينكرون على من قعد عن الأسباب وزعم أنه متوكل . قال معاوية بن قرة : لقي عمر بن الخطاب ناسًا من أهل اليمن ، فقال : مَنْ أنتم؟ قالوا : نحن المتوكلون .

قال : بل أنتم المُتَّكِلُون . ألا أُخبركم بالمتوكلين ؟ رجل ألقى حبةً في بطن الأرض ثم توكل على ربِّه . وقوله : ((المتَّكِلُون)) يعني على أمور الناس [٢] .

وعلى هذا النهج سار فقهاء الأمة المتبوعون ، وأئمتها المعتبرون ، فهذا سفيان الثوري يقول : ((العالم إذا لم تكن له معيشة صار وكيلاً للظلمة ، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه ، والجاهل إذا لم تكن له معيشة صار وكيلاً للفسّاق)) .

((وسئل الإمام أحمد - رحمه الله - عن هؤلاء الذين يزعمون أنهم متكلة ، ويقولون : نقعد وأرزاقنا على الله - عزَّ وجلَّ - فقال الإمام أحمد : هذا قول رديء ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ؟ ! [٣]، ثم قال : إذا قال : لا أعمل ، وجيء إليه بشيء قد عُمِل واكتسب لأي شيء يقبله من غيره . وعن صالح بن أحمد بن حنبل قال : سُئل أبي عن قوم لا يعملون ويقولون : نحن المتوكلون . فقال هؤلاء مبتدعون)) [٤] .

٥ - ٥ : ما يترتب علىالتواكل :

أ – إشاعة للسلبية [٥] :

---

[١] فتح الباري : ج٤ ، ص ٣٠٥ ، قال ابن حجر - رحمه الله - : رواه ابن سعد بإسناد مرسل رجاله ثقات .

[٢] شعب الإيمان ، للبيهقي : ج٢ ، ص ٨١ .

[٣] سورة الجمعة [٩ - ١٠] .

[٤] مختصر تلبيس إبليس ، لابن الجوزي : ص (٢٣٣ - ٢٣٤) .

[٥] انظر للتوسع : التوكل ، للقرضاوي : ص (٥٨ - ٦٢) ، التوكل على الله وأثره في حياة المسلم ، للجار الله ، ص٥٥ .

إن القعود عن التسبب ، وإغفال سنن الله - بزعم أن ذلك هو التوكل - قد أنشأ جوًّا من السلبية في ديار المسلمين ، وكان ذلك من أسباب تخلفهم عن الركب الذي كانوا قادته عدة قرون ، والمصيبة تعظم إذا رأيت بعض الدعاة قد تأثروا بمثل هذا المسلك المتواكل في القعود عن الكثير من أسباب النصر من تخطيطٍ وتنظيمٍ وإعدادٍ للعدة ؛ اتكالاً على أن النصر من الله .. فهلاّ علِموا أن رسول الله ﷺ قد خطط لغزواته ، ونظّم جنده ودعاته ولم يقعد في بيته اتكالاً على نصر الله له . وقد قال الله تعالى واصفًا نبيه ﷺ وهو يُعد العدة للقتال : ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1] ، أي تتخذ لهم مقاعد للقتال ، وذلك يوم أُحد ؛ فجعل الرماة في مكان وقال لهم : « **الزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم** »[2] ، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ؛ فلم يترك رسول الله ﷺ الأمر فوضى دون تخطيط أو تنظيم وهو أحق الخلق بنصر الله وأولاهم به ..

وقد قلت لأحد الدعاة وقد همَّ برحلة تربوية مع بعض إخوانه : هل وضعتم لها خطة وأهدافًا فقال : لا ... ولكن الله سييسرها ! وهل التيسير إلا بعد العطاء والبذل ومراعاة سنن الله بقدر المستطاع ؟ ! وقد قال الله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى** ﴾[3] .

ب – إهدار الطاقات وإضاعة الفرص[4] :

إن قعود الإنسان عن التسبب إهدار لنعم الله عليه في عقله وبدنه وما سخره له في الأرض ، وتفويت للمنافع التي يمكن أن يجنيها المجتمع المسلم من أفراده ؛ ولهذا قال بعض الحكماء عن أولئك المتواكلين : إنهم كالبومة الساكنة في الخراب ليس فيها نفع لأحد ، بل قال الراغب الأصفهاني - رحمه الله - : « مَنْ تَعطّل وتبطل انسلخ من الإنسانية ، بل من الحيوانية وصار من جنس الموتى »[5] .

٦ - متى تذم الأسباب ؟

قال القرضاوي : « إنما تُذَم الأسباب إذا تعلَّق القلب بها وحدها ، وجعل كل اعتماده عليها ، ونسي مسببها وخالقها ، وجهل أن الأسباب لا تعمل وحدها ، فربما

---

(١) سورة آل عمران [١٢١] .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، للصابوني : ج١ ، ص (٣١٤ - ٣١٥) ، وفتح القدير للشوكاني : ج١ ، ص ٤٥٩ .
(٣) سورة الليل [٥ - ٧] .
(٤) انظر للتوسع الذريعة إلى مكارم الشريعة : ص (٢٦٦ - ٢٧٠) .
(٥) المرجع السابق : ص ٢٦٨ .

أهمل سببًا بعيدًا أو خفيًّا ، أو أغفل شرطًا لازمًا ، أو كان هناك مانع قوي يعوق سببه ويبطل تأثيره . فإنه إذا بذر الحبة في الأرض الخصبة ، وتعهدها بالري والتسميد ونحو ذلك ، لا يملك تعهد البذرة في أعماق التربة ، ولا يملك تصريف الرياح ودرجات الحرارة والبرودة التي تؤثر فيها ، ولا الآفات السماوية التي يمكن أن تحيق بها ، فلا يملك المؤمن هنا إلا أن يقول بعد سببه واجتهاده : نبذر الحَبَّ ، ونرجو الثمر من الرب .

وقد ذكر القرآن لنا نموذجًا من الاعتماد على الأسباب الظاهرة وحدها فإذا هي لا تحقق نتائجها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** ﴾ [1].

لقد خَذلوا وهم كثرة ؛ حيث غرَّهم الكم ، وأذهلهم عن التوكل ، فلم يغن الكمُّ الكثيرُ شيئًا ، على حين انتصروا وهم قِلَّة ؛ إذ كان اعتمادهم على الله وحده ، بعد أن بذلوا ما استطاعوا » [2] .

٧ - أصناف الناس بالنسبة للأسباب[3]:

الناس مع الأسباب في عصرنا أصناف :

الصنف الأول : معطلو الأسباب :

وهم الذين أعرضوا بأبدانهم وقلوبهم بدعوى التوكل على الله تعالى . وقد سبق بيان خطأ هؤلاء ، ووجود هذا الصنف في عصرنا الحالي نادر .

الصنف الثاني : المعتمدون على الأسباب دون مسببها :

وهم الذين تشبثوا بالأسباب بجوارحهم وقلوبهم ، وغفلوا عن مسببها ، وخالقها ، فكلُّ نظرِهم إليها ، وكلُّ اعتمادِهم عليها ، حتى أمست وكأنها آلهةٌ تُعبد مع الله ، أو من دون الله ! .

وهؤلاء للأسف الشديد أكثر الخلق ، فلا يكاد أحدهم يرى الرزق إلا في الوظيفة التي يقبض راتبه منها كل شهر ، أو التجارة التي تعود عليه بالربح كل عام .. ولهذا نرى أحدهم يقول : لولا فلان لخسرنا ، ولولا خبرتي وتصرفي لضعنا .. وقلما يذكر أحد ربه الذي هيأ له هذا أو تلك ، ورزقه من حيث يحتسب أو لا يحتسب .. فكأن هؤلاء باتوا في أمر الرزق والتدبير في مرتبة دون مرتبة المشركين الذين حدّثنا القرآن عنهم أنهم كانوا يردون أمر الرزق والتدبير والإحياء والإماتة إلى الله سبحانه

---

(1) سورة التوبة [٢٥] .
(2) التوكل ، للقرضاوي : ص ٦٥ .
(3) ملخصًا من المرجع السابق : ص (٧٠ - ٧٤) .

، لا إلى أصنامهم ولا إلى أحدٍ من خلقه .

يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾(١) .

الصنف الثالث : المستعينون بالأسباب على المعاصي :

وهذا الصنف أسوأ من الصنف الثاني ، فإن الصنف الثاني اعتمدوا على الأسباب في المباحات ، وهؤلاء استخدموها في المحرَّمات ؛ استعانوا بالأسباب المسخَّرة من الله على معاصي الله ؛ استعملوا ذكاءهم وتدبيرهم في عصيان الخالق ، وإيذاء الخلق ؛ واستخدموا قوتهم وجاههم في البطش بالمستضعفين ، والعدوان على حقوق المغلوبين ؛ وسخروا أموالهم ومكاسبهم في اتباع الشهوات ، وإشاعة الفاحشة ، وترويج الفساد في الأرض ؛ وجعلوا من مناصبهم وولاياتهم أداة لظلم الضعفاء ، ومحاباة الأقوياء والإثراء من الحرام ، وإعلاء الباطل على الحق ، والمنكر على المعروف ؛ حتى العلم ، وجَّهوه لخدمة المادة على حساب الروح ، ولتسير المتعة على حساب القيم ، بل علم الدين نفسه أحالوه آلة لاقتناص الدنيا ؛ فأحلّوا ما حرَّم الله ، وحرَّموا ما أحل الله ، وأسقطوا ما أوجب الله .

وقد صور شاعر النيل حافظ إبراهيم أنواعًا من هذا الصنف فأبدع في تصويره حين قال :

كم عالمٍ مَدَّ العلومَ حبائلاً	لوقيعةٍ وقطيعةٍ وفراقِ
وَطبيبِ قومٍ قد أحلَّ لطِبِّهِ	ما لا تُحِلُّ شريعةُ الخلاقِ
قتل الأجنَّة في البطون ، وتارةً	جمعَ الدراهمَ في دمٍ مُهْراقِ
أغْلَى وأثْمَنُ من تجاربِ علْمهِ	يومَ الفخارِ تجاربُ الحلاقِ
وفقيه قوم ظلَّ يرصدُ فِقهه	لمكيدةٍ أو مُستحلِّ طَلاقِ
يَمْشي وقد نُصِبَتْ عليه عمَامةٌ	كالبرْجِ ، لكن فوقَ تَلِّ نِفَاقِ
يَدْعونَه عند الشِّقاق وما دَرَوْا	أنَ الذي يدعونَ خِدْنُ شِقاقِ

(١) سورة يونس [٣١] .

وَأديبِ قَوْمٍ تستحِقُّ يمينُه قَطْعَ الأناملِ أو لَظَى الإحراقِ
في كَفه قلمٌ يَمُجُّ لُعابُه سُمًّا ، وينفُثُه على الأوراقِ
يَرِدُ الحقائقَ وهي بيضٌ نُصَّعٌ قُدْسيّةٌ عُلْوِيّةُ الإشْراقِ
فَيَرُدُّها سُودًا جَنَباتها مِن ظُلْمة التَّمويهِ ألفُ نِطاقِ

لقد جعل الله الأسباب لخلقه نعمة ؛ فجعلها هؤلاء نقمة ، حين انحرفوا بها إلى ما يُسخط الله تبارك وتعالى .

ومثل هؤلاء : مَن شغلتهم الأسباب عن أداء فرائض الله - عَزَّ وجَلَّ - فأولئك استعانوا بالأسباب على فعل المحظورات ، وهؤلاء ألهتهم عن فعل المأمور كما قال تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَّفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [1] .

والصنف الرابع : من جمعوا بين السبب والتوكل على المسبب :

هو الذي أخذ بالأسباب ، ولم يغفل عن مسببها ؛ فهو مع الأسباب بجوارحه وبدنه ، ومع ربه بعقله وقلبه ؛ فهذا هو المتوكل حقًّا .

هو الذي رعى سُنَّة الله في خلقه ، وأحكامه في شرعه ؛ موقنًا أن الله تعالى هو الذي وضع الأسباب ، وأمر باتخاذها ، ورتَّب عليها آثارها قدرًا وشرعًا ، وهو في الوقت نفسه القادر على أن يعطلها إن شاء ، وأن يخلق من الموانع ما يعوق سيرها ، أو يبطل أثرها .

هذا الصنف هو الذي أحسن الفهم عن الله ورسوله ؛ فعقل ناقته وتوكَّل ، وبَذَرَ الحَبَّ ، واعتمد على الرب ، ومشى في مناكب الأرض التي ذلَّلَها الله ، آكلاً من رزق الله ، وباع واشترى ؛ ولكن لم تلهه تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. وإذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ، ترك بيعه ، وجمَّد سببه ، ساعيًا إلى ذكر الله ، فإذا قُضِيَت الصلاة انتشر في الأرض مبتغيًا من فضل الله .. ا . هـ (ملخصًا عن التوكل للقرضاوي) [2].

٨ - من ثمار التوكل على الله :

---

(1) سورة المنافقون [٩] .
(2) للتوسع في موقف الناس من الأسباب في الوصول إلى مسبباتها انظر : التوكل على الله ، للدكتور سالم القرني : ص (١٠٦ - ١١٥ ، ١٣٧ - ١٥٨) . الفتاوى : ج٨ ، ص ٧٠ .

لقد ذكر القرضاوي عدة ثمار للتوكل على الله يتلذذ بها المتوكلون أُلخصها مع إضافاتٍ يسيرة :

٨ ـ ١ : السكينة والطمأنينة :

سكينة النفس وطمأنينة القلب ، التي يشعر بها المتوكل على ربه ، فلا يحس إلا الأمن إذا خاف الناس ، والسكون إذا اضطرب الناس ، والثبات إذا قلق الناس(١) .

أ ـ إنها الحالة التي وجدها موسى ـ عليه السلام ـ حين قال له أصحابه : ﴿ **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ (٢) .

ب ـ إنها الحالة التي وجدها النبي ﷺ في الغار حين أشفق عليه أبو بكر ، فقال له :

﴿ **لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا** ﴾ (٣) .

ج ـ إنها الحالة التي وجدها إبراهيم الخليل حين أُلقي في النار ؛ فلم يشتغل بسؤال مخلوقٍ ، ولم يشتغل إلا بقوله : ((**حسبي الله ونعم الوكيل**)) .

د ـ إنها الحالة التي وجدتها هاجر حين وضعها إبراهيم مع ابنها إسماعيل بوادٍ غير ذي زرع ، حيث لا أنيس ولا جليس ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا .

٨ ـ ٢ القوة :

القوة النفسية الروحية التي يحس بها المتوكل على الله والتي تصغر أمامها القوة المادية :

أ ـ إنها القوة التي أحسّها نوح ـ عليه السلام ـ وقد كذبه قومه فواجههم بقوله : ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ** ﴾(٤).

ب ـ إنها القوة التي جابه بها هود ـ عليه السلام ـ قومه وقد استهزءوا به فقال : ﴿ **إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ**

(١) التوكل ، للدكتور القرضاوي : ص (٩٥ ـ ١٠٨) .
(٢) سورة الشعراء [٦١ ـ ٦٢] .
(٣) سورة التوبة [٤٠] .
(٤) سورة يونس [٧١] .

تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

ج - إنها القوة التي تجلّت في موقف شعيب - عليه السلام - من قومه .. وهي القوة التي ظهرت على القلة المؤمنة من جند طالوت وهي تقاتل عددًا أكثر منها عددًا وعُدة .. وهي القوة التي تجلّت في موقف الصحابة ﷺ يوم الأحزاب وقد تجمعت جيوشهم وحاصرت المدينة ، فوصفهم الله بقوله : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾[2].

٨ - ٣ : العـزة :

ومن ثمار التوكل : العزة التي يحس بها المتوكل ، فترفعه مكانًا عَلِيًّا ، وتمنحه ملكًا كبيرًا بغير عرض ولا تاج ، وهو قبس من عزّة المتوكَّل عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾[3]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4] ، فالمتوكل هنا عزيز بغير عشيرة ، غني بغير مال ، ملك بغير جنود ولا أتباع .

٨ - ٤ : الرضـا :

ومن ثمرات التوكل على الله « الرضا »[5]، الذي ينشرح به الصدر ، وينفسح له القلب . قال بعضهم : « متى رضيت بالله وكيلاً ، وجدت إلى كل خيرٍ سبيلاً » .

وسئل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلاً ؟ فقال : « إذا رضي بالله وكيلاً » . إن المتوكل موقن أن تدبير الله خير له من تدبير نفسه ، وأنه أبدًا في كفاية الله تعالى وكفالته ووكالته ، وكفى بالله وكيلاً ، وكفى بالله كفيلاً ؛ ولهذا ألقى همومه عند باب ربه فاستراح من الهم والعناد ، وأنشد مع الشاعر :

سـهرت أعـين ، ونامـت عيـونُ   في أمـور تكـون أو لا تكـونُ

---

(1) سورة هود [٥٤ - ٥٦] .
(2) سورة الأحزاب [٢٢] .
(3) سورة الشعراء [٢١٧] .
(4) سورة الأنفال [٤٩] .
(5) انظر المدارج : ج٢ ، ص ١٣٩ .

إن ربًّا كفاك بالأمس ما كان سيكفيك في غدٍ ما يكونُ

٨ ـ ٥ : الأمـل :

الأمل في الفوز بالمطلوب والنجاة من المكروه ، وانقشاع الغمة ، وانفراج الكربة ، وانتصار الحق على الباطل ، والهدى على الضلال ، والعدل على الظلم .

فالمتوكل على الله لا يعرف القنوط إلى قلبه سبيلاً ، ولا يغلبه اليأس ، فقد علَّمه القرآن أن القنوط من لوازم الضلال ، واليأس من توابع الكفر .

قال تعالى على لسان إبراهيم – عليه السلام - : ﴿**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾(١) .

وعلى لسان يعقوب – عليه السلام - : ﴿**إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾(٢) .

- قال إبراهيم ذلك في مقام إنجاب الشيخ الهرم بعد أن أصابه الكبر .
- وقال يعقوب ذلك في مقام البحث عن يوسف وأخيه بعد أن طال فراقه ليوسف ، وانقطاع أخباره عشرات السنين ؛ ولكنه لم يفقد الأمل .
- وقد وجدنا النبي ﷺ أوسع الناس أملاً في الغد ، ورجاءً في النصر ؛ يقول لخبّاب - وقد جاءه يشكو من شدة ما يلقى من العذاب - مبشرًا : « **والذي نفسي بيده ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون** »(٣) .

٩ ـ بواعث التوكل :

٩ ـ ١ : تجريد التوحيد ، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته :

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « فإنهُ لا يستقيم توكلُ العبدِ حتى يصحَّ له توحيدهُ ، بل حقيقةُ التوكل : توحيدُ القلب ؛ فما دامتْ فيه علائقُ الشركِ ، فتوكله معلولٌ مدخولٌ . وعلى قدْر تجريد التوحيد ، تكونُ صحةُ التوكُّلِ ، فإنَّ العبد متى التَفَتَ إلى

(١) سورة الحجر [٥٦] .
(٢) سورة يوسف [٨٧] .
(٣) رواه البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب : ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ، برقم : ٣٨٥٢ .

غير اللهِ أخذَ ذلكَ الالتفاتُ شعبةً من شُعب قلبه ؛ فَنَقصَ من توكلهِ على اللهِ بقدْرِ ذهابِ تلكَ الشُّعبةِ ، ومن هاهنا ظنَّ من ظنَّ أن التوكُّل لا يصحُّ إلا بنقْضِ الأسباب . وهذا حق ، لكنْ رفضَها عن القَلبِ لا عَن الجوارح . فالتوكلُ لا يَتمُّ إلا برفْضِ الأسبابِ عن القلب ، وتعلق الجوارحِ بها ؛ فيكونُ منقطِعًا منها متَّصِلاً بها . والله سبحانه وتعالى أعلمُ » [1] .

وقال في موضع آخر من المدارج : « التوكل من أعم المقامات تعلقًا بالأسماء الحسنى »[2] ، فمن آمن بالله رازقًا توكل عليه في رزقه ، وعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء كتبه الله له ورزقه إيّاه .. ومن آمن بأسمائه : المعز ، المذل ، الخافض ، الرافع ، المانع ؛ قويَ توكلهُ عليه في إذلال أعداء دينه ، وخفضهم ، ومنعهم من أسباب النصر .. وهكذا بقية الأسماء الحسنى ؛ ولهذا فسّره (أي التوكل) من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله . وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد (أي بأسمائه وصفاته - عزَّ وجلَّ -) يصح له مقام التوكل . وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى [3] .

٩ - ٢ : الثقة بالله :

قد جعل ابن القيم الثقة بالله روح التوكل فقال : فكأنَّ « الثقة » .. هي رُوحٌ ، و « التوكل » كالبدن الحامل لها ، ونسبتها إلى التوكل كنسبة الإحسان إلى الإيمان » [4] .

فالواثق بالله ناصرًا لعباده المؤمنين ، لا ييأس لعقبات تعترضهُ في الطريق ، ولا ينكص لمحنةٍ أو تضييق ، وقد قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وهو في الغار : ﴿**لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾[5] ؛ ولهذا صوّر الهروي منزلة الثقة بقوله تعالى لأمِّ موسى : ﴿**فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[6] .

والذي يثق بالله رازقًا لعباده ، يعلم أن لا سلطان لأحدٍ على رزقٍ قد كتبه الله له والذي يثق بالله محييًا ومميتًا يوقن أنه لن ينقص مخلوق من أجله لحظة ، وكلما زادت ثقة العبد بربه وكفايته له ، ازداد توكله عليه ؛ ولهذا فسرّ بعضهم التوكل بالثقة بالله والطمأنينة إليه .

٩ - ٣ : معرفة الإنسان لنفسه وإدراكه لضعفه وعجزه :

---

(1) المدارج : ج٢ ، ص ١٣٦ .
(2) المرجع السابق : ج٢ ، ص ١٤١
(3) المدارج : ج٢ ، ص١٤٢ ، وانظر للتوسع ، التوكل ، للقرضاوي : ص (١٠٨ - ١١٠) .
(4) المدارج : ج٢ ، ص ١٦٣ .
(5) سورة التوبة [٤٠] .
(6) سورة القصص [٧] .

قال القرضاوي[١] : « معرفة الإنسان بضعفه الفطري ، وعجزه الذاتي ، ومحدودية علمه وإرادته وقدرته » إلى أن قال : « وهذا من أعظم البواعث لتعلق العبد بربه ، تعلق العاجز بالقدير ، والضعيف بالقوي ، والفقير بالغني ، والجهول بالعليم ، والذليل بالعزيز .. » .

« وهذا التعلق بالله والالتجاء إليه ، والاعتماد عليه سبحانه هو : التوكل . إن معرفة الإنسان بنفسه باب إلى معرفة ربه » ؛ ولهذا قال العارفون : « مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه » ؛ ولهذا كان أبعد الخلق عن التوكل المغرورون بأنفسهم ، المعجبون بعلمهم ، المعتزون بقوتهم ، المزهوون بما يملكون من ثروة أو موهبة ، بحيث يحسبون أنهم استغنوا عن الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى *أَن رَّآَهُ اسْتَغْنَى ﴾[٢] فسبب طغيانه : رؤيته لنفسه في حالة استغناء عن غيره ، وربما توهّم أنه مستغنٍ عن ربّه - جلَّ شأنه - ، ومن عميت بصيرته إلى هذه الدرجة لم يتصور منه الاتكال على ربه ، ولم يوقن بحقيقة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[٣] .

- **أمثلة على المغرورين :**

١-ولد نوح واغتراره بقوته التي ستعصمه من الطوفان .

٢-قارون واغتراره بماله .

٩ - ٤ : المعرفة بفضل التوكل وأحوال المتوكلين ومعايشتهم :

« ومن بواعث التوكل : المعرفة بفضله وفضل أهله ، وما خصهم الله ورسوله به من حُسْن الثناء ، وما وعدهم به من حُسْن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وما يُعقبه التوكل من أطيب الثمرات في حياة الفرد والجماعة ، ويكفي قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٥]ورسوخ هذه المعرفة حتى تستحيل يقينًا دافعًا .

ومثل ذلك مطالعة أحوال المتوكلين ، من الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين والصِدِّقين والشهداء والصالحين ، وعلى رأسهم سيد المتوكلين محمد رسول الله ﷺ .

إن معايشة سير المتوكلين على الله من أعظم ما يُقوّي القلب المتردد الضعيف في

(١) التوكل ، للقرضاوي : ص (١١٣ - ١١٥) .
(٢) سورة العلق [٦ - ٧] .
(٣) سورة فاطر [١٥] .
(٤) سورة الطلاق [٣] .
(٥) سورة آل عمران [١٥٩] .

الاعتماد على الله ، والتوكل عليه ، والتفويض إليه .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاح

وأعظم من ذلك تأثيرًا : أن تجد من الأحياء مَن تأخذ عنه ذلك بالصحبة والقدوة ، وقليل ما هم ، ولا تخلو الأرض منهم - إن شاء الله - . وقد قيل : إن حال رجل في ألف رجل ، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل ! ›› [1] .

١٠ - نواقض التوكل وموهناته :

من خلال معرفتنا لبواعث التوكل يمكن التعرف على بعض نواقضه أو موهناته من باب الضد ؛ فضد توحيد الخالق ومعرفة أسمائه وصفاته ، الشرك به وتعطيل الأسماء والصفات أو نفيها ، وهكذا .

ويمكن أن نشير إلى بعض الموهنات أو النواقض غير ما ذكرنا :

١٠ - ١ : الجزع والهلع :

قال الإمام الغزالي - رحمه الله - : ‹‹ فشرط التوكل الاحتمال والصبر ، قال الله تعالى : ﴿ **فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ** ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾[3]›› [4] ، فصبر الداعية على ما يلقاه في سبيل دعوته من أوضح علامات توكله على خالقه ؛ ولهذا قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾[5]، وقال تعالى : ﴿ **وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ** ﴾ [6].

١٠ - ٢ : ترك الأسباب [التواكل] :

ترك العبد للأسباب التي يستطيع الاعتماد عليها للوصول إلى أهدافه يجعل من توكله تواكلاً ؛ ولهذا قال ابن القيم : ‹‹ فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ›› [7] .

وكذلك في الجانب الآخر ، تعلق القلب بالأسباب ؛ ولهذا قال ابن القيم : ‹‹

---

(1) التوكل للقرضاوي : ص ١١٦ .
(2) سورة المزمّل [٩ - ١٠] .
(3) سورة إبراهيم [١٢] .
(4) الإحياء : ج٤ ، ص٢٧٩ .
(5) سورة الأحقاف [٣٥] .
(6) سورة الأحزاب [٤٨] .
(7) المدارج : ج٢ ، ص ١٣٤ .

فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب ، وتعلق الجوارح بها »[1] .

١٠ ـ ٣ : الإلحاف في سؤال الناس :

وقد عدَّ الهروي ـ رحمه الله ـ الدرجة الثانية من درجات التوكل « التوكل مع إسقاط الطلب » ، أي من الخلق لا من الحق ؛ فلا يطلب من أحد شيئًا .. ثم يذكر ابن القيم في معرض شرحه لهذه الدرجة ما سمعه من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فقال :

« وسمعته يقول في السؤال [أي في سؤال الخلق] : هو ظلم في حق الرُّبوبيةِ ، وظلمٌ في حق الخَلْقِ وظلم في حقِّ النفس .

أما في حقّ الربوبية : فلِمَا فيه من الذُّل لغير الله ، وإراقة ماءِ الوَجهِ لغيرِ خالقِه ، والتعوض عن سؤالهِ بسؤالِ المخْلوقينَ ، والتعرُّضِ لمقتهِ وعندَه ما يكفيه يومَه .

وأمّا في حَق الناس : فبمُنازَعَتهم ما في أيديهم بالسؤال ، واستخراجه منهم ، وأبغَضُ ما إليهم : منْ يَسألُهم ما في أيديهم ، وأحبُّ ما إليهم : مَنْ لا يسألُهم ، فإنَّ أموالهم محبُوباتُهم ، ومنَ سألكَ محبوبَك ، فقدْ تعرَّضَ لمقتلكَ وبُغضِكَ .

وأما ظلمُ السائل نفسه : فحيثُ امتَهَنَها ، وأقامَها في مقام ذُلِّ السؤالِ ، ورَضِيَ لها بذُلِّ الطلَبِ ممنْ هوَ مثلُه ، أو لَعلَّ السائلَ خير منه وأعْلى قدْرًا ، وتَركِ سؤالِ من لَيسَ كمثله شيءٌ ، وهو السميع البصير ؛ فلقد أقام السائلُ نفسه مقامَ الذلِّ ، وأهانَها بذلكَ ، ورضيَ أن يكونَ شحَّاذاً مثله . فإنَّ من تشْحَذُه فهوَ أيضًا شحاذٌ مثلُك ، والله وحدَهُ هو الغَنيُّ الحميدُ »[2].

١٠ ـ ٤ : أكل المال الحرام :

وقد بيّن هذا الناقض عبد الله ابن المبارك حين قال : « من أخذ فلسًا من حرام فليس بمتوكل »[3].

١١ ـ مسائل في التوكل :

١١ ـ ١ : هل التداوي يخلُّ بالتوكل ؟

لقد أجاب على هذا السؤال عددُ من أهل العلم نكتفي بإيراد اثنين منهم :

● قال الإمام ابن الجوزي : إذا ثبت أن التداوي مباح بالإجماع ، مندوب إليه عند بعض العلماء ؛ فلا يلتفت إلى قوم قد رأوا أن التداوي خارج من التوكل ؛ لأن الإجماع على أنه لا يَخْرج من التوكل ، وقد صح عن النبي ﷺ أنه تداوى وأمر

(1) المدارج : ج٢ ، ص ١٣٦ .
(2) المدارج : ج٢ ، ص (١٤٨ ـ ١٤٩) .
(3) الرسالة القشيرية : ص ١٧١ .

بالتداوي[1] ، ولم يخرج بذلك من التوكل ، ولا أخرج من أمره أن يتداوى من التوكل .

وفي صحيح مسلم من حديث عثمان بن عفان ﷺ : ((**أن النبي ﷺ رخص إذا اشتكى المحرم عينه أن يضمدها بالصبر**))[2] . قال ابن جرير الطبري : ((وفي هذا الحديث دليل على فساد ما يقوله ذَوُو الغباوة من أهل التصوف والعباد من أن التوكل لا يصح لأحد عالج علة به في جسده بدواء ؛ إذ ذاك عندهم طلب العافية من غير مَنْ بيده العافية والضر والنفع ، وفي إطلاق النبي ﷺ للمحرم علاج عينه بالصبر لدفع المكروه أدل دليل على أن معنى التوكل غير ما قاله الذين ذكرنا قولهم ، وأن ذلك غير مخرج فاعله من الرضا بقضاء الله ، كما أن من عرض له الجوع لا يخرجه فزعه إلى الغذاء من التوكل والرضا بالقضاء ؛ لأن الله تعالى لم ينزل داء إلاَّ أنزل له دواء إلاَّ الموت ، وجعل أسبابًا لدفع الأدواء ، كما جعل الأكل سببًا لدفع الجوع وقد كان قادرًا أن يحيي خلقه بغير هذا ، ولكنه خلقهم ذوي حاجة ، فلا يندفع عنهم أذى الجوع إلاَّ بما جعل سببًا لدفعه عنهم ؛ فكذا الداء العارض ، والله الهادي))[3].

- وذهب الإمام ابن القيم إلى ما ذهب إليه ابن الجوزي - رحمهما الله - فقال بعد أن أورد عدة أحاديث صحيحة في شأن التداوي : ((وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي ، وأنه لا يُنافي التوكل ، كما لا يُنافيه دفع داء الجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها اللهُ مقتضيات لمسبّباتها قدرًا وشرعًا ..))[4].

١١ - ٢ : هل البعد عن المريض خوفًا من العدوى مُخلٌّ بالتوكل ؟

((البعد عن المريض خوفًا من العدوى ليس قادحًا في التوكل ولا مخالفًا له ، بل

---

(1) أخرجه مسلم ، ٢٢٠٤ ، في السلام : باب لكل داء دواء ، عن جابر ، قال رسول الله ﷺ : **((إن لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله))** ، وقال ﷺ : **((تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلاَّ وضع له دواء ، غير داء واحد وهو الهرم))** . أخرجه أبو داود : ٣٨٥٥ ، في الطب ، باب في الرجل يتداوى ، وإسناده صحيح ، ورواه غيره .

(2) أخرجه مسلم : ١٢٠٤ ، في الحج ، باب جواز مداراة المحرم عينه ، والضماد : أصل معناه : الشدّ ، ويقال : للخرقة التي يشد بها العضو المصاب ضماد ، والصَّبِرُ بكسر الباء : دواء مرّ .

(3) مختصر كتاب تلبيس إبليس : ص (٢٣٦ - ٢٣٧) .

(4) زاد المعاد : ج٤ ، ص ١٥ ، وللتوسع راجع المرجع نفسه : ج٤ ، ص ١٣ - ١٧ ، وكذلك جامع العلوم والحكم : ج٢ ، ص (٥٠٠ - ٥٠١) ، والإحياء : ج٤ ، ص (٢٨٦ - ٢٩٢) ، مختصر منهاج القاصدين للمقدسي : ص (٣٦٧ - ٣٦٨) .

هو من قبيل اجتناب الأسباب التي خلقها الله وجعلها سببًا للأذى ؛ والمؤمن مطلوب منه اتقاء ما يؤدي إلى إيذائه وهلكته)) [1] .

وقد أمر رسول الله ﷺ بالفرار من المجذوم[2] ، ونهى عن إيراد الممرض على المصح[3] ، وعن الدخول إلى موضع الطاعون[4] ، وكل ذلك من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها أسبابًا للهلاك والأذى .

ولكن لابد من الإيمان أن هذه الأمراض لا تنتقل ولا تضر إلا بمشيئة الله - عزَّ وجلَّ - وإلى هذا المعنى يشير النبي ﷺ في قوله : ((**لا عدوى ولا طيرة .. وفرَّ من المجذوم فرارك من الأسد**)) فالمراد : ((لا عدوى على الوجه الذي كان أهلُ الجاهلية يعتقدونه من إضافة الفعل إلى غير الله ، وأن هذه الأمراض تعدي بطبعها ، وإلا فقد يجعل الله - بمشيئته - مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سببًا لحدوث ذلك ؛ ولهذا قال: ((**فر من المجذوم فرارك من الأسد**)) .. وكل ذلك بتقدير الله تعالى ، كما قال ﷺ : ((**فمن أعدى الأول ؟!**)) يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره ، فكذلك الثاني وما بعده)) [5].

خامسًا : بعض التطبيقات العملية لتأكيد معاني الدرس :

١- حفظ دعاء الخروج من البيت مع استشعار معانيه عند ذكره كلما خرج الداعية من بيته.

٢- التخطيط بجدية لبرامج الدعوة ؛ لأن الله تعالى أمرنا باتخاذ الأسباب لذلك ، مع الإيمان القاطع أن هذا التخطيط وتلك البرامج لن تؤثر بذاتها شيئًا في نجاح الدعوة وانتشارها إلا بمشيئة الله وقدرته ، وبذلك يتحرر قلب الداعية من التعلق بالأسباب ، وفي الوقت ذاته يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها . (وضع خطة سنوية / شهرية / أسبوعية لرحلة ..) .

٣- عدم سؤال الناس شيئًا من متاع الدنيا : ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا** ﴾[6] ،

---

(1) التوكل ، للقرني : ص ١٢٣ وما بعدها .
(2) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب الجذام ، برقم : ٥٧٠٧ .
(3) صحيح مسلم ، كتاب السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة .. ، برقم : ٢٢٢١ .
(4) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون ، رقم : ٥٧٢٨ ، ومسلم ، كتاب السلام ، باب الطاعون برقم : ٢٢١٩ .
(5) تيسير العزيز الحميد : ص (٤٢٥ - ٤٢٦) .
(6) سورة الأنعام [٩٠] .

والاستغناء عنهم بالله - عزَّ وجلَّ - كما بايع رسول الله ﷺ بعض أصحابه على ذلك فكان أحدهم يسقط سوطه فما يسأل أحدًا أن يُناوله إياه[1] . (التوكل مع إسقاط الطلب) . راجع المبحث (١٠ - ٣) .

٤- إلقاء كلمة أو درس حول موقف الأنبياء من تهديد قومهم لهم ، وثباتهم على دعوته ، وتوكلهم على خالقهم ، وكيف جعل الله العافية لهم (مثل : نوح ، هود ، شعيب ، ... وسيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) ، مع الإشارة إلى أن طغاة اليوم مهما كادوا للدعوة فهم المكيدون الخاسرون .

٥- الحذر من بعض الألفاظ ، التي قد يكون فيها شرك خفي ، مثل : لولا فلان لــ .. ، ولولا أنا لــ .. ، وسأعتمد عليك في ...

٦- المضي في ركب الدعوة مهما صدر من أعداء الدعوة من تهديدات ، مع محاولة وضع السبل التي من شأنها تخليص الدعوة من بأسهم وأذاهم .

٧- حفظ سورة إبراهيم (أو أي سورة فيها بعض معاني التوكل) ، مع الوقوف على ما فيها من دروس في التوكل وحفظ الله للمتوكلين .

سادسًا : مراجع البحث :

١- لسان العرب .

٢- معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس .

٣- مختار الصحاح ، للرازي ، دار الفكر .

٤- جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ .

٥- الإحياء ، للغزالي .

٦- تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ ، المكتب الإسلامي ، ط٦ .

٧- التوكل على الله ، حقيقته ومنزلته وفضله .. ، للدكتور سالم القرني ، دار المجتمع ، ط١ .

٨- الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، دار إحياء التراث العربي .

٩- شرح صحيح مسلم ، للنووي ، مكتبة المثنى .

١٠- مدارج السالكين ، لابن القيم ، دار الجيل .

---

(1) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب كراهة المسألة للناس ، برقم : ١٠٤٣ .

١١- الرسالة القشيرية ، لعبد الكريم القشيري ، دار الجيل ، ط٢ .
١٢- الموسوعة الفقهية ، وزارة الأوقاف والشؤون الاجتماعية الكويتية ، ط٢ .
١٣- مختصر تفسير ابن كثير ، للصابوني ، دار القرآن الكريم .
١٤- الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية .
١٥- في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، دار الشروق ، ط٦ .
١٦- التوكل ، للدكتور يوسف القرضاوي ، دار الفرقان ، ط١ .
١٧- كنز العمال ، للهندي ، مؤسسة الرسالة .
١٨- فتح الباري ، لابن حجر ، دار المعرفة .
١٩- صحيح الإمام مسلم ، للإمام مسلم ، دار الحديث .
٢٠- ممرات الحق ، رائد عبد الهادي .
٢١- بدائع الفوائد ، لابن القيم ، دار الكتاب العربي .
٢٢- الأذكار ، للنووي ، دار الوراق ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط .
٢٣- تفسير المراغي ، المكتبة التجارية .
٢٤- مختصر كتاب تلبيس إبليس ، اختصره علي الشربجي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ .
٢٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للسعدي ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ .
٢٦- صحيح شعب الإيمان ، خالد العك ، المكتب الإسلامي ، ط١ .
٢٧- الذريعة إلى مكارم الشريعة ، الأصفهاني ، دار الكتب العلمية .
٢٨- زاد المعاد ، لابن القيم ، مؤسسة الرسالة ، ت : الأرناؤوط ، ط١٤ .
٢٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الفكر .
٣٠- الإيمان والحياة ، للقرضاوي ، مؤسسة الرسالة ، ط١٨ .
٣١- مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي ، لأحمد قبش ، دار الرشد ، ط٢ .
٣٢- الاعتدال في التدين ، فكرًا وسلوكًا ومنهجًا ، للدكتور محمد الزحيلي ، اليمامة ، ط٣ .
٣٣- التوكل حقيقته وفضله ولزومه للدعاة العاملين ، خالد بن محمد ، دار المروة .

٣٤- الروح ، لابن القيم ، دار الكتب العلمية .
٣٥- إسلامنا ، لسيد سابق ، دار الكتب العربي .
٣٦- الدّرة الفاخرة في التعليق على منظومة السير إلى الله والدار الآخرة ، الشيخ السعدي ، دار ابن عفان ، ط١ .
٣٧- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، لأبي حاتم محمد بن حبان البستي ، مكتبة نزار الباز ، ط١ .
٣٨- مختصر منهاج القاصدين ، الإمام أحمد المقدسي ، المكتب الإسلامي ، ط٥ .
٣٩- التوكل على الله وأثره في حياة المسلم ، عبد الله الجارالله ، ط١ .

ثبات

الثبات

أولاً : دلالة المصطلح :

أ ـ لغة :

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ : ((والثاء والباء والتاء كلمة واحدة ، وهي دَوامُ الشيء يُقال : ثَبَتَ ثباتًا وثبوتًا)) (١) ، قال ابن منظور : ((ورجل ثَبْتٌ أيْ ثابت القلب . قال العَجَّاجُ يمدَحُ عمرَ بنَ عبد الله بن معمر :

بكل أخلاق الرِّجالِ قد مَهَرْ ثَبْتٌ إذا ما صِيحَ بالقوم وَقَرْ

وقولٌ ثابِتٌ : صحيح ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ **يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** ﴾(٢)، وكُلُّهُ من الثبات)) (٣) .

قال الشرباصي : فمادة ((الثبات)) تدل على الاستقرار والرسوخ ، وعلى ضد التزلزل والاضطراب)) (٤) .

ب ـ اصطلاحـًا :

الثبات في الدعوة : هو أن يظل الداعية مجاهدًا في سبيل غايته ، مضحيًا في نشر دعوته ، ملتزمًا بمبادئه ، مستقيمًا على منهجه حتى يلقى ربه : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾(٥) .

وقال الخازندار : ((نعني بالثبات الاستمرار في طريق الهداية ، والالتزام بمقتضيات هذا الطريق ، والمداومة على الخير ، والسعي الدائم للاستزاده(٦) .

وقال الدكتور محمد موسى معرِّفًا الثبات : ((الاستقامة على الهدى ، والتمسك بالتقى ، وإلجام النفس وقسرها على سلوك طريق الحق والخير ، وعدم الالتفاف إلى صوارف الهوى والشيطان ، ونوازع النفس والطغيان ، مع سرعة الأوبة والتوبة

(١) معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس : ج١ ، ص ٣٩٩ .
(٢) سورة إبراهيم [٢٧] .
(٣) لسان العرب ، لابن منظور : ج١ ، ص (٤٦٧ ـ ٤٦٨) ، مختصرًا .
(٤) موسوعة أخلاق القرآن ، للشرباصي : ج١ ، ص ٩٦ .
(٥) سورة الأحزاب [٢٣] .
(٦) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين ، للخزندار : ص ٣٠٩ .

حال ملابسة الإثم أو الركون إلى الدنيا)) [1] .

ج - الألفاظ المقاربة للمصطلح :

أ – **الاستقامة** : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾ [2] .

انظر الاستقامة في الجزء الأول من الرائد .

ب – **الصبر** : وهو من مقتضيات الثبات .. فلا ثبات لمنْ لا صبر لـه ، وسنفرده ببحث مستقل - إن شاء الله .

ثانيًا : الأهداف :

١- التأكيد على مفهوم الثبات الذي يجمع بين الالتزام بالحق مع السعي الدائم للارتقاء والاستزادة من الخير .
٢- التحذير من عاقبة النكوص والتذبذب ، وخطر التراجع والتقهقر ، وبيان أسبابها لتجنبها .
٣- تنمية الاعتزاز بطريق الدعوة وتقوية الثقة بها ، مع غرس خُلُق الصبر والاحتساب على معاناتها ومشاقها .
٤- بيان بواعث الثبات والعوامل التي تعينُ عليه .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- مفهوم الثبات .
٢- أهميته وضرورة التذكير به ، وحاجتنا إليه .
٣- من ثمرات الثبات .
٤- مما يعين على الثبات .
٥- عوائق في طريق الثابتين .
٦- من صور الثبات .
٧- من أخبار الثابتين .
٨- عاقبة التخاذل والتحذير من النكوص والتذبذب .
٩- من أخبار الزائغين وعبر الناكصين .

---

(١) الثبات ، لمحمد موسى : ص ١٩ .
(٢) سورة فصلت [٣٠] .

١٠-مسائل في الثبات .

رابعًا : العرض :

١- مفهوم الثبات (انظر دلالة المصطلح) .

٢- أهمية الثبات ، وضرورة التذكير به ، وحاجتنا إليه :

٢ - ١ : ((إن طريق العبادة والطاعة والدعوة شاقة ومحفوفة بالمحن والابتلاءات وطويلة لا تنتهي إلا بنهاية الحياة ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾[1] ؛ لذلك لابد من الثبات على الطريق والاستمرار فيها مهما طالت ، ومقاومة المعوقات وتخطي العقبات مهما كثرت)) [*] .

٢ - ٢ : إن العبرة عند الله بالخواتيم ، فلا يكفي أن يستقيم الإنسان فترة من الزمن ثم ينكص على عقبيه ؛ لذلك جاء التوجيه الرباني للمؤمنين بالثبات على الإسلام حتى الممات ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[2] ، وفي الحديث الذي رواه ابن مسعود ﷺ مرفوعًا : ((**.. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبقُ عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ..**)) [4] .

٢ - ٣ : تذبذب بعض دعاة الإسلام أو تراجعهم عن طريق الدعوة للإسلام بعد أن كان بعضهم في يوم من الأيام شعلةً تتوقد حماسًا للالتزام بالإسلام والدعوة إليه ، وفجأة انطفأت تلك الشمعة واختفت تلك الجذوة ؛ وهو ما ينبيك عن سرِّ تكرار ذلك الدعاء النبوي الذي لهج به قلب رسولنا ﷺ وهو : ((**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك**)) [5] .

---

(1) سورة الحجر [٩٩] .
(*) (١ – ٢ ، ٣ ، ٤) من كتاب منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ ، عبد الرحمن هوساوي ، ص (١٢ – ١٥).
(3) سورة آل عمران [١٠٢] .
(4) رواه البخاري ، كتاب القدر ، باب ١ ، برقم : ٦٥٩٤ ، ورواه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه .. ، برقم : ٢٦٤٣ .
(5) رواه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ٩٠ ، وهو في صحيح الترمذي ، للألباني : ج٣ ، ص ١٧١ .

٢ - ٤ : أحاديث رسول الله ﷺ التي تبين خفة القلب وسرعة تحوّله وتقلّبه حتى شبهه بالريشة في خفته . فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**إنما سُمِّيَ القلب من تقلبه ، إنما مَثَلُ القلب مَثَلُ ريشة بالفلاة ، تعلّقت في أصل شجرة ، يقلبها الريحُ ظهرًا لبطن**))(١).

وحديث آخر يجعل القلب يرتجف ويسأل الله الثبات وحسنَ الختام ، وهو ما رواه أحمد عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : لا أقول في رجل خيرًا ولا شرًّا حتى أنظر ما يختم له ، بعد شيء سمعته من النبي ﷺ يقول : ((**لقلبُ ابن آدم أشد انقلابًا من القدر إذا استجمعت غليانها**)) (٢) ، ولما كان القلب بهذه الخفة ، وبهذه التقلبات ، فقد كان رسول الله ﷺ - وهو أعلم الناس بربه وأتقى الناس له وأثبت الناس على دينه - يسأل ربه أن يثبته ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله يكثر أن يقول : ((**اللهم ثبت قلبي على دينك**)) ، فقال رجل : يا رسول الله أتخاف علينا ؟! وقد آمنا بك وصدقناك بما جئت به ، فقال : ((**إن القلوب بين إصْبَعَيْن من أصابع الرحمن – عزَّ وجلَّ – يقلبها**)) (٣) .

وروى الترمذي عن شهر بن حوشب قال : ((قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثرُ دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه : ((**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**)) ، قال :((**يا أم سلمة ، إنه ليس آدمي إلا وقلبُهُ بين إصْبَعَيْن من أصابع الله ، فمن شاء أقام ، ومن شاء أزاغ**)) ؛ فتلا معاذ : ﴿ **رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** ﴾ (٤)))(٥).

---

(١) رواه أحمد برقم : ١٩٦٨١ : ج٤ ، ص٤٠٨ ، والطبراني ، قال العراقي : إسناده حسن(فيض القدير : ج٣ ، ص٢) ، وهو في صحيح الجامع الصغير للألباني برقم : ٢٣٦٥ ، وللتوسع في شرح الحديث انظر فيض القدير للمناوي : ج٣ ، ص٢ ، ومرقاة المصابيح : ج١ ، ص ٣٠٤ .

(٢) رواه أحمد ، برقم : ٢٣٨٦٧ : ج٦ ، ص٢ ، والحاكم في مستدركه : ج٢ ، ص ٢٨٩ ، وذكره السيوطي في الجامع ورمز له بالصحة (انظر فيض القدير للمناوي : ج٥ ، ص ٢٨١) ، وهو في صحيح الجامع ، للألباني ، ج٢ ، ص ٩١٥ ، برقم : ٥١٤٨ .

(٣) رواه ابن ماجة في الدعاء ، باب دعاء رسول الله ﷺ ، برقم : ٣٨٣٤ ، وهو في صحيح سنن ابن ماجة ، للألباني : ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، برقم : ٣٠٩٢ .

(٤) سورة آل عمران [٨] .

(٥) رواه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ٩ ، وقال : حديث حسن : ج٥ ، ص ٥٣٨ ، وصحّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي : ج٢ ، ص ١٧١ .

٢ – ٥ : كثرة الفتن ، وشدة التضييق والمحن - في عصرنا هذا - تدعو إلى ضرورة التواصي بين المؤمنين بالثبات على الحق الذي التزموه ، والتمسك بالمنهج الذي ساروا عليه مهما عظمت التبعات وكثرت التضحيات ؛ ولهذا كانت من وصية رسول الله ﷺ لأتباعه وجنوده عند اشتداد الفتن : ((**يا عباد الله اثبتوا**)) [١] ، وعباد الله المفلحين هم الذين ﴿ **آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾[٢] .

٣- من ثمرات الثبات :

الثبات شجرة راسخة الجذور وفرعها في السماء شامخ ، تؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها . نقتطف - إليك أخي الحبيب - بعض ثمارها اليانعة ؛ لكي تكون لك زادًا في طريق دعوتك :

٣ - ١ : النصر على الأعداء :

قال الله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾[٤] . قال سيد - رحمه الله - : ((إن سؤالهم : ﴿ **مَتَى نَصْرُ اللهِ** ﴾ ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة ، ولن تكون إلا محنة فوق الوصف ، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب ؛ فتبعث منها ذلك السؤال المكروب : ﴿ **مَتَى نَصْرُ اللهِ** ﴾ .

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة .. عندئذ تتم كلمةُ الله ، ويجيء النصر من الله : ﴿ **أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾ .

إنه مدخر لمن يستحقونه ، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون إلى النهاية ، الذين يثبتون على البأساء والضراء ، الذين يصمدون للزلزلة ، الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة ، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله ، وعندما يشاء الله)) [٥] .

٣ - ٢ : دخول الجنــة :

---

(١) منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ ، لعبد الرحمن هوساوي ، ص١٢ - ١٥ ، مع تصرف يسير في الفقرة ٣ .

(٢) رواه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب فتنة الرجال .. ، برقم : ٤٠٧٥ ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة : ج٢ ، ص ٣٨٥ .

(٣) سورة العصر [٢] .

(٤) سورة البقرة [٢١٤] .

(٥) الظلال ، لسيد قطب : ج١ ، ص ٢١٩ .

ويالها من ثمرة شمّر لها المشمرون ، وسعى إليها العاملون ، وهي مدخرة لأصحاب الثبات ، الذين ثبتوا على عقيدتهم ودعوتهم لم تزعزعهم شدة ، ولم تغرّهم شهوة ، ولم يهنوا لمحنة أو لفتنة .. مضوا على الدرب مجاهدين ، وعلى عقباته ومصاعبه صابرين ؛ باعوا أنفسهم لله - عزَّ وجلَّ - ففازوا بوعد الله لهم : ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(١) .

فالثبات شرط لابد من التحقق منه قبل دخول الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾(٢) . قال القرطبي - رحمه الله - : « والمعنى : أحسبتم يا من انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قُتلوا وصبروا على أَلَمِ الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم ؟ .. لا ؛ حتى ﴿ **وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ** ﴾ ، أي علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء » (٣) .

٣ - ٣ : بلوغ الأماني :

الثبات من أكبر أسباب نجاح المرء في مهمته ، وبلوغه غايته ؛ فمع العمل الجاد ، والصبر والمثابرة ، يصل المرء إلى ما يصبوا إليه من الأهداف والغايات ، ويرتقي إلى ما يطمح إليه من الدرجات والأمنيات ، وإلا فهي أوهام الكسالى وبضاعة الحمقى ..

لا تحسبن المجدَ تمرًا أنت آكلهُ　　　لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

٣ - ٤ : كسب ثقة الناس :

« يثق الناس في الثابت الراسخ ، ويعظم أثره فيهم ؛ حيث إنه يُشيع فيهم الطمأنينة إلى حاله والركون إليه ، بينما القَلِق المتقلب قلّما يُركَن إليه ويُوثق به ، وهو

---

(١) سورة التوبة [١١١] .
(٢) سورة آل عمران [١٤٢] .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج٤ ، ص٢٢٠ .

عامل خوف واضطراب فيمن حوله » [١] .

٤- مما يُعينُ على الثبات :

الثبات على الحق مطلب كل مؤمن ، وهمُّ كل داعية ، لا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الابتلاءات والفتن ، وتنوعت وسائل الإضلال والمحن حتى أصبح « القابض على دينه كالقابض على الجمر ؛ لهذا لابد من بذل أسباب الثبات ، وفعل ما يقوّيه في القلوب ، ويرسخه في النفوس ، ولعلنا نذكر بعض ما يعين على ذلك :

٤ - ١ : ثقة الداعية بدعوته :

ثقة الداعية فيما يدعو إليه ، وإيمانه بصدق دعوته ، وسموّ عقيدته ، وأصالة مبادئه من أكبر العوامل التي تزيده ثباتًا على دعوته مهما أعرض عنها الغافلون ، أو افترى عليها الأفاكون ؛ فلا يزيده ذلك إلا رسوخًا وشموخًا ، فلا ييأس لقلة المستجيبين له ، فله أسوة حسنة في بعض أنبياء الله الذين أخبرنا الله عنهم في كتابه ، ومنهم نوح - عليه السلام - الذي قال الله في شأنه : ﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾[٢] .

فحصيلةُ دعوة نوح وجهادهِ بالليل والنهار لألف سنة إلا خمسين عامًا كانت اثني عشر مؤمنًا كما تذكر بعض الروايات .. بل هناك من الأنبياء - وهم دعاة الله الأصفياء - مَنْ لم يستجب لهم أحد ، ومع هذا ظلوا على منهجهم ودعوتهم ثابتين . قال رسول الله ﷺ :

« **عرضت عليَّ الأمم ، فجعل يمر النبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي معه الرهط ، والنبي ليس معه أحد** » [٣] .

٤ - ٢ : الارتباط بالقرآن الكريم :

الارتباط بكتاب الله تلاوة وحفظًا ، تدبرًا وعملاً ، من أعظم أسباب الثبات ؛ فهذا غراس الإيمان ، يثبت الله به الأقدام ، ويربط على القلوب ويذهب به رجز الشيطان : ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾[٤] ، يثبت قلوب المؤمنين بالحق الذي جاء فيه ، وبالهدى الذي يهديهم إليه ، وبالبشائر التي يبشرهم بها .

- يرى فيه المؤمن ثبات الأنبياء ورسوخ الأصفياء على مبادئهم ودعوتهم ، وإن

(١) الثبات ، لمحمد موسى : ص ٢٦ .
(٢) سورة هود [٤٠] .
(٣) رواه البخاري ، كتاب الطب ، باب من لم يرق ، برقم : ٥٧٥٢ ، وللتوسع في هذا الجانب راجع الدعوة قواعد وأصول ، لجمعة أمين عبد العزيز : ص ٦٧ .
(٤) سورة النحل [١٠٢] .

تعرضوا للإساءة والأذى .. ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) ؛ فيزداد ثباتًا .

• ويقرأ المؤمن فيه وصية الله له كلما أصابه قرح : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢) ؛ فيزداد شموخًا .

• ويسمع المؤمن في آياته أخبار إخوانه ممن سبقوه في طريق الدعوة ، وكيف ثبتوا وصبروا : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾(٣) ؛ فيزداد رسوخًا .

٤ ـ ٣ : الدعـاء :

التثبيت نعمة إلهية ، ومنحة ربانية ، يربط الله بها على قلوب أحبابه ، ويرسخ بها أقدام أوليائه ؛ وقد امتن الله على رسوله ﷺ بنعمة التثبيت فقال : ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾(٤) ؛ ولهذا لهج الأنبياء والصالحون ، وعباد الله المتقون ، بسؤال الله تثبيتهم ، لا سيما أيام الفتن والكروب .

• فهؤلاء الرِّبيُّون يدعون الله ربهم فيقولون : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٥) .

• والقلة المؤمنة الصابرة من جنود طالوت يقولون متضرعين : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٦) .

• وهذا سيّد البشر نبينا محمد ﷺ كان يكثر من قول : « **اللهم ثبت قلبي على دينك** »(٧)، وربما جهر بدعائه بالثبات له ولأصحابه فقال ﷺ في غزوة الأحزاب وهو ينقل التراب مع أصحابه : « **لولا أنت ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزل السكينة علينا ، وثبت الأقدام إن لاقينا ، إن الأُلى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا** » (٨) .

---

(١) سورة هود [١٢٠] .
(٢) سورة آل عمران [١٣٩] .
(٣) سورة آل عمران [١٤٦] .
(٤) سورة الإسراء [٧٤] .
(٥) سورة آل عمران [١٤٧] .
(٦) سورة البقرة [٢٥٠] .
(٧) سبق تخريجه في مادة هذا البحث .
(٨) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب حفر الخندق ، برقم : ٢٨٣٧ ، من حديث البراء .

٤ - ٤ : الارتباط بالصحبة الصالحة :

إن معايشة الأخيار وصحبة الأبرار من أكبر الأسباب المعينة على الثبات لما فيها من التعاون على الخير ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وشغل الوقت بما يقرّب الإنسان إلى ربه ويعينه على نفسه ؛ ولهذا أمر اللهُ رسوله ﷺ بمعايشتهم وصحبتهم مع الصبر عليهم فيما قد يبدو منهم من تقصير في حقه أو أذىً لشخصه فقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ** ﴾(١)، وقال ﷺ : ((**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**)) (٢) .

وإذا كانت صحبة الصالحين من أسباب الثبات ، فإن صحبة الطالحين من أكبر أسباب النكوص والفتور ؛ ولهذا حذّرنا الحق - عزَّ وجلَّ - من هذا المنزلق في كتابه فقال : ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً** ﴾(٣)، وكم كانت غواية بعض الدعاة بسبب صداقات قديمة في جاهليتهم أحيوها في فترة فتور ؛ فكانت سببًا في فتنتهم وانحرافهم(٤) والعياذ بالله .

٤ - ٥ : قراءة سير السلف الصالح :

لقد قصَّ الله على نبيه ﷺ سِيَر إخوانه من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فذكر له صبرهم وثباتهم ، وقال له : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾(٥). وقال تعالى :
﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾(٦) .

فالوقوف على سير الصالحين ، ومعرفة ما كانوا عليه من إيمان وعزيمة ويقين مما يبعث الثبات في القلب ؛ ولهذا عندما قَسَم النبي ﷺ قَسْمًا ، فقال رجل : إن هذه لقسمةٌ ما أريد بها وجه الله .. قال النبي ﷺ عندما علم بذلك : ((**يرحمُ اللهُ موسى ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**)) (٧) ؛ فاستشهد النبي ﷺ بسيرة نبي قبله ليعين نفسه على

(١) سورة الكهف [٢٨] .
(٢) أبو داود ، ٤٨٣٣ ، والترمذي ، ٢٣٧٩ ، وأحمد : ج٢ ، ص ٣٠٣ ، والحاكم : ج٤ ، ص ١٧١ ، وهو حديث حسن ، وقد سبق تخريجه في مبحث الأخوة .
(٣) سورة الفرقان [٢٧ - ٢٩] .
(٤) راجع للتوسع تفسير ابن كثير : ج٦ ، ص ١١٦ ، والمتساقطون لفتحي يكن ، الثبات ، للدكتور محمد موسى : ص ٧٩ - ٨٤ .
(٥) سورة الأنعام [٩٠] .
(٦) سورة هود [١٢٠] .
(٧) رواه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ٢٨ ، برقم : ٣٤٠٥ .

الثبات والصبر .

ولقد كان النبي ﷺ يقص على أصحابه سير السابقين ، ويخبرهم عن صبرهم وثباتهم ، وتمسكهم بدين الله على الرغم من شدة الابتلاء ليتأسوا بهم . قال خباب رضي الله عنه : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - : « **قد كان من قبلكم يؤخذُ الرجل فيُحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيُجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ، من دون لحمه وعظمه ؛ فما يصدُّه ذلك عن دينه** » [1] .

أمثلة على تلك السير المشرفة :

- ثبات عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه [2].
- ثبات بلال رضي الله عنه .
- ثبات أحمد ابن حنبل - رحمه الله - يوم الفتنة .
- ثبات شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في القلعة .
- ثبات سعيد بن جبير - رحمه الله - أمام الحَجَّاج .

وفي العصر الحالي يمكن الاستشهاد بثبات المجاهدين في مسرى رسول الله ﷺ ، وقد صدرت بعض كتب التراجم لهؤلاء المجاهدين الذين قضوا نحبهم في الذب عن الأقصى ، نسأل الله أن يكتبهم في الشهداء .

٤ - ٦ : التربية الراسخة الشاملة [3] :

لقد قرَّرت غزوة حنين بوضوح وجلاء أثر التربية في ثبات القلوب يوم الشدائد والمحن؛ « فقد كان المسلمون في حنين أكثر عددًا منهم في أي موقعة أُخرى خاضوها من قبل ، ومع ذلك فلم تنفعهم الكثرة شيئًا ؛ بسبب تلك الجماهير التي لم يتمكن الإيمان بعد في نفوسها ، ولم يتغلغل معنى الإسلام بعد في أعماق أفئدتها . لقد انضمت تلك الجماهير إلى الجيش بجسومهم وأشكالهم ، بينما لا تزال الدنيا وأهواؤها تتخطف أفئدتهم وتستولي على نفوسهم ، وهيهات أن يكون لتعداد الجسوم والأشكال أي أثر في النصر والتوفيق ؛ فمن أجل ذلك أدبرت هذه الجماهير ، وارتدت على

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوانَ على الكفر ، برقم : ٦٩٤٣ .
(2) انظر قصته في سير أعلام النبلاء : ج٢ ، ص١٤ ، وابن الجوزي في الثبات عند الممات ، ٥٣ ، الإصابة لابن حجر : ج٢ ، ص٢٨٨ .
(3) انظر للتوسع: وسائل الثبات على دين الله ، لمحمد المنجد ، ص (١٩ - ٢١) ، والثبات ، لمحمد موسى : ص (٨٤ - ٨٩) .

أعقابها متفرقةً في متاهات وادي حنين)) [١] .

أما أهل التربية الذين تربوا بين يدي رسول الله ﷺ فما أن سمعوا نداء رسول الله ﷺ يناديهم على لسان العباس ﷺ : ((يا أصحاب السمرة)) حتى كرّوا عائدين ، وأسرعوا حول رسول الله ﷺ ملتفين مدافعين في معركة حامية الوطيس ، ولم يكن هؤلاء يزيدون على المائتين !

وكون التربية عميقة يعني أنها قد تغلغلت في النفس ؛ فتمكنت منها ، وأثَّرت فيها ، وأما كونها شاملة فلأنَّها قد استوعبت حاجات النفس كلِّها .

• تربية إيمانية لبَّت حاجات الروح بزاد إيماني يحيي القلب ويوقظه ، ويغرس فيه حب الله وخشيته ودوام مراقبته ؛ فكان ذلك الزاد حصنًا يُستجنُّ به من زيغ الشهوات .

• تربية ثقافية أعطت العقل حقه من العلم الشرعي ، الذي يبدد غبش الشبهات ، ويفرّق به صاحبه بين الحق والباطل ، ويكشف له زيف البدع والضلالات ؛ فيسير في دعوته على بصيرة [٢]، ثابتًا ، لا تجرفه شهوة ، ولا تزيغه شبهة .

• تربية دعوية تدعو صاحبها للعمل على نشر الخير بين الناس ، وإصلاح ما أفسده إبليس وجنوده بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتحارب الدعة والقعود والتكاسل والركود : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا** ... ﴾[٣]، وتُربي صاحبَها على اتخاذ الأسباب من إعداد عدة ، وتخطيط وتنظيم ، ومعرفة بالواقع ومخططات الأعداء .. مع التوكل على الله تعالى ((**اعقلها وتوكل**))، وتربيه أيضًا على الصبر على عقبات الطريق ، والاحتساب على ما يلقاه في سبيل دعوته من المشقة والتضييق ، ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ** ﴾[٤]، وفي الجملة : تربية تثمر لنا شخصيةً إسلاميةً متكاملة .. وكلما كان نصيب الداعية من هذه التربية موفورًا ، كان عطاؤه وثباته كبيرًا.

٤ ـ ٧ : تذكر وعود النصر والتمكين :

---

(١) فقه السيرة ، للدكتور البوطي : ص ٣٩١ .
(٢) انظر للتوسع : مقوّمات الثبات على الهداية ، للشيخ محمد الدحيم : ص (٢٧ - ٣١) ، أقسام البصيرة وأهميتها ، وراجع أيضًا مدارج السالكين: ج١ ، ص ١٢٧ ، والجواب الكافي ، لابن القيم : ص (٨٢ – ٨٣)
(٣) سورة التوبة [١٠٥] .
(٤) سورة لقمان [١٧] .

إن مما يعزز الثبات في القلوب ، تذكر البشائر التي وعدها الحق - عزَّ وجلَّ - لأهل الحق في النصر والتمكين والفتح المبين .. ولهذا عندما شكا بنو إسرائيل إلى موسى ما يلقونه من فرعون من فتنة وبلاءٍ ؛ أخذ - عليه السلام - يُذكِّرهم بعاقبة أهل التقوى ، وتمكين الله لهم في الأرض واستخلافهم فيها ، ويلوّح لهم بالأمل في هلاك عدوهم ، مع وصيته لهم بالصبر والثبات والاستعانة بالله على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ (١) .

قال سيد - رحمه الله - : « إن العاقبة للمتقين .. طال الزمن أم قصر .. فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير ، ولا يخايل لهم تَقلبُ الذين كفروا في البلاد ، فيحسبونهم باقين » (٢) ، وكذلك فعل سيّد الأنبياء - عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام - عندما شكا إليه أصحابه ما يلقونه من بلاء على أيدي صناديد قريش ، فأخذ - عليه الصلاة والسلام - يبشرهم بالنصر والتمكين فقال : « **والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت لا يخافُ إلا اللهَ والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون** » (٣) ، ويقول - عليه الصلاة والسلام - مبشرًا بانتصار الإسلام وانتشاره في الأرض : « **ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليلُ والنهار ، ولا يترك الله بيتَ مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزًّا يعز الله به الإسلام ، وذلاًّ يذل الله به الكفر** » (٤) ، وهذه البشارة في كتاب الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾(٥) .

قال الشيخ الألباني : « وقد يظن بعض الناس أن ذلك تحقق في عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين ، وليس كذلك ؛ فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا

(١) سورة الأعراف [١٢٧ - ١٢٩] .
(٢) الظلال : ج٣ ، ص١٣٥٥ .
(٣) رواه البخاري ، وهو من حديث خباب الذي سبق تخريجه في هذا المبحث .
(٤) رواه أحمد : ج٤ ، ص١٠٣ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة : ج١ ، ص٧ .
(٥) سورة الصف [٩] .

الوعد الصادق)) (١) ، ثم ساق بعض الأحاديث (٢) ، التي تبشر بأن المستقبل لهذا الدين ، والتي هي حجة على اليائسين المتواكلين .

٤ ـ ٨ : تذكر أجر الثابتين ، وعاقبة الصابرين :

لقد أشاد الله - عزَّ وجلَّ - في كتابه بالثابتين ، الذين لا يضطربون ولا يتزلزلون ، وعن مبادئهم لا يتنازلون ، وبدينهم يتمسكون مهما أجلب الناس حولهم ، قال الله تعالى :

﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾(٣) .

ويعظم أجر الثابتين مع عِظَم البلاء والفتنة ؛ فكلما كان البلاء أشد والفتنة أكبر كان الأجر أعظم ، قال رسول الله ﷺ : ((**إن من ورائكم أيام الصبر ، للمتمسك فيهن يومئذٍ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم**)) ، **قالوا : يا نبي الله ، أَوَمِنْهم ؟ قال** : ((**بل منكم**)) (٤) .

والداعية الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ويثبت على دعوته إياهم على الرغم من تنكرهم له وإعراضهم عنه خير من مؤمن قد اعتزل الناس ولم يصبر على أذاهم . قال ﷺ : ((**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**)) (٥) .

٤ ـ ٩ : فعل الخيرات والاشتغال بالصالحات :

النفس إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالباطل ؛ ولهذا كان من أسباب الثبات دوام فعل الخيرات ، وشغل النفس بالصالحات ؛ حتى لا تألف الدعة والركود والتثاقل والجمود ، وهي خطوات تقود إلى النكوص والسقوط .

---

(١) السلسلة الصحيحة للألباني : ج١ ، ص٦ .
(٢) انظرها للتوسع في موضوع البشائر في المرجع السابق : ج١ ، ص (٦ ـ ١٠) .
(٣) سورة آل عمران [١٧٣ ـ ١٧٤] .
(٤) قال القاري في المرقاة : ج٨ ، ص ٨٨٣ : رواه الترمذي وابن جرير ، والبغوي في معجمه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والحاكم والبيهقي في الشعب . . وهو في السلسلة الصحيحة للألباني ، حديث رقم : ٤٩٤ ، ٩٥٧ .
(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد ، ٣٨٨ ، والترمذي ، ٢٥٠٧ ، وابن ماجة ، ٤٠٣٢ ، واللفظ له ، وغيرهم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ، ٦٦٥١ ، وانظر للتوسع شرح الحديث في مرقاة المفاتيح ، رقم : الحديث ٥٠٨٧ : ج٨ ، ص (٨١٤ ـ ٨١٥) .

ومن أفضل ما ينبغي شغل النفس به :

• طاعة الله والتزام شرعه [1] ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾[2] .

قال القرطبي - رحمه الله - : « أي على الحق » [3] ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يداوم على أعماله الصالحة من ذكر وقيام ليل ونحوها .. ولقد جاء في صحيح مسلم : باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ، ثم أورد فيه عدة أحاديث تدل على حرص النبي ﷺ وأصحابه على فعل الخيرات وإثباتها . قالت عائشة - رضي الله عنها - : قال رسول الله ﷺ : « **وإن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دُووِمَ عليه وإن قلَّ** » ، وكان آلُ محمد ﷺ إذا عملوا عَمَلاً أثبتوه[4].

قال النووي - رحمه الله - : « وفيه الحث على المداومة على العمل وإن قليله الدائم خير من كثير ينقطع ، وإنما كان القليل الدائم خيرًا من الكثير المنقطع ؛ لأنَّ بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق - عزَّ وجلَّ - ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة » .

• وكذلك مما ينبغي شغل النفس به الدعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ - « فهي وظيفة الرسل ؛ فيها تتفجر الطاقات ، وتنجز المهمات ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ..﴾[5]؛ والدعوة إلى المنهج الصحيح ببذل الوقت ، وكدِّ الفكر ، وسعي الجسد ، وانطلاق اللسان ، بحيث تصبح الدعوة همّ المسلم وشغله الشاغل ، يقطع الطريق على محاولات الشيطان بالإضلال والفتنة . زد على ذلك ما يحدث في نفس الداعية من الشعور بالتحدي تجاه العوائق والمعاندين وأهل الباطل ، وهو يسير في مشواره الدّعوي ؛ فيرتقي إيمانه ، وتقوى أركانه ؛ فتكون الدعوة بالإضافة لما فيها من الأجر العظيم وسيلة من وسائل الثبات ، والحماية من التراجع والتقهقر ؛ لأن الذي يُهاجم لا يحتاج للدّفاع ، والله مع الدعاة يثبتهم ويسدد خطاهم ؛ والداعية كالطبيب يحارب المرض بخبرته وعلمه ، وبمحاربته في الآخرين فهو أبعد من غيره عن الوقوع فيه » [6] .

---

(1) انظر وسائل الثبات على دين الله ، لمحمد المنجد : ص ١١ .
(2) سورة النساء [٦٦] .
(3) الجامع لإحكام القرآن ، للقرطبي : ج٥ ، ص ٢٧٠ .
(4) رواه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ، حديث رقم : ٧٨٢ .
(5) سورة الشورى [١٥] .
(6) وسائل الثبات على دين الله ، لمحمد المنجد : ص ٢٣ - ٢٤ ، وانظر أيضًا المتساقطون « توظيف الأفراد في العمل » ص (٦٣ - ٦٥) .

٤ - ١٠ : تذكر نعمة الهداية وشقاء الغواية : [1]

لا يشعر بعظم نعمة الله عليه بالهداية إلا مَنْ اكتوى بنار الغواية ، ولا يقدر منّةَ الله عليه في الإيمان إلا من ذاق ويلات الفسوق والعصيان من ضياع وحيرة واضطراب :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾[2] .. فمن أدرك قدر هذه النعمة عزَّ عليه فراقها ، ومَنْ تذوق حلاوة هذه المنة كره مرارة البعد عنها كما يكره أن يُلقَى في النار ، وتذكرُ نعمة الهداية مما يعزز في القلب الثبات عليها وطلب أسباب بقائها ، ولذلك يُذكِّر اللهُ عزَّ وجلَّ عباده بنعمته هذه فيقول :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[3].

٤ - ١١ أسباب أخرى :

سأذكر لك - أيها السَّمي المبارك - بعض الأسباب التي تعين على الثبات على وجه الاختصار مما ذكره بعض مَنْ كتب في هذا الموضوع :

- **الذكر** : وهو باب واسع يشمل ذكر الله بتلاوة كتابه - وقد سبق ذكرها - أو ذكر الله بما ورد من الأدعية في الصباح والمساء والمناسبات : كدخول المنزل ، والخروج منه ؛ أو ذكر الله بتعلم أحكام شرعه ، والتفقه فيها ؛ والأخيرة حقها أن تفرد بعنصر خاصٍّ بها لأهميتها ، وقد سبق أيضًا أن أشرنا إليها في التربية الراسخة الشاملة .
- تعلم العلم الشرعي .
- التزام السنّة والبعد عن البدعة .
- معرفة حقيقة الباطل وعدم الاغترار به : ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[4] .

---

(1) راجع للتوسع الظلال : ج٢ ص (٨٤٤ - ٨٤٥) ، تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ .
(2) سورة الحجرات [١٧] .
(3) سورة آل عمران [١٠٣] .
(4) سورة الأنعام [٥٥] .

- التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار .
- تذكر الموت والخوف من سوء الخاتمة .
- الصبر .

٥- عوائق في طريق الثابتين :

طريق الثابتين مليء بالمعوقات ، كثير العقبات ؛ ولكنه طريق ينتهي إلى الجنة ، وقد قال ﷺ مخبرًا عن تلك العوائق : ((**حجبت النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمكاره**)) (١) . وفي رواية لمسلم : ((**حفت**)) ، قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرح الحديث : ((قال العلماء هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن ، ومعناه لا يُوصل الجنة إلا بارتكاب المكاره(٢) والنار بالشهوات ، وكذلك هما محجوبتان بهما ؛ فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب ، فهتك حجاب الجنة ، باقتحام المكاره ، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات ؛ فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات ، والمواظبة عليها ، والصبر على مشاقها ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والصدقة ، والإحسان إلى المسيء ، والصبر عن الشهوات .. ونحو ذلك . وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة : كالخمر ، والزنى ، والنظر إلى الأجنبية ، والغيبة ، واستعمال الملاهي ، ونحو ذلك . وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه ، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة ، أو يقسي القلب ، أو يشغل عن الطاعات ، أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها .. ونحو ذلك)) (٣) ؛ ولهذا لابد من التعرّف على بعض المعوّقات ؛ لكي نحذرها ، ونستعدّ لها بالعزيمة الصادقة والإرادة القوية لتجاوزها والنجاة منها .

٥ - ١ : حب الدنيا والإغراق في مباحاتها :

إن التثاقل إلى الأرض بالركون إلى متاعها والإكثار من شهواتها وشغل القلب بهَمّ الدنيا والْعَبِّ من ملذاتها من أكبر أسباب النفور من الطاعة ، والنكوص عن الهدى ، وإيثار العاجلة على الآجلة ؛ ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في التحذير من هذا العائق ومن ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ**

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الرقائق ، باب حُجبت النار بالشهوات ، برقم : ٦٤٨٧ ، ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، برقم : ٢٨٢٢ .
(٢) أي ما تكرهه النفس من الطاعات والأخلاق الحسنة ونحوها .
(٣) شرح صحيح مسلم ، للنووي : ج١٧ : ص (١٦٥ - ١٦٦) .

إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾[1] ، ويقول ﷺ : ((من كانت همّه الآخرة ، جمع الله له شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا راغمة ؛ ومن كان همّه الدنيا ، فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له))[2]..

وقد أشار كعب في ذكر تخلفه عن غزوة تبوك إلى أثر ميله إلى الثمار اليانعة والظلال الوارفة في قعوده وتخلفه فقال : ((وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أُصْعَرُ))[3] ، ومعنى أُصْعَرُ أي أميل . [سيأتي في أخبار الزائغين بعض من طمست الدنيا نورَ قلبه فأزاغته وأردته والعياذ بالله] .

٥ ـ ٢ : حب الانفراد والانعزالية :

المؤمن ضعيف بنفسه ، قوي بإخوانه ؛ ولهذا أدرك ذلك العالم الرباني أثر الاجتماع بالصالحين والعيش في كنفهم في ثبات المرء واستقامته فقال للذي قتل مائة نفس ، وقد سأل : هل له مِنْ توبة ؟ فقال : ((نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ ! انطلق إلى أرضِ كذا وكذا فإن بها أُناسًا يعبدون الله تعالى فاَعبدِ اللهَ معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرضُ سَوْءٍ))[4]؛ وذلك لما لمخالطة الصالحين من أثر في تقوية الإيمان والبعد عن نزغات الشيطان ؛ لأن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، وما أكثرَ الذئاب اليوم ، وما أشد فتكها بعقائد المنفردين وأخلاقهم .

٥ ـ ٣ : كثرة الخلافات والمنازعات :

إن كثرة الخلافات بين الدعاة إلى الله أدَّى إلى تمزقهم ، وتشتت وحدتهم ، وذهاب قوتهم ؛ وهي نتيجة حتمية للتنازع والاختلاف كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[5] ، ولقد كان لهذا الاختلاف والفرقة أثر على بعض الدعاة في قعودهم عن دعوتهم ، واهتمامهم بشؤون أمتهم ، وزيَّن لهم الشيطان جمودهم وأوهمهم بأنَّ ما يرونه من التنازع بين بعض الدعاة حجة لهم ومسوِّغًا لقعودهم عن

(1) سورة التوبة [٣٨] .
(2) رواه ابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ، برقم : ٦٣٩٢ .
(3) رواه البخاري ، كتب المغازي ، باب حديث كعب بن مالك ..، برقم : ٤٤١٨ ، ورواه مسلم ، كتاب التوبة ، باب توبة كعب بن مالك ، برقم : ٢٧٦٩ .
(4) رواه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذُكِرَ عن بني إسرائيل ، برقم : ٣٧٠ ، ورواه مسلم ، كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل ، برقم : ٢٧٦٦ .
(5) سورة الأنفال [٤٦] .

الدعوة ؛ ألا فليعلم كل داعية أنه يجب عليه أن يبلغ دعوة الله - حسب استطاعته - وأن يقوم بدوره في هداية الناس وإصلاحهم ، وأن يسعى في نصح إخوانه الدعاة بضرورة الائتلاف ، ويُبصِّرهم بشر التنازع والفرقة والاختلاف ؛ فإن استجابوا له فقد أدرك غايته ، وإلا فعليه أن يصبر ويصابر ويواصل السعي في رأب الصدع وجمع الكلمة ولا ييأس(١) .

٥ - ٤ : كثرة الشبهات(٢) :

لقد وُظِّفت فئات لبست لبوس أهل العلم ودعاته لإثارة الشبهات بين شباب الدعوة وترويج الاتهامات الكاذبة ، والافتراءات الظالمة ؛ للحطِّ من الدعاة الصادقين ، والعلماء العاملين ؛ وذلك لمحاربة الدعوة الإسلامية نفسيًّا ، والتشكيك في صدق دعاتها ، والحدِّ من امتدادها بين الناس ، ولصرف الشباب المسلم من الالتحاق بالدعوة ومناصرة أتباعها .

ولهذا ينبغي للداعية أن يعرف أساليب هؤلاء المرتزقة ؛ فيكشف زيفهم ، ويعرِّي باطلهم ، ويردَّ بالحجة والبرهان باطلهم ، ويبيِّن لإخوانه وجه دسِّهم وافتراءاتهم ؛ حتى لا تنخدع بها النفوس الضعيفة ، ولا تغتر بزخرفها القلوب المريضة . كما عليه أن يرجع إلى الدعاة الثقات في الردِّ على هذه الشبهات ، لا سيما إذا وقع في نفسه شيء من شوائبها ، وتأثر ببعض أكدارها .

٥ - ٥ : مصاحبة المثبطين والاستماع إلى المتخاذلين :

في المجتمع أُناس لا همَّ لهم إلا تثبيط العاملين ، وتخذيل القائمين بالدعوة إلى الله وإشاعة شعارات التيئيس ، ونشر عبارات القنوط على طريقة (**هلك الناس**) . وفي التحذير من هذه الفئة المتخاذلة المخذِّلة يقول الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا * وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا** ﴾(٣) . قال سيد - رحمه الله - : « ﴿ **وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ** ﴾ بأن هؤلاء المبطئين هم معدودون من المسلمين ﴿**مِنْكُمْ**﴾ يزاولون عملية التبطئة كاملة ، ويصرّون عليها إصرارًا ، ويجتهدون فيها اجتهادًا .. وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات في الجملة ! مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة ، وشدة أثرها في الصف المسلم ، وشدة ما يلقاه منها » ، وقال -رحمه

---

(١) انظر للتوسع ، عقبات في طريق الدعاة ، لعبد الله علوان : ص (٣١١ - ٣١٤) .
(٢) انظر للتوسع ، المتساقطون على طريق الدعوة ، فتحي يكن : ص (١٢٥ - ١٢٦) .
(٣) سورة النساء [٧١ - ٧٢] .

الله - في قوله : ((﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ** ﴾ حذركم لا مِنْ العدو الخارجي وحده ؛ ولكن كذلك من المعوقين المبطئين المخذلين ؛ سواء كانوا يبطئون أنفسهم - أي يقعدون متثاقلين - أو يبطئون غيرهم معهم ؛ وهو الذي يقع عادة من المخذِّلين المثبطين)) (١). ويقول الحق - عزَّ وجلَّ - محذرًا من طائفة المعوِّقين : ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾(٢) . قال القرطبي - رحمه الله - : ((والعوق : المنع والصرف ، يُقال : عاقه يعوقه عوقًا ، وعوّقه وأعاقه بمعنى واحد)) (٣) .

٥ - ٦ : الغلو في الدين أو التفريط فيه :

كلاهما مرضان يؤديان إلى انحراف صاحبهما وانجرافه عن جادة الصواب .. أما الغلو والتنطع والتشدد في الأحكام والعبادات والسلوك فقد قال عنه ﷺ : ((**هَلَكَ المتنطِّعون**)) (٤) ؛ لأنه مخالف للفطرة ، مورِّث للسآمة والملل والتبرم ، دافع إلى كراهية التشريع ، باعث على النفور في الدين والتدين .. وأما نقيضه - أعني التفريط - فأتباعه في عصرنا كثير ، والمنحرفين بسببه جمع غفير ، يبدأ المقصر بالتهاون بأداء السنن والمستحبات ، وعدم المبالاة بالمكروهات ، وعدم التورّع عن حمى الشبهات ، ثم يقوده مرضه للإخلال بالفرائض والواجبات والوقوع بالمحرمات ، فإذا صعب عليه مفارقة الممنوعات قال له شيطانه : ((كيف تعاشر الصالحين وأنت تعمل بأعمال الطالحين ؟ ! فَيُزَيِّن إليه تركهم والبعد عنهم .. أو يقول له : لن تجد لذةً لهذه الشهوات إلا بالبعد عن تلك الصداقات التي لا تأمرك إلا بما تكرهه نفسك .. فيحبب إليه جفاءهم والإعراض عنهم)) (٥) .

٥ - ٧ : الآفات القلبية :

تلك الدسائس الخفية التي قد لا تبدو للناس ، ولكنها تعمل في قلب صاحبها حتى تضله كما قال ﷺ : ((**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل**

---

(١) الظلال : ج٢ ، ص ٧٠٥ .
(٢) سورة الأحزاب [١٨] .
(٣) الجامع لأحكام القرآن : ج١٤ : ص ١٥١ ، وانظر للتوسع ، المصفى من صفات الدعاة ، للبلالي : ج٢ ، ص (٦٢ - ٨٦) .
(٤) رواه مسلم ، كتاب العلم ، باب هلك المتنطِّعون ، برقم : ٢٦٧٠ .
(٥) انظر للتوسع ، المتساقطون : ص (٨٨ - ٩٤) .

النـار وإن الرجـل ليعمـل عمـلَ أهـل النـار فيمـا يبـدو للنـاس ، وهـو مـن أهـل الجنـة » [1] .

قال ابن رجب - رحمه الله - : « وقولـه ﷺ : (**فيما يبدو للناس**) إشـارةٌ إلـى أن بـاطن الأمر يكون بخلاف ذلك ، وأن خاتمة السُّوء تكونُ بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس ، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك ، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت ، وكذلك قد يعمل الرجُل عملَ أهل النـار وفـي باطنـه خصلةٌ خفيـة مـن خصال الخير ، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره ، فتوجب له حسنَ الخاتمـة » [2] ، والأمراض التـي تعتـرض الثـابتين كثيـرة : الريـاء ، والنفـاق ، والعجـب ، والغـرور ، والكبـر ، والحقد ، والحسد ، والخوف علـى الآجـال والأمـوال [3] . « ومـن هنـا كـان الصـحابة ، ومَنْ بعدهم من السلف الصالح ، يخافون على أنفسهم النفاق ، ويشتد قلقهم وجزعهم منه ؛ فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة ، فيخرجه إلى النفاق الأكبر » [4].

٥ - ٨ : الاستعجال واستطالة الطريـق :

قد أمر الله - عزَّ وجلَّ - نبيّه ﷺ بالاقتداء بالثابتين الصابرين من الأنبياء السابقين ، ونـهاه عن الاستعجال فقـال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾[5] ، ونـهاه أيضًا عن الاقتداء بيونس - عليه السلام - في استعجاله علـى قومه : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ** ﴾[6] ؛ لمـا للعجلـة من سوء عاقبـة على صاحبها وعلى مَنْ يربيهم ، وقد قال الله سبحانه لموسى - عليه السلام - : ﴿ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا**

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب لا يقول فلان شهيد ، برقم : ٢٨٩٨ ، ورواه مسلم ، كتب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه . . ، برقم : ١١٢ .

(2) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب : ج١ ، ص (١٧٢ - ١٧٣) ، وانظر أيضًا الفوائد ، لابن القيم : ص ٢١٣ ، تعليق لابن القيم على حديث « **حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع** » .

(3) انظر عقبات في طريق الدعاة وطرق معالجتها في ضوء الإسلام ، لعبد الله علوان : ج١ ، ص (١٩ – ١٣٢) . وانظر أيضًا الثبات ، لمحمد موسى : ص (١٠٥ - ١٣١) .

(4) جامع العلوم والحكم : ج١ ، ص ١٧٤ ، وانظر أيضًا فتح الباري ، لابن حجر ، في شرح باب ٣٦ ، من كتاب الإيمان : ج١ ، ص (١٠٩ - ١١١) .

(5) سورة الأحقاف [٣٥] .

(6) سورة القلم [٤٨] .

قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾[1] ، قال الآلوسي - رحمه الله - : ((والفاء في قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا** ﴾ لتعليل ما يُفهِمُه الكلام السابق ، كأنه قيل : لا ينبغي عجلتك عن قومك ، وتقدمك عليهم ، وإهمال أمرهم ، لوجه من الوجوه ، فإنهم لحداثة عهدهم باتباعك ، ومزيد بلاهتهم وحماقتهم ، بمكان يحيق فيه مكر الشيطان ، ويتمكن من إضلالهم)) ..

وللاستعجال صور كثيرة نراها عند بعض الدعاة :

- الاستعجال في طلب علم المسائل الشائكة والمتون المعقدة قبل دراسة مبادئها ومعرفة أصولها .
- الاستعجال في طلب النصر قبل إعداد عدته واستكمال أسبابه .
- الاستعجال في تقديم المدعوين لبعض مهام الدعوة قبل نضوجهم .

وأخيرًا ، فإن من الحِكَم القيّمة لابن القيم - رحمه الله - قوله :

((**من استطال الطريق ضعف مشيهُ**))

وما أنت بالمشتاق إن قلت بيننا طِوالُ الليالي أُو بَعيدُ المفاوز[2]

٥ - ٩ : وعوائق أخــرى :

- كثرة المحن[3] (انظر موضوع الابتلاء) .
- بعض وسائل الإعلام وما تحمله من خبث في الكثير من برامجها .
- التبرج وكثرة الفساد في المجتمع .
- الزواج بالمرأة الطالحة أو زواج المرأة بالرجل الفاجر .

٦- من صور الثبات :

المسلم الذي رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا قد جعل الإسلام منهج حياته ومنطلق أحكامه وتصوراته ، لا يحيد عنه ولا يبغي سواه ، مهما ادلهمت الخطوب أو اشتدت الكروب .

وها هنا بعض المواقف أو الحالات التي يتأكد فيها ثباته على دينه نشير إليها

---

(1) سورة طه [٨٣ - ٨٥] .
(2) الفوائد ، لابن القيم : ص ١٠٢ .
(3) للتوسع انظر المتساقطون في طريق الدعوة ، فتحي يكن : ص (١١٩ - ١٢١) .

بإيجاز :

٦ ـ ١ : الثبات عند مواجهة جند الباطل :

المسلم الحق .. لا يرهبه الباطل بكثرة جنوده ، ولا يخيفه بشدة بطشه .. واثق بالله ، يستشعر معيته وتأييده ، لسان حاله ومقاله يلهج بقول الثابتين من قَبْلِهِ : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾(١) ، ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾(٢) ؛ أُسوته في ثباته ـ بعد أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه ـ تلك الفئة المؤمنة القليلة من جند طالوت ، التي قالت للذين أرهبتهم كثرة الباطل : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(٣) ، وراحوا يستغيثون الله ، ويسألونه التثبيت والنصر ؛ ولَمَّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ ﴾(٤) ؛ وهو نفس الدعاء الذي لهج به الربيون الذين حملوا الراية بين يدي الأنبياء ، يقاتلون معهم ، وينشرون هديهم ، ويقتفون أثرهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٥) .

٦ ـ ٢ : الثبات في الفتن :

إن من سنن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الماضية تعرُّض المؤمن للفتن ليكشف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن صدق إيمانه ، وصفاء قلبه ؛ كما أنَّ فيها ترسيخًا لقدمه ، ورفعًا لمنزلته ، وإعدادًا لشخصه ؛ ليكون أهلاً لتحمل أمانة الدعوة إلى الله .

قال سيد ـ رحمه الله ـ :« إن الإيمان أمانة الله في الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل، وفيهم على حملها قدرة ، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص ؛ وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة ، وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والإغراء . وإنها لأمانة الخلافة في الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته في

---

(١) سورة الشعراء [٦٢] .
(٢) سورة التوبة [٤٠] .
(٣) سورة البقرة [٢٤٩] .
(٤) سورة البقرة [٢٥٠ ـ ٢٥١] .
(٥) سورة آل عمران [١٤٦ ـ ١٤٧] .

عالم الحياة ؛ فهي أمانة كريمة ، وهي أمانة ثقيلة، وهي من أمر الله ، يضطلع بها الناس ؛ ومن ثَمَّ تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء .

• **ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله** ؛ ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه ، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ؛ ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان ، وهذه هي الصورة البارزة للفتنة المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة ؛ ولكنها ليست أعنف صور الفتنة ؛ فهناك فتن كثيرة في صور شتى ، ربما كانت أَمَرَّ وأدهى .

• **هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه** ، وهو لا يملك عنهم دفعًا ، وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ، وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك ، وقد أشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير .

• **وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين** ، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين ، وتهتف لهم الدنيا ، وتصفق لهم الجماهير ، وتتحطم في طريقهم العوائق ، وتصاغ لهم الأمجاد ، وتصفوا لهم الحياة ؛ وهو مهمل منكر لا يحس به أحد ، ولا يحامي عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله ، الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئًا .

• **وهنالك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة** ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقًا في تيار الضلالة ؛ وهو وحده موحش غريب طريد .

• وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام ؛ **فتنة أن يجد المؤمن أممًا ودولاً غارقة في الرذيلة** ، **وهي مع ذلك راقية في مجتمعها** ، **متحضرة في حياتها** ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان ويجدها غنية قوية ، وهي مشاقة لله! .

• وهناك الفتنة الكبرى ، أكبر من هذا كله وأعنف ، **فتنة النفس والشهوة** ، **وجاذبية الأرض** ، وثقلة اللحم والدم ، والرغبة في المتاع والسلطان ، أو في الدعة والاطمئنان ، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس ، وفي ملابسات الحياة ، وفي منطق البيئة ، وفي تصورات أهل الزمان!

فإذا طال الأمد وأبطأ نصر الله ؛ كانت الفتنة أشد وأقسى ، وكان الابتلاء أشد

وأعنف ، ولم يثبت إلا من عصم الله ؛ وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى ، أمانة السماء في الأرض ، وأمانة الله في ضمير الإنسان)) [١] .

٦ - ٣ : الثبات على الدعوة :

الثابتون لا يشغلهم عن العمل لدعوتهم ونشر معالمها وحمل رايتها حبُّ زوجةٍ ، ولا إشفاقٌ على ولد ، ولا اشتغال بعقار ، ولا جمع دينار ؛ نذروا حياتهم لتبليغها ، وبذلوا أموالهم لبسط رواقها .. فهذا يوسف - عليه السلام - لم ينشغل بهمومه الشخصية في سجنه عن دعوة صاحبي السجن ، وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ما زال يدعو المساجين حتى حوّل حِلَقِ الشطرنج ونحوها إلى حِلَقِ ذكرٍ ومذاكرة ، وأصبح بعضهم من ألزم تلاميذه .

٦ - ٤ : الثبات على الطاعات :

لابد للمسلم من زادٍ إيماني يتزود منه ، يثابر عليه ويلتزم به ، ليكون عونًا له على ثباته على مصاعب الطريق ؛ ولهذا ((كان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه)) [٢] . قال الإمام النووي : ((أي لازموه وداوموا عليه)) [٣] .

ومن الثبات على الطاعات ، محاولة استدراك ما فات من المستحبات حتى لا تعتاد النفس على تركها ويسهل عليها هجرها ؛ ولهذا قال ﷺ : ((**من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل**)) [٤] ؛ ولهذا ينبغي للمربي أن يلزم نفسه بقيام الليل وصلاة الوتر ، وأن يكون له ورد يومي من القرآن لا ينام قبل أن يقرأه ، وأن يربي مدعويه على هذا .

٦ - ٥ : الثبات عند المصيبة والأذى :

﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾[٥] ؛ فالثابتون هم الذين يذكرون ربهم ، يستلهمون منه الرضا والصبر على الأذى مهما عظم .

ومما يعين على الثبات عند المصيبة ما ذكره ابن الجوزي :

١- أن يعلم أن القدر قد سبق بذلك .

---

(١) الظلال : ج٥ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٢١ ، راجع للتوسع موضوع الابتلاء في الرائد ، الجزء الأول .
(٢) رواه مسلم ، وقد سبق تخريجه .
(٣) شرح مسلم ، للنووي : ج٣ ، ص ٣١٩ .
(٤) رواه مسلم ، صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ، برقم : ٧٤٧ .
(٥) سورة البقرة [١٥٥ - ١٥٦] .

٢- العلم بأن الدنيا دار الابتلاء والكرب ، لا يُرجى منها راحة .
٣- العلم بأن الجزع مصيبة ثانية .
٤- أن يقدِّر وجود ما هو أكبر من تلك المصيبة : كمن له ولدان ذهب أحدهما .
٥- النظر في حال من ابتلي بمثل هذا البلاء ، فإن التأسي راحة عظيمة .

قالت الخنساء :

ولـولا كثـرة البـاكين حـولي ... علـى إخـوانهم لقتلـت نفسـي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أُعـزِّي الـنفس عنـه بالتأسـي

٦- النظر في حال من ابتلي بأكثر من هذا البلاء فيهون هذا .
٧- رجاء الخلف كالولد [أي أن يرزقه الله - عزَّ وجلَّ - خيرًا منه] .
٨- طلب الأجر بتحمل أعباء الصبر [1] .

٦ - ٦ : الثبات عند الممـات :

إن كان الثبات على الحق في حياة المرء مطلب مهم يسعى لتحقيقه ، فإن ثباته عند احتضاره أهم وأخطر ؛ ذلك لأن الأعمال بالخواتيم ، والسعيد من ثبّته اللهُ في حال احتضاره : ﴿ **يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ** ﴾[2] . قال ابن الجوزي - رحمه الله - : « وقد خُذل كثير عند الموت فمنهم من أتاه الخذلان من أول مرضه ، فلم يستدرك قبيحًا مضى ، وربما أضاف إليه جورًا في وصيته ، ومنهم من فاجأه الخذلان في ساعة اشتداد الأمر فمنهم من كفر ، ومنهم من تبرم وتسخط نعوذ بالله من الخذلان ، وهذا معنى سوء الخاتمة .. وهو : أن يغلب على القلب عند الموت الشك أو الجمود فتقبض النفس على تلك الحالة .. ودون ذلك أن يتسخط الأقدار » [3] ولهذا كان من دعائه ﷺ : « **اللهم إني أعوذ بك من الهدم ، وأعوذ بك من التردي ، ومن الغرق ، والحَرَق ، والهرم وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطانُ عند الموت ، وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مدبرًا ، وأعوذ بك من أن أموت لديغًا** » [4].

---

(1) الثبات عند الممات ، لابن الجوزي : ص (٢٩ - ٣١) ، باختصار .
(2) سورة إبراهيم [٢٧] .
(3) الثبات عند الممات ، لابن الجوزي : ص ٤٧ .
(4) رواه أبو داود ، والنسائي ، والحاكم ، وهو في المشكاة ، ٢٤٧٣ .

٦ - ٧ : الثبات على العهد :

كما دعا الإسلام إلى ثبات القلوب على الإيمان ، وثبات الأقدام في طاعة الرحمن ؛ فإنه دعا إلى وفاء المسلم بعهده ، وثباته على كلمته ووعده ، وقد قال الله تعالى - مادحًا عباده المؤمنين - : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾(1) ؛ فإذا عاهد على دعوة صرف همته في تبليغها ، وسعى جاهدًا في سبيلها دون تردد أو تذبذب .

قال أنس بن مالك ﷺ : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ! لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليَرَيَّنَّ ما أصنع ! [ولم يقل أكثر من ذلك مهابة العهد ... لأنهم رجال مؤمنون لا يسمحون لألسنتهم أن تهذيَ بعهود لا يستطيعون الالتزام بها] ، فلما كان يوم (أحد) انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم .. فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر ! إني لأجد ريحها من دون أحد ! قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، ثم تقدم . قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين ؛ ما بين ضربة بالسيف ، وطعنة بالرمح ، ورمية بالسهم ؛ ووجدناه وقد مَثَّلَ به المشركون ؛ فما عرفه إلا أُختُه ، بشامة فيه أو ببنانه .

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾(2)(3) .

٧- من أخبار الثابتين :

الثابتون على دينهم من هذه الأمة طائفة قائمة على الحق الذي آمنت به ، أمينة على الدعوة التي أُمرت بتبليغها والذبِّ عنها ؛ لا تلتفت إلى كثرة المتخاذلين ، ولا يرهبها تكالب الحاقدين وتربص الماكرين ، بل هي ظاهرة على أعدائها بإيمانها وثباتها ، وجهادها وتضحياتها .. وهي مع هذا الظهور باقية لا تستأصل ، خالدة لا تزول ؛ حتى يأتي أمر الله .

وهذا البقاء الراسخ - مع شدة مكر الأعداء - علَمٌ من أعلام النبوة ؛ حيث أخبر - عليه أفضل الصلاة والسلام - أنها باقية خالدة .. كل جيل يسلم الأمانة إلى الذي يليه ؛ فلا يخلو منهم عصر من الأعصار ، وإن تفرّقوا في الأمصار . قال ﷺ : « **لا تزال**

---

(1) سورة المعارج [٣٢] .
(2) سورة الأحزاب [٢٣] .
(3) رواه البخاري ، وقد سبق تخريجه ، وانظر للتوسع ، خلق المسلم ، للغزالي : ص (٨٧ - ١٠٩) .

طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)) [١]. قال الإمام النووي - رحمه الله - : ((وأما هذه الطائفة فقال البخاري : هم أهل العلم ، وقال أحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم . قال القاضي عياض : إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث ، قلت : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ؛ ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض ؛ وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة ، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن ، ولا يزال حتى يأتي أمر الله ..)) [٢] .

وقوله ﷺ : ((**حتى يأتي أمر الله**)) المراد به هو الريح التي تأتي فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة[٣] ، وقوله ﷺ : ((**وهم ظاهرون**)) ، أي : ((على مَنْ خالفهم أي غالبون ..)) [٤] .

إذا ثبت هذا ، فإليك طرفًا من أخبارهم وشذراتٍ من مآثرهم في ثباتهم على دينهم :

٧ - ١ : سيّدُ الثابتين ﷺ :

بعثت قريش بعتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ؛ لكي يقنعه بالعدول عن دعوته فقال عتبة لرسول الله ﷺ : ((إن كان إنما بكَ الحاجَةُ جمعنا لكَ من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش فنزوجك عشرًا)) ، فقال له رسول الله ﷺ : ((**أفرغت ؟**)) قال : نعم ، قال : فقال رسول الله : ﴿ **حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ [٥] ، حتى بلغ ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾[٦] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قوله ﷺ : ((**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهلُ العلم**)) ، برقم : ٧٣١١ ، ورواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : ((**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم**)) ، برقم : ١٩٢٠ .

(٢) شرح النووي ، على صحيح مسلم : ج١٣ ، ص ٦٦ - ٦٧ ، وانظر أيضًا ، فتح الباري ، لابن حجر ، ج١٣ ، ص ٢٩٥ .

(٣) المرجع السابق : ج١٣ ، ص ٦٧ بتصرف يسير .

(٤) الفتح ، ابن حجر : ج١٣ ، ص ٢٩٤ .

(٥) سورة فصلت [١ - ٢] .

(٦) سورة فصلت [١٣] .

فقال عتبة : ((حَسْبُكَ)) [1] .

وقال ﷺ لعمه أبي طالب يوم طلب منه أن يكفَّ عن دعوته : ((**واللهِ ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يُشعِلَ أحدُكم من هذه الشمس شعلةً من نار**)) [2] .

وقد حاصروه وأهله في الشِعب ثلاث سنين ؛ حتى بلغهم الجهد ، وأخذوا يأكلون الأوراق والجلود ، وكان يسمع صوت النساء والصبيان يتضاغون من الجوع ؛ فما فلَّ ذلك من عزيمته ، ولا توقف عن دعوته . وضعوا سلا الجزور على ظهره وهو ساجد ، وحثوا التراب في وجهه ﷺ ، وأدموا قدميه وشجُّوا وجهه [3] ، وكسروا رباعيته ؛ ومع هذا ظلَّ ماضيًا في سبيله ، يدعو إلى الله على بصيرة ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين .

٧ ـ ٢ : وبه اقتدى صحابتُه ﷺ:

فقد ثبتوا على الحق ، وكانوا كالجبال الراسيات ، وقدموا أروع الأمثلة على ثبات المؤمن على عقيدته .

فمنهم من كان مستضعفًا ، عبدًا رقيقًا ، ومع هذا صبر وثبت حتى نفّس الله كربته : كبلال بن رباح ، وخباب بن الأرت ، وغيرهما ممن ألبسهم أهل الكفر أدرع الحديد ، ثم صهروهم في الشمس ؛ فبلغ منهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ من حر الحديد والشمس ، قال الشعبي : ((إنَّ خبّابًا صبر ، ولم يُعطِ الكفار ما سألوا ؛ فجعلوا يلصقون ظهره بالرضف حتى ذهب لحم متنه)) [4] .

وقال أبو ليلى الكِنْدِي : ((جاء خَبَّاب إلى عمر ، فقال : ادْنُ . فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار . فجعل خباب يريه آثارًا بظهره مما عذّبه المشركون)) [5] .

ومن النساء الثابتات ، ممن ثبتن من النساء المؤمنات ، اللاتي ضربنَ أروع الأمثلة على ثبات المؤمنة على دينها واعتزازها بربها : سميّة أم عمّار بن ياسر ؛ ربطت بين بعيرين ، ثم طعنت بحربة في فرجها حتى خرجت من فمها ، وهي ثابتة

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج٦ ، ص١٩) : رواه أبو يعلى ، وفيه الأجلح الكندي ، وثَّقه ابن معين وغيره ، وضعفه النسائي وغيره ، وبقية رجاله ثقات ، وقد حسَّن الحديث الألباني في فقه السيرة ، ١١٥ ـ ١١٦ .

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد(ج٦ ، ص١٩) : رواه الطبراني في الأوسط الكبير ، ورواه أبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح ، وانظر الأساس في السنة ، لسعيد حوى : ج١ ، ص ٢٤٤ ، وفقه السيرة ، للغزالي حاشية : ص ١١٧ ، وأما حديث : ((**يا عم . . لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي . .**)) فضعيف .

(٣) انظر الفتح : ج٧ ، ص (٣٦٥ ـ ٣٦٦ ، ٣٧٢) .

(٤) أسد الغابة ، لابن الأثير : ج٢ ، ص (٩٧ ــ ٩٨) .

(٥) رواه ابن ماجة : ج١ ، ص ٥٤ ، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، برقم : ١٥٣ ، وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجة : ج١ ، ص ٣١ ، برقم : ١٢٥ .

على دينها وعقيدتها ، وقُتِل معها زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين في الإسلام – رضي الله عنهما - وأرضاهما ، وحشرنا في زمرتهما ، وأدخلنا مدخلهما ؛ إنه جواد كريم .

ومن الثابتات : رملة بنت أبي سفيان ، كانت زوجة لعبيد الله بن جحش الأسدي ، هاجرت مع زوجها إلى الحبشة مع المسلمين فرارًا بدينها ، فلما استقرت هناك بعيدة عن أهلها ووطنها ابتليت بردَّة زوجها عبيد الله بن جحش عن الإسلام ودخوله النصرانية ، وبذل جهده وما في وسعه لصدِّها عن دينها ؛ ولكنها أبت ، وثبتت ، واعتصمت بربها ؛ فما زلزلتها النوائب ، ولا جَرَفتْها الفواجع .. أبوها يومئذ مشرك ، أعلن الحرب على المسلمين في مكة ، بل هو من أكبر مسعّريها ، وزوجها مشرك ، وكانت عاقبة هذا الثبات وذلك الصبر أن عوّضها الله خيرًا من زوجها ، بل خيرًا من البشر أجمعين ؛ فجعلها الله زوجًا لرسول الله ﷺ ، وأمًّا للمؤمنين .

٧ - ٣ : وعلى هذا سار الركب من بعدهم :

ومن جنود قافلة الثبات : عفان بن مسلم - رحمه الله - الذي ثبت في فتنة خلق القرآن ، وقد أورد الذهبي قصته في ذلك فقال : « قال القاسمُ بن أبي صالح : سمعتُ إبراهيم بن ديزيل يقول : لما دُعي عفَّانُ للمِحنة كنتُ آخذًا بلجام حِمارِه ؛ فلما حضرَ عُرِض عليه القولُ ، فامتنع أن يُجيبَ ؛ فقيل له : يُحبَسُ عطاؤك - وكان يُعطى في كُلِّ شهر ألفَ درهم - فقال : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾(١) ؛ فلما رَجَعَ إلى داره عذله نساؤهُ ومَنْ في داره ، قال : وكان في داره نحو أربعين إنسانًا ، فدق عليه داقٌّ الباب ، فدخل عليه رجلٌ شبَهتُه بسمّان أو زَيَّات ، ومعه كيس فيه ألفُ درهم ، فقال : يا أبا عثمان ثَبَّتَكَ الله كما ثَبَتَّ الدين وهذا في كلِّ شهر » (٢) .

- وإنما لم نذكر قصة ثبات الإمام أحمد لشهرتها واستفاضتها بين الناس .

- ومن أولئك الثابتين الأفذاذ : الإمام القدوة أبو بكر محمد بن أحمد الرملي ، الذي يُعرف بابن النابلسي ، الذي سجنه بنو عبيد [أصحاب الدولة العبيدية(٣)] ، وصلبوه لثباته على السنّة .

قال قائد العبيديين لأبي بكر الرملي : « بلغنا أنك قلت إذا كان مع الرجل عشرة أسهم ، وجب أن يرميَ في الرُّوم سهمًا ، وفينا تسعة » ، قال : « ما قلتُ هذا ، بل

(١) سورة الذاريات [٢٢] .
(٢) سير أعلام النبلاء ، للذهبي : ج١٠ : ص ٢٤٥ .
(٣) العبيدين : هم الذين أسسوا الدولة الفاطمية في المغرب ومصر ، وادَّعوا زورًا النسب الشريف ، وفعلوا الأفاعيل في بلاد المسلمين ، وكان بعض حكّامهم كفرة واضح كفرهم : كالحاكم ؛ حيث ادَّعى الإلهية والعياذ بالله (الثبات ، لمحمد موسى : ص ٣٦) .

قلت : إذا كان معه عشرةُ أسهم ، وجب أن يرميكم بتسعة ، وأن يرميَ العاشر فيكم أيضًا ؛ فإنكم غيّرتم الملّة ، وقَتَلْتُم الصّالحين وادّعيتمُ نورَ الإلهية)) ؛ فشهرهُ ثم ضَرَبَه ، ثم أمر يهوديًّا فَسَلَخَه وحُشِيَ تبنًا ، وصُلب .

قال معمر بن أحمد بن زياد الصوفي : ((أخبرني الثقة ، أن أبا بكر الرملي سُلخ من مفرق رأسه حتَّى بلغ الوجه ، فكان يذكر الله ويَصبر حتى بلغ الصدر فرحمه السلاَّخ ، فوكزه بالسَّكين موضع قلبه فقضى عليه ، وأخبرني الثقةُ أنه كان إمامًا في الحديث والفقه ، صائمِ الدَهر ، كبيرَ الصَّولةِ عند العامَّة والخاصة ، قلت : لا يوصف ما قَلَبَ هؤلاء العبيديةُ الدّينَ ظهرًا لبطن ، واستولوا على المغرب ، ثمَّ على مصر والشام ، وسبُّوا الصحابة)) [1] .

((وذكر الإمام الذهبي أن الذين قتلهم عُبيد الله وبنوه (أي العبيديون) أربعة آلاف من عالم وعابد ؛ ليردهم عن الترضي عن الصحابة ؛ فاختاروا الموت)) [2] .

● ومن الثابتين على الدعوة ، على الرغم من كثرة المناوئين وتربص الحاقدين : الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - فقد ثبت على دعوته إلى التوحيد ، ونبذ الشرك ، على الرغم من قلة أتباعه وتآمر أعدائه وتكالبهم على قتله ؛ فما لانت له قناة حتى أظهره الله ، ونفع بدعوته الجزيرة كلَّها ، وأحيا الله به معالم الشريعة بعد اندثارها في أهل نجد وما حولها [3] .

٨ - عاقبة التخاذل ، والتحذير من النكوص والتذبذب :

تخاذل المسلم عن الدعوة التي كان يدعو إليها وتنكره لها ونكوصه عنها لتعارضها مع منفعة دنيوية أو مصلحة مادية ذنب يستحق عليه العقوبة ؛ ذلك لأنه يشوه - بتخاذله - الحق الذي تنكر له ، ويشكك بالدعوة التي نكص عنها .. ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [4].. كما أنه يُشمِت الأعداء ، ويغري الأشقياء ، ويضعف القوي ، وربما

---

(1) نزهة الفضلاء : ج٢ ، ص ١١٥٩ .
(2) الثبات ، لمحمد موسى : ص ٣٧ ، وعبارة الذهبي في نزهة الفضلاء : ج٢ ، ص ١٠٨٤ .
(3) انظر للتوسع ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب : عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه ، لأحمد آل بوطامي .
(4) سورة آل عمران [٧٢] .

خلخل الصف(١) ؛ ولهذا استنكر القرآن الكريم على أولئك المنهزمين المتخاذلين في نصوص كثيرة ، وشنَّع على الذين يتنكبون عن طريق الدعوة لأدنى عارض ، وينكثون بالعهود لأتفه الأسباب :

أ - فأعلن خسارة المتخاذلين كما قال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾(٢) ، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾(٣) .

ب - وأنه من تزيين الشيطان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾(٤) .

ج - وبيَّن أن الفرار من مواجهة الأعداء عند تعيّنه إيثارًا للسلامة رذيلة منكرة ، ومع ذلك فهو لا يجدي ولا ينفع ؛ فلا يؤخر الآجال ، ولا يزيد في الأرزاق : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(٥) ، ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾(٦) .

د - وعدَّ القرآن الكريم التذبذب بين الحق والباطل ، والتردد بين الإيمان وسُبُل الشيطان من صفات أهل النفاق فقال - عزَّ وجلَّ - عن المنافقين : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾(٧)(٨) .

هـ - والرسول ﷺ يدعو على المتخاذلين الناكصين ، فيقول ﷺ : ((**أنا فَرَطكم على**

---

(١) انظر أثر فرار ونكوص مسلمة الفتح على صفوف المسلمين في غزوة حنين .
(٢) سورة المائدة [٢١] .
(٣) سورة الحج [١١] .
(٤) سورة محمد [٢٥] .
(٥) سورة الأحزاب [١٦] .
(٦) سورة آل عمران [١٥٤] .
(٧) سورة النساء [١٤١ - ١٤٣] .
(٨) للتوسع انظر الظلال : ج٢ ، ص ٧٨٤ .

الحوض [المتقدم إلى الماء ، يريد أنه شفيع ﷺ يتقدم] **مَنْ وَرَدَ شرب ، ومَنْ شربَ لم يظمأ أبدًا . وَلَيرِدَنَّ عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني ، ثم يُحَالُ بيني وبينهم** » ، وفي رواية لأبي سعيد الخدري أنه ﷺ يقول : « **إنهم منّي ، فيُقال له : إنك لا تدري ما عملوا بعدك . فأقول : سُحقًا سُحقًا لمن بدَّل بعدي** » ، وسُحقًا معناها : بعدًا لهم بعدًا . وفي حديث أسماء بنت أبي بكر قالت : قال رسول الله ﷺ : « **إني على الحوض حتى أنظر من يَردُ عليَّ منكم وسيُؤْخذُ أناسٌ دوني ، فأقول : يا رب ! منّي ومن أُمَّتي ، فيُقال : أما شَعَرتَ ما عملوا بَعْدَكَ ؟! والله ما بَرحوا بَعْدك يرجعون على أعقابهم** » ، فكان ابنُ أبي مُلَيْكَةَ [أحد رواة الحديث] يقول : « اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو أن نفتن عن ديننا » (١) .

٩ - من أخبار الزائغين ومخازي الناكصين (٢) :

الشيطان حريص على إغواء الناس جميعًا كما أخبرنا الحق - عزَّ وجلَّ - فقال : ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾(٣)، وللشيطان على النفس البشرية مداخل تفعل الأفاعيل في هدم الثبات ، والموفق من ثبَّته الله ، والمخذول من اتبع الشيطان وحزبه ، ومما تخوَّف منه ﷺ إغواء الشيطان لحامل القرآن والداعية إلى الله ، فيدبر بعد إقبال ، وينكص بعد إقدام .

قال رسول الله ﷺ : « **إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن ، حتى إذا رُؤيت بهجته عليه ، وكان ردءَ الإسلام ، اعتراه إلى ما شاء الله ؛ انسلخ منه ، ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك** » . قال : قلت : يا نبي الله ، أيهما أولى بالشرك : المرمي أو الرامي ؟ قال : « **بل الرامي** » (٤) .

ومما يجدر التذكير به أن تراجع الثبات على نوعين :

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ، الأحاديث ، رقم : ٢٢٩٠ ، ٢٢٩١ ، ٢٢٩٣ .

(٢) هذا المبحث اختصرناه من كتاب الثبات ، للدكتور محمد عقيل موسى ، من ص ٤٩ - ٥٦ مع إضافات .

(٣) سورة الأعراف [١٦ – ١٧] .

(٤) قال الإمام ابن كثير : رواه أبو يعلى الموصلي ، وإسناده جيد ، تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : ج٣ ، ص ٥٠٩ ، (عن الثبات ، لمحمد حسن عقيل موسى : ص ٤٧) .

النوع الأول : ضعف بشري يعتري بعض السالكين ، فيقعده عن بعض أعمال الدعوة التي كان يقوم بها مع إخوانه ، أو يوقعه في بعض المنكرات ، أو يثبطه عن بعض الواجبات فيُقصِّرَ فيها .. لكنه يظل في دائرة الإسلام .

النوع الآخر : نفاق أو ردة تعتري بعض العاملين فيذهب ثباتهم والعياذ بالله .

٩ - ١ : عبيد الله بن جحش :

كان قد أسلم قديمًا ، وهاجر مع زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان - رضي الله عنها - إلى الحبشة الهجرة الثانية ؛ فتنصَّر ، وارتدَّ عن الإسلام ، وتوفي بأرض الحبشة . وقد حكت أمُّ حبيبة قصة زوجها عُبيدِ الله بن جحش فقالت : « رأيت في النوم عُبيد الله بن جحش - زوجي - بأسوأ صورة وأشوهها ؛ ففزعت ، فقلت : تغيَّرت - والله - حاله ، فإذا هو يقول حيث أصبح : يا أم حبيبة ، إني نظرت في الدين فلم أرَ خيرًا من النصرانية ، وكنت قد دِنت بها ، ثم دخلت في دين محمد ، ثم رجعت إلى النصرانية ؛ فقلت : والله ما خيرٌ لك ، وأخبرته بالرؤيا التي رأيت له فلم يَحْفَل بها ، وأكبَّ على الخمر حتى مات » [1] .

٩ - ٢ : الرَّحَّال بن عُنْفُوة :

وفد على النبيِّ ﷺ في وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة ، فأتى رسول الله ﷺ في رجال معه فأسلم وتشهد شهادة الحق ، وأقام أيامًا يختلف إلى رسول الله ، وكان يتعلم القرآن من أبيّ بن كعب ، ثم انقلب إلى بلده ، وادَّعى مسيلمة الكذاب - لعنه الله - النبوة ، وشهد له الرحّال بن عُنْفُوة كذبًا أن النبي ﷺ أشركه في الأمر ، فافتتن الناس به [2] ، وكانت تلك ردةً من الرّحَّال بن عُنْفُوة ، ومات قتيلاً على الكفر - والعياذ بالله تعالى - بعد ذلك في حروب الردة .

٩ - ٣ : النعمان بن محمد المغربي ، قاضي الدولة العُبيدية :

قال الذهبي : « كان مالكيًّا فارتد إلى مذهب الباطنية ، وصنف لهم أُسَّ الدعوة ، ونبذ الدين وراء ظهره ، وألَّف في المناقب والمثالب [3] ، وردَّ على أئمة الدين ، وانسلخ من الإسلام ، فسحقًا له وبعدًا ، ونافق الدولة ، لا بل وافقهم .. وله يد طُولى في فنون العلم والفقه والاختلاف ، ونَفَس طويل في البحث ، فكان علمه وبالاً عليه »

---

(1) الطبقات الكبرى ، لابن سعد : ج٤ ، ص (٩٦ - ٩٧) .
(2) انظر الطبقات الكبرى : ج١ ، ص (٣١٦ - ٣١٧) .
(3) أي مساوئ الصحابة ، بزعمه ، قبحه الله .

(1) .

٩ - ٤ : ابن السقَّاء :

((كان من الطلبة الذين يحضرون حِلَق العلم ، وكان مقرئًا مجودًا ، حافظًا للقرآن ؛ فحضر يومًا حَلْقة شيخ الإسلام أبي يعقوب الهمذاني(2) فقام وآذى الشيخ ، وسأله عن مسألة ، فقال : اجلس ، إني أجد من كلامك رائحة الكفر ، ولعلك تموت على غير الإسلام، فاتفق أن ابن السقّاء ذهب في صحبة رسول طاغية الروم وتنصَّر بقسطنطينية)) (3) .

((ورؤي في القسطنطينية مريضًا على دكّة فسُئل : هل القرآن باق على حفظك ؟ قال : ما أذكر منه إلا آية واحدة : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾(4) ، والباقي نسيته))(5)، نعوذ بالله من المكر .

٩ - ٥ : عبد الله القصيمي :

وهذا مثال من المُحْدثين الزائغين ، الذين ضلوا بعد هداية ، وزاغوا بعد استقامة ؛ وهو رجل قد نال من العلم كثيرًا ، وبرع فيه ، خاصَّة علمَ العقيدة(6) ، وأثنى عليه معاصروه ، وجرد قلمه في الرد على مخالفي أهل السنة والجماعة وعلى القادحين في الإمام محمد بن عبد الوهَّاب ، فرد على الدجوي(7) في كتابه ((البيارق النجدية)) ، وألَّف كتابه ((الفصل الحكم بين الوهابيين ومخالفيهم)) ، وله كتاب عن الوثنية .

قال عنه معاصروه : إننا لم نره قط إلا وقد تأبط كتابًا ، وكان مولعًا بقراءة صحيح البخاري(8) .

ثم إنه ارتدَّ - والعياذ بالله تعالى - عن الإسلام ، وانتكس انتكاسة الأبد ، وقد ذُكر في ذلك أسباب قلبية : كالحسد ، والمبالغة في الثناء على النفس(9) ، والقلوب بيد الله تعالى .

---

(1) انظر نزهة الفضلاء : ج٢ ، ص ١١٦٠ .
(2) يوسف بن أيوب بن يوسف شيخ مرو وعالمها ، وتوفي سنة ٥٣٥ ، وانظر ترجمته في سير أعلام النبلاء : ج٢٠ ، ص (٦٦ - ٦٩) .
(3) نزهة الفضلاء : ج٢٣ ، ص (١٤٠٣ - ١٤٠٤) .
(4) سورة الحجر [٢] .
(5) المصدر السابق ، والآية من سورة الحجر [٢] .
(6) أي العلم الظاهر الذي لا يؤثر على سلوك صاحبه تأثيرًا عاصمًا من الضلال والعياذ بالله ، أما من تمكن في العلم ، وسلك سلوك المتقين بنفس خاشعة مسلمة إلى مولاها فإنه لا يزيغ بإذن الله ، زيغًا يؤدي به إلى الكفر ، والعياذ بالله .
(7) هو أحد شيوخ الأزهر .
(8) من أخبار المنتكسين : ص ٢٣٠ .
(9) المرجع السابق : ص (٢٣٠ - ٢٣١) .

وقد بلغني أنه قد مات عن قريب ، فإن مات على ما كان عليه بعد ردته فقد خسر الأبد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

خامسًا : تطبيقات عملية لتأكيد معاني الدرس :

١- المداومة على صلاة الجماعة ، والحرص الشديد على إدراك تكبيرة الإحرام ، بل والتبكير إلى المسجد لقراءة شيء من الورد اليومي من القرآن الكريم .

٢- المداومة على قيام الليل (ولو جزء يسير من الليل) ، وعدم الانقطاع عنه : « لا تكن كعبد الله كان يقوم الليل ثم تركه » .

٣- المداومة على الأذكار : كأذكار الصباح والمساء ، والأكل والشرب ، ودخول البيت والخروج منه .. إلخ .

٤- تخصيص مبلغ مقطوع « ثابت » من راتبك الشهري للدعوة إلى الله ، أو لمناصرة إخوانك الدعاة في منطقتك أو خارجها .

٥- الابتعاد عن الرفقة السيئة ، لا سيما حال تلبسهم بمنكراتهم ، وعدم مخالطتهم إلا لمصلحة شرعية ، وبالضوابط المرعية في ذلك ، بعد التشاور مع إخوانك الدعاة .

٦- طرح موضوع « قصة أصحاب الأُخدود » ، مع بيان الدروس والعبر من أحداثها ، والإفادة منها في تثبيت القلوب في واقعنا المعاصر .

٧- الإفادة من سير الثابتين ، والاعتبار بمآسي المنتكسين ؛ وذلك بالاطلاع على سيرهم (انظر مراجع الموضوع) .

سادسًا : المراجع :

١- معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، دار الجيل .
٢- لسان العرب ، لابن منظور ، دار المعارف .
٣- موسوعة أخلاق القرآن ، للشرباصي ، دار الرائد العربي ، ط٣ .
٤- فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، لابن حجر ، دار المعرفة .
٥- صحيح الإمام مسلم ، الإمام مسلم ، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث .
٦- صحيح الترمذي ، الألباني ، مكتب التربية .
٧- فيض القدير ، المناوي ، دار المعرفة .
٨- مرقاة المصابيح ، القاري ، المكتبة التجارية .

٩- صحيح الجامع الصغير وزياداته ، الألباني ، المكتب الإسلامي .
١٠- منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه ، عبد الرحمن هوساوي ، دار الذخائر ، ط١ .
١١- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط٧ .
١٢- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، دار إحياء التراث العربي .
١٣- الثبات ، محمد بن حسن بن عقيل موسى ، دار الأندلس الخضراء ، ط٢ .
١٤- الدعوة : قواعد وأصول ، جمعة أمين عبد العزيز ، دار الدعوة ، ط٢ .
١٥- المتساقطون ، فتحي يكن ، مؤسسة الرسالة .
١٦- سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، مؤسسة الرسالة .
١٧- وسائل الثبات على دين الله ، محمد المنجد ، دار الوطن ، ط١ .
١٨- الثبات عند الممات ، ابن الجوزي ، مكتبة القرآن .
١٩- الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر .
٢٠- فقه السيرة ، للبوطي ، دار الفكر ، ط ٨ .
٢١- مقومات الثبات على الهداية ، محمد الدحيم ، دار المنار ، ط١ .
٢٢- فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد ، فضل الله الجيلاني ، ط٣ .
٢٣- شرح صحيح الإمام مسلم ، النووي ، مكتبة المثنى .
٢٤- عقبات في طريق الدعاة ، عبد الله علوان ، دار السلام ، ط١ .
٢٥- المصفى من صفات الدعاة ، عبد الحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .
٢٦- أين الخلل ؟ ، يوسف القرضاوي ، دار الصحوة ، ط١ .
٢٧- آفات على الطريق ، السيد محمد نوح ، دار الوفاء ، ط١ .
٢٨- جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ، تحقيق الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ .
٢٩- الفوائد ، ابن القيم ، دار النفائس ، ط٧ .
٣٠- روح المعاني ، الآلوسي ، دار إحياء التراث العربي .
٣١- موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ، محمد السعيد زغلول ، دار الفكر .
٣٢- مجمع الزوائد ، الهيثمي ، دار الكتاب العربي .
٣٣- الأساس في السنة وفقهها ، سعيد حوى ، دار السلام ، ط١ .
٣٤- أُسد الغابة ، ابن الأثير ، دار إحياء التراث العربي .
٣٥- صحيح سنن ابن ماجة ، للألباني ، مكتب التربية العربي .
٣٦- نزهة الفضلاء ، محمد عقيل موسى ، دار الأندلس الخضراء ، ط١ .
٣٧- تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية .
٣٨- الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية ، وثناء العلماء

عليه ، أحمد آل أبو طامي ، الدار السلفية ، ط٣ .
٣٩- شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة ، محمد علي الهاشمي ، دار البشائر الإسلامية ، ط١ .
٤٠- من ركائز الدعوة ، مجدي الهلالي ، دار البشير .
٤١- ممرات الحق ، الممر الثالث ، رائد عبد الهادي .
٤٢- هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين ، محمود الخازندار ، دار طيبة ، ط١ .
٤٣- العناية بأحوال الهداية ، محمود خليفة الجاسم ، الدار السلفية ، ط١ .

ثقة

الثقـــــة

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغة :

قال ابن فارس - رحمه الله - : « وثق : الواو والثاء والقاف كلمةٌ تدلُّ على عَقْدٍ وإحكام . ووثَّقْت الشيءَ : أحكمته .. والميثاق : العهد المُحكم » [1] .

وقال ابن منظور : « الثّقةُ : مصدرُ قولكَ وَثقَ به يَثِقُ ، بالكسر فيهما ، وثاقةً وثِقةً ائتمنه ، وأنا واثقٌ به وهو موثوق به .

والمَوْثِقُ والميثاق : العهدُ ، والمواثقة : المعاهدة ؛ ومنه قولُه تعالى : ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ** ﴾[2] .. وفي حديث كعب بن مالك : ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، أي : تحالفنا وتعاهدنا » [3] .

وبهذا يتبين أن الثِّقة فيها معاني الاطمئنان والإحكام .

ب - اصطلاحًا :

للثقة في اصطلاح أهل الدعوة والتربية معان بحسب مَنْ أُضيفت إليه : كالثقة بالله - عزَّ وجلَّ - ، والثقة بالمؤمنين ، والثقة بالنفس ، والثقة بالمنهج .. وسنعرض لمعانيها وأبعادها في ثنايا البحث - إن شاء الله .

ج - الألفاظ المقاربة للمصطلح :

- التوكل (انظر مبحث التوكل) .
- التفويض .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من هذا الدرس إلى جملة أُمور من أهمها :

١- تعزيز ثقة الداعية بربه ، واطمئنانه إلى قدرته وكفايته ، وإحاطته وقهره ، وأن كل ما في الكون يجري بأمره وإرادته ؛ فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ حتى يعلم الداعية بيقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم

---

(1) معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس : ج٦ ، ص ٨٥ .
(2) سورة المائدة [٧] .
(3) لسان العرب ، لابن منظور : ج٦ ، ص ٤٧٦٤ .

يكن ليصيبه ، وما مسّه من خير فبفضل الله ، وما مسّه من شر وضر فلاختبار صبره وتطهيره من ذنوبه ورفع منزلته عند ربه .

٢- ثقة الداعية بنصر الله لأوليائه ، وحفظه وكفايته لأصفيائه ، وأنه سبحانه ربما أخّر نصرهم لحِكَمٍ ربانية وسننٍ كونية لم تستكمل بعد .

٣- غرس روح المبادرة للأعمال ، واستثمار الفرص من خلال تقوية ثقة الداعية بنفسه ، ودفعه لتوظيف طاقاته وملكاته في خدمة دعوته ، ونصرة دينه .

٤- الحذر من معاول هدم الثقة بين الدعاة إلى الله ، ومحاولة التنبيه إليها ، وبيان أثرها السيئ على العمل التربوي والدعوي .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- مفهوم الثقة (انظر دلالة المصطلح) .
٢- أهمية الموضوع (أسباب عرضه) [حاول أن تستخلصها من أهداف الدرس ومن خلال العناصر التي تريد عرضها على السامعين !] .
٣- مجالات الثقة :

أولاً : الثقة بالله :

- الثقة بقضاء الله وقدره .
- الثقة بنصر الله .
- الثقة بثواب الله .
- الثقة بحفظ الله .

ثانيًا : الثقة بالمنهج والدعوة .

ثالثًا : الثقة بالدعاة إلى الله .

رابعًا : الثقة بالنفس .

٤- معاول هدم الثقة (بين الدعاة) .
٥- صورة من الواثقين .
٦- بشائر تعزز الثقة .
٧- لماذا إذن يتأخر النصر ؟
٨- من ثمار الثقة .

رابعًا : العرض :

١- مفهوم الثقة : انظر دلالة المصطلح .

٢- أهمية الموضوع (راجع ثالثًا) .

٣- مجالات الثقة :

للثقة مجالات واسعة متعددة ، وفي مقدمتها الثقة بالله - عزَّ وجلَّ - ، وهي التي تؤثر تأثيرًا بالغًا في المجالات الأُخرى ، وتعمق أبعادها في النفس ..

وإليك عرضًا موجزًا لبعض هذه المجالات :

أولاً : الثقة بالله - عزَّ وجلَّ - :

وهي أرفع وأشرف وأعلى مجالات الثقة ، وعليها يعتمد سواها ؛ ولهذا جعلها صاحب المنازل منزلة يحط عندها السائرون ركابهم ، ومنها يتزودون قوت قلوبهم .. فقال : « الثقة - أي بالله - سواد عين التوكل » . قال الإمام ابن القيم : « ومراده أن الثقة خُلاصة التوكل ولبُّه » [1] .

ومن معاني الثقة بالله وصورها :

أ - الثقة بقضاء الله وقدره :

« الاعتقاد الجازم أن الله تعالى إذا حكم بحكم ، وقضى أمرًا ؛ فلا مردَّ لقضائه ، ولا مُعقِّب لحكمه ، فمَنْ حَكَمَ اللهُ له بحكم ، وقسَمَ له بنصيب من الرزق أو الطاعة أو الحال ، أو العلم أو غيره ؛ فلابد من حصوله ، ومن لم يَقْسِمْ له ذلك فلا سبيل إليه البتة ، كما لا سبيل له إلى الطيران إلى السماء وحمل الجبال » [2] .

وعليه ، فإن الواثق بالله حقًّا يعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أصابه من خير فبفضل الله ورحمته ، وما أصابه من شر فبعدله وحكمته ؛ فيشكر في الأولى ، ويصبر للأُخرى ، كما قال ﷺ : « **عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كلَّه له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له** » [3] .

ب - الثقة بنصر الله :

اطمئنان المؤمن إلى نصر الله لأوليائه ، وتأييده لجنده وأصفيائه ، كما قال تعالى

---

(١) المدارج : ج٢ ، ص ١٦٢ .
(٢) المرجع السابق : ج٢ ، ص١٦٣ .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كله خير ، برقم : ٢٩٩٩ .

:
﴿ وَلَقَـدْ سَـبَقَتْ كَلِمَتُنَـا لِعِبَـادِنَا الْمُرْسَـلِينَ * إِنَّهُـمْ لَهُـمُ الْمَنصُـورُونَ * وَإِنَّ جُنـدَنَا لَهُـمُ الْغَالِبُونَ ﴾[1] ؛ فيثق بهذا الوعد المؤكد من القوي العزيز الجبار ، الذي يفعل ما يريد : ﴿ وَلَيَنصُـرَنَّ اللهُ مَـن يَنصُـرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ ﴾[2] ، ويطمـئن إلـى توفيقـه بوعـده ، كاطمئنان أمِّ موسى وهي تُلقي بفلذة كبدها في بحر تتخطفه المخاطر وتغشاه المهالك من كل جانب ؛ ثقةً منها بحفظ ربها له ، وتصديقًا لوعد الله لها : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَـاعِلُوهُ مِـنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[3]، وقد وعد الله عباده المؤمنين - كما وعد أمَّ موسى - بالنصر والتمكين ، والظهور والغلبة على الأعداء .

فحريٌّ بالدعاة أن يثقوا بهذا الوعد ، وأن يعملوا لاستكمال شروطه وأسبابه كما قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[4] . نزلت هذه الآية في بعض أصحاب النبي ﷺ عندما شكا مشقة جهاد العدو ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم ، قال أُبى بن كعب رضي الله عنه : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة ، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترون أنّا نعيش حتى نكون آمنينَ مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟! .. فنزلت : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُوا مِنْكُمْ ... ﴾ الآية [5] .

فالمؤمن يوقن أنه مهما تكالب الأعداء ، فإنهم مهازيل ضعفاء أمام قوة وبأس خالق الأرض والسماء : ﴿ وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾[6] ، وهذا اليقين هو الثقة التي تعصمه بإذن الله من اليأس والقنوط ، وتقيه من النكوص والسقوط . صحيح أننا ((

---

(1) سورة الصافات [١٧١ - ١٧٣] .
(2) سورة الحج [٤٠] .
(3) سورة القصص [٧] .
(4) سورة النور [٥٥] .
(5) أخرجه الحاكم : ج٢ ، ص ٤٠١ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وأقرَّه الذهبي ، قال الهيثمي في المجمع (ج٧ ، ص ٨٣) : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات ، وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول ، لمقبل الوادعي : ص (١٥١ - ١٥٢) ، وانظر أيضًا للتوسع ، الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج١٢ ، ص ٢٩٧ .
(6) سورة النساء [٨٤] .

نـــرى
القوة اليوم بيد أعدائنا ، والغلبة لهم علينا .. ولكن لا ننسى أن الله هو المتصرف بهذا الكون ، وعينه لا تغفل عن عباده المؤمنين ، ولن يرضى لهم دوام الذلة واستمرار القهر ، كما قال رسول الله ﷺ : ((**الميزان بيد الرحمن ، يرفع أقوامًا ، ويضع آخرين**)) [1] ، ولابد أن يرفعنا الله بعد أن وضعنا ؛ إذا رأى منّا صدق السعي لمرضاته)) [2] ، وقد يتأخر النصر لأسباب سنعرض بعضًا منها في مبحث (٧) - إن شاء الله .

ج - الثقة بثواب الله[3] :

فيثق الداعية أن الله - عزَّ وجلَّ - لا يدع عاملاً لدينه ، باذلاً لدعوته ، صابرًا على ما يصيبه في سبيلها ، محتسبًا لما يلقاه في نشرها ، إلا أثابه ، وكتب أجره وضاعفه له أضعافًا كثيرة على كل نفقة صغُرت أو كبرت ، قلَّت أو كثرت ، وعلى كل خطوة في غدوة أو روحة ؛ فالكل مكتوب ، والكل مأجور عليه بأضعافه ، كما قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[4] .. ((ألا والله ، إن الله ليجزل لنا العطاء ، وإنها والله لسماحة في الأجر والسخاء ، وإنه مما يخجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسولُ الله ﷺ من الشدة واللأواء في سبيل هذه الدعوة التي نحن فيها خلفاء ، وعليها أمناء)) [5] ، وقد جعل الله تعالى ثواب النفقة في سبيله أمورًا ثلاثة : ضمن الله له الأجر ، والأجر الجنة ، ونفى عنه الخوف بعد موته في المستقبل ، وأذهب عنه الحزن أو الألم على ما سلف في الدنيا ؛ لأنه يغتبط بآخرته ، فقال - عزَّ وجلَّ - عن المنفقين في سبيله : ﴿ **لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[6][7]..
ولله ما أروعها من كلمة قالها الواثق بربه حرام بن ملحان رضي الله عنه إثر طعنة رمح نفذ في أحشائه ، كما روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ((لما طُعن حرامُ بن ملحان يوم بئر معونة، قال بالدم هكذا ، فنضحه على وجهه ورأسه ، ثم قال : فزتُ وربِّ الكعبة))

---

(1) صحيح الجامع ، برقم : ٦٧٣٧ (صحيح) .
(2) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين ، خزندار : ص ٣٨ .
(3) انظر للتوسع ، من ركائز الدعوة ، مجدي الهلالي : ص (٧٤ - ٧٥) .
(4) سورة التوبة [١٢٠ - ١٢١] .
(5) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ج٣ ، ص ١٧٣٤ .
(6) سورة البقرة [٢٦٢] .
(7) التفسير المنير ، وهبة الزحيلي : ج٣ ، ص ٤٩ .

(١) ، فجعل الذي طعنه يعجب من تلك العقيدة التي جعلت أولئك الرجال الأفذاذ يرون مقتلهم وإراقة دمائهم في سبيلها فوزًا ! فأسلم ، وكان يقول : « مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم فسمعته يقول : فزت والله .. قال : فقلت في نفسي ما فاز ؟! أليس قد قتلتُه ؟! حتى سألت بعد ذلك عن قوله ؛ فقالوا : الشهادة ، فقلت : فاز لعمرو الله .. » (٢) ، ولقد حملتْهم ثقتهم بثواب الله ، وتطلعهم لمثوبته ورضاه على استطالة الدنيا ، ولو كانت مدة أكل تمراتٍ معدوداتٍ ، كما حدَّث بذلك الإمام مسلم عن يوم بدر فقال : « فَدَنَا المشركون . فقال رسول الله ﷺ : « **قوموا إلى جنةٍ عرضُها السمواتُ والأرض** » . قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول الله ، جنةٌ عرضها السموات والأرض ؟ قال : « **نعم** » . قال : بخٍ بخٍ ، فقال رسول الله ﷺ : « **ما يحملُك على قولك بخٍ بخٍ ؟** » قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاءَة أن أكون من أهلها . قال : « **فإنك من أهلها** » ، فأخرج تمرات من قَرنهِ ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياةٌ طويلة ، قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل » (٣) .

د - الثقة بحفظ الله :

وهي ثقةُ المؤمن بكفاية الله له ، وحمايته ودفاعهِ عنه ، كما قال تعالى : ﴿ **أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾(٤) ، أي اللهُ سبحانه وحده هو الذي يدفع عن عباده الآفات ، ويزيل عنهم المصائب والويلات « فمن كان معه الله فلا يخيفه أحد » ؛ لأن كل نفع أو ضر لا يصل إلا بإرادته تعالى . قال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادتها : أُحذِّرُكَها يا خالد ، فإن لها شدة لا يقوم لها شيء ، فعمدَ خالد إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس .

« وفي الآية إيماء إلى أنَّه سبحانه يكفي نبيَّه ﷺ دينه ودنياه ، ويكفي أتباعه أيضًا ، ويكفيهم شر الكافرين » (٥) .. فثقة الداعية بحفظ ربه - عزَّ وجلَّ - له تجعله لا يعبأ بتهديدات أهل الضلال له ، وتخويفهم إياه ؛ لأنَّه لا يملكُ الضرَ والنفعَ إلا الله .. كما قال إبراهيم - عليه السلام - ما ورد في قوله تعالى : ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ**

---

(١) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الرجيع ، ورعل وذكوان ، وبئر معونة .. ، برقم : ٤٠٩٢

(٢) انظر ترجمة جبار بن سلمى بن ملك في أسد الغابة : ج١ ، ص (٣٦٤ - ٣٦٥) ، قال ابن حجر ، الفتح : ج٧ ، ص ٣٨٩ ، « وقع في الطبراني من طريق ثابت عن أنس أن قاتل حرام بن ملحان أسلم»

(٣) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، برقم : ١٩٠١

(٤) سورة الزمر [٣٦] .

(٥) تفسير المراغي : ج٨ ، ص ٧ .

تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِه ﴾**(٢) .

وحفظ الله لعبده على نوعين :

- **حفظ الدين** : قال ابن رجب - رحمه الله - : « وفي الجملة ، فالله يحفظ على المؤمن الحافظ لحدوده دينه ، ويحولُ بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع الحفظ ، وقد لا يشعرُ العبد ببعضها ، وقد يكون كارهًا له ، كما قال في حق يوسف - عليه السلام - : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾**(٣)(٤) .

- **حفظ الدنيا** : كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله .. كتلك المرأة التي خرجت مجاهدةً في سبيل الله ، كما روى ذلك الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « كانت امرأة في بيت ، فخرجت في سريَّةٍ من المسلمين ، وتركت ثنتي عشرة عنزًا وصِيْصيتها (الصِّنارة التي يُغزل بها ويُنسج) كانت تنسج بها ، قال : ففقدت عنزًا لها وصيصيتها ، فقالت : يا ربِّ ، إنك قد ضَمِنْتَ لِمَنْ خرج في سبيلك أن تحفظ عليه ، وإني قد فقدتُ عنزًا من غنمي وصيصيتي ، وإني أُنْشدُك عنزي وصيصيتي . قال : وجعل رسول الله ﷺ يذكرُ شدَّة مناشدتها ربَّها تبارك وتعالى ، قال رسول الله ﷺ : « **فأصبحت عنزها ومثلها ، وصيصيتها ومثلها** » »(٥).

ثانيًا : الثقة بالمنهج والدعوة (٦) :

ونعني بها اطمئنان الداعية إلى سلامة منهجه ، ويقينه الجازم أن لا صلاح للبشرية ولا سعادة لها إلا بتطبيق هذا المنهج ؛ فإنفاذه في واقع الحياة ضرورة لا يمكن أن تقوم دونها حياة ، إلا حياة الحيرة والعناء ، والتخبط والاضطراب والشقاء .. ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾**(٧) .

ومن مقتضيات هذه الثقة :

أ – إيمانه بكمال منهجه وتمامه :

---

(١) سورة الأنعام [٨١] .
(٢) سورة يونس [١٠٧] .
(٣) سورة يوسف [٢٤] .
(٤) جامع العلوم والحكم : ج١ ، ص ٤٦٩ .
(٥) قال الهيثمي : ج٥ ، ص ٢٧٧ : رواه أحمد : ج٥ ، ص ٢٧٧ ، ورجاله رجال الصحيح .
(٦) انظر للتوسع ، الظلال : ج٢ ، ص ٩١٢ .
(٧) سورة طه [١٢٤] .

فليس فيه نقص ولا يعتريه خلل : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾(١) ؛ ولهذا فلا يقبل الترقيع فيه فضلاً عن الاستغناء عنه بغيره من المناهج الجاهلية . وعليه فأي تعديل أو عدول في جزئية من جزئيات المنهج شرخ في الثقة به ، بل وخروج عن دائرته .

ب – يقينه بشموليته :

فأحكامه تنْتظم جميعَ شؤونِ الحياة ؛ دقيقها وجليلها ، حربها وسلمها ، وتأخذ بيد الإنسان إلى الخير والصلاح والسداد والفلاح .. وعليه ، فالحكم في كل شأن من شؤون الحياة أو قضية من قضاياه لابد وأن تكون وفق هذا المنهج ؛ فهو قاعدة التصور ، ومنطلق الحكم .

ج – القبول والاستسلام :

فمن أعظم مقتضيات ثقته بمنهجه : الرضا بما أمر الله به ، أو نهى عنه ، والإذعان الكامل لأحكامه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾(٢) ، ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(٣) .

- هل تستحضر أمثلة لتأكيد معنى القبول والاستسلام ؟ اذكرها لإخوانك [أو اذكريها لأخواتك ، مثل : التزام الحجاب ، ..] .

د – الالتزام بالمنهج والدعوة إليه :

ومن مقتضيات الثقة : الالتزام بهذا المنهج ، والدعوة إليه ، والثبات عليه ، والصبر على ما يناله بسببه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٤) .

ثالثًا : الثقة بالدعاة العاملين المخلصين :

ثقة الداعية بإخوانه الدعاة ، وحسن مقصدهم ، وسلامة مسلكهم ، من أعظم حقوق الأخوة التي تجمعهم ، وتؤلف بينهم ؛ وهي من أكبر أسباب قوتهم وتكاتفهم .

---

(١) سورة المائدة [٣] .
(٢) سورة الأحزاب [٣٦] .
(٣) سورة النساء [٦٥] .
(٤) سورة يوسف [١٠٨] .

ومن مظاهر ثقة الداعية بإخوانه : (مهم جدًّا) :

أ - التعاون معهم على البر والتقوى ، وطاعتهم بالمعروف والاستجابة لما يكلفونه به من مسؤوليات وواجبات .

ب- الأخذ بصالح نصحهم وتوجيهاتهم .

ج - الحرص على استشارتهم فيما يُشْكلُ عليه ، أو يَهِمُّ به من الأعمال التي لها أثر في مسيرة الدعوة .

د - إعذارهم عند تقصيرهم في حقه ، وخطئهم تجاهه ، مع تذكر فضلهم عليه ، وإحسانهم إليه ، وأثرهم في صلاح حاله وزكاة نفسه وطهارة قلبه .

هـ- حمل كلامهم على أحسن محمل من الخير كما قال عمر ﷺ : « ولا تظنّن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا ، وأنت تجد لها في الخير محملاً» [1] .

و - رفض شبهات الحاقدين والمغرضين ، الذين يحاولون أن يشوّهوا صورة الدعاة ، ويطعنوا في مقاصدهم ، ويخلخلوا وحدتهم .

قال الإمام ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ** ﴾[2] ، قال : « نزلت في أبي أيوب الأنصاري وامرأته - رضي الله عنهما - فإن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب .. أما تسمع ما يقول الناس في عائشة - رضي الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أمَّ أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ** ﴾[3] ، كما قال أبو أيوب وصاحبته » [4] .

رابعًا : الثقة بالنفس :

كما أن الغرور وحُبَّ الظهور قاصم للظهور ، فإن ضعف الثقة بالنفس مرض يؤدي للخمول والتكاسل والفتور ؛ لأنه يعطل الطاقات ويجمّد الملكات ؛ فإذا أراد صاحبه أن يقوم بعمل الخير أقعده بوساوس واهية وتأويلات فاسدة ، مثل : إنك لم

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير ، للرفاعي : ج٤ ، ص٢٢١ ، راجع للتوسع ، السلوك الاجتماعي في الإسلام ، لحسن أيوب. ص (٩٢ - ٩٤) .
(2) سورة النور [١٢] .
(3) سورة النور [١٢] .
(4) مختصر تفسير ابن كثير ، للرفاعي : ج٣ ، ص٢٦٦ .

تبلغ بعدُ منزلة من يستطيع أن يفعل هذا العمل ! .. هناك ممن حولك من هم أولى بهذا وأقدر عليه ! .. إلخ ، ولا يزال به حتى يثبطه ويقعده .. والمؤمن الحق هو الذي لا يذعن لهذه الوساوس ، ولا يتخاذل أمام تلك الدسائس ؛ لأنه واثق بنفسه ، يستمد تلك الثقة من إيمانه بربه ، وانتسابه لدعوته ، والتزامه بمنهجه ، له شبه في هذه الثقة التي تدفعه للعمل من هدهد سليمان ، الذي لم يقعده عن الدعوة إلى الله وجود جنودٍ هم أشدُّ منه قوةً وأسرعُ حركةً ؛ فهو لا يَحْقِرُ أيَّ عملٍ صالحٍ يمكن أن يقدِّمَه لخدمة دينه ، ولإنقاذ نفسه ، مهما كان في عينه صغيرًا ، وقد قال ﷺ : ((**اتقوا النار ولو بشق تمرة**)) [١] .. فماذا عسى أن يفعل شق تمرة بفقير قد عضّه الجوع وألحفته الحاجة والعوز ؟! .. ونهى ﷺ أن يحقر المرء أيَّ عمل صالح مهما كان صغيرًا فقال : ((**اتق الله – عزَّ وجلَّ – ولا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ، ولو أن تُفرِغَ من دلوك في إناء المستسقي**)) [٢] .

٤- معاول هدم الثقة [٣] :

الثقة بين الدعاة إلى الله شرط لازم في كل خطوة يخطونها في طريق دعوتهم ، وعامل مهم في نجاحهم في مهمتهم ، وسبب عظيم من أسباب قوتهم ووحدتهم ؛ ولهذا حرص الشيطان وجنده على زعزعتها في صدور المؤمنين حتى تختلف قلوبهم ، ويتضعضع صفهم فتذهب ريحهم .. وإليك بعض معاول الشيطان في هدم الثقة :

٤ - ١ : سوء الظن :

وله أثر كبير في إضعاف الثقة بين المؤمنين ؛ ولهذا نهى الإسلام عنه بين المسلمين عمومًا ؛ فما بالك بين الدعاة المصلحين ؟! . فالمعروفون بصلاح حالهم ، واستقامة سيرتهم ، وعملهم الدؤوب في خدمة دينهم ، لا يُساء الظن بهم حتى ولو وقع منهم تقصير في معروف ، أو تجاوز لمباح ، أو خدش لمروءة ، كل ذلك ليس مسوّغًا لسوء الظن بهم ، فضلاً عن احتقارهم أو الحطِّ من شأنهم ، بل الواجب في مثل هذه الحال النصح والإرشاد بالأسلوب الأحكم ، والطريق الأرفق .

قال كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة توبته [وكعب رضي الله عنه من الذين شهدوا ليلة العقبة فبايع رسول الله ﷺ على الإسلام] : ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك وهو

---

(١) رواه البخاري ، في كتاب الأدب ، باب طيب الكلام ، برقم : ٦٠٢٣ ، ورواه مسلم في الزكاة ، باب الحث على الصدقة .. ، برقم : ١٠١٦ .
(٢) رواه أحمد : ج٥ ، ص٦٣ ، قال العراقي - رحمه الله - : ج٣ ، ص١٠٥ : رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد ، وانظر الصحيحة للألباني ، برقم : ٧٧٠ .
(٣) انظر للتوسع : الثقة بالله تعالى وأثرها في العمل الإسلامي ، إعداد اللجنة الثقافية في مؤسسة الكلمة ، إشراف الشيخ جاسم مهلهل وأحمد القطان : ص (٣٩ - ٤١) .

جالس في القوم بتبوك : ((**ما فعل كعبُ بنُ مالك ؟**)) ، فقال رجل من بني سَلِمَةَ : يا رسول الله حَبَسهُ بُرْداهُ والنظرُ في عِطْفيه ، فقال له معاذ بن جبلٍ ﷺ : بِئْسَ ما قُلتَ ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا ؛ فسكت رسول الله ﷺ [1] .

٤ - ٢ : النقد غير البناء :

التحدث في المجالس العامة والخاصة بأخطاء الدعاة مما يضعف الثقة في القلوب ويوهنها ، وبعض الناس يَضْعُفُ عن العمل فيقعد في مجلسه متكئًا على أريكته في فريق من القاعدين لغير ضرر ، ثم يترك للسانه العنان في انتقاص الدعاة العاملين ، وتصيّد أخطائهم ، وتضخيم عثراتهم وسقطاتهم ؛ ولهذا ينبغي التحذير من مجالسة الفارغين ، ومصاحبة المثبطين والمعوِّقين .. مع ضرورة بيان آداب النقد وضوابطه[2] ، وحث الدعاة إلى الالتزام بها ، والحرص عليها .

٤ - ٣ : التوسع في الرخص والوقوع في الشبهات :

الإغراق في تتبع الرخص من القدوات ، وعدم اكتراثهم في مقارفة الشبهات مُؤذِنٌ بزعزعة الثقة فيهم ، وذهاب هيبتهم ومكانتهم في قلوب العامة والخاصة .

ولهذا حثَّ رسول الله ﷺ أتباعه على البعد عن الشبهات فقال ﷺ : ((**الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما مَشبَّهات لا يعلمُها كثيرٌ من الناس . فمن اتقى المُشبَّهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشُّبهات كراع يرعى الحمى يوشكُ أن يواقعه . ألا وإنَّ لكل ملك حمىً ، ألا إنّ حمى اللهِ في أرضه محارمُه**)) [3] .

٤ - ٤ : القدوة المهزوزة :

إن مخالفة الداعية بعمله لما يدعو إليه بلسانه من أعظم معاول هدم الثقة في نفوس مَنْ يدعوهم ، بل ومؤذن لمقت الناس له ، واحتقارهم إياه ؛ ذلك لأنهم يسمعون قولاً جميلاً ويشهدون فعلاً قبيحًا .. ولهذا أنكر الحق - عزَّ وجلَّ - على هذا الصنف من الدعاة فقال :

---

(1) رواه البخاري في المغازي ، باب حديث كعب بن مالك ، برقم : ٤٤١٨ ، ورواه مسلم في التوبة ، باب توبة كعب بن مالك ، برقم : ٢٧٦٩ ، وانظر الفتح في فوائد الحديث : ج٨ ، ص ١٢٤ .

(2) سنتوسع في مفهوم النقد وضوابطه في كتاب ((القائد)) إن شاء الله .

(3) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، برقم : ٥٢ ، ورواه مسلم في كتاب المساقاة : باب أخذ الحلال وترك الحرام ، برقم : ١٥٩٩ ، وللتوسع في شرح الحديث ، انظر الفتح : ج١ ، ص ١٢٧ .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

((إن آفة (رجال الدين) - حين يصبح حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة - أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، يأمرون بالخير ولا يفعلونه ؛ ويدعون إلى البر ويهملونه ؛ ويحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى ، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص ، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين ؛ لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان ، كما كان يفعل أحبار يهود !

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه هي الآفة تصيب النفوس بالشك ، لا في الدعاة وحدهم ، بل في الدعوات ذاتها ، وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم ؛ لأنهم يسمعون قولاً جميلاً ويشهدون فعلاً قبيحًا ؛ فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل ، وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة ، وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان ، ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين .

إن الكلمة لتنبعث ميتة ، وتصل هامدة ، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة ، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها ، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقًّا إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيمًا واقعيًّا لما ينطق به ؛ عندئذ يؤمن الناس ، ويثق الناس ، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق .. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها ، وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها .. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة ؛ لأنها منبثقة من حياة)) [2] .

٥- صور من الواثقين :

(صور من الواثقين بالله) [3] :

٥ - ١ : كلا .. إنَّ معيَ ربي سيهدين :

قال الله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة [٤٤] .
(٢) الظلال : ج١ ، ص ٦٨ ، وانظر للتوسع ، الدعوة قواعد وأصول ، لجمعة أمين : ص ١٠٩ .
(٣) اقتصرنا في الأمثلة على الثقة بالله ؛ لأنها أساس كل مجالات الثقة الأخرى ، ويمكنك أن تسترسل في الأمثلة من خلال سير السلف الصالح ومن الواقع أيضًا .
(٤) سورة الشعراء [٦٠ - ٦٦] .

لقد أسرى موسى بعباد الله ، بوحي من الله وتدبير ؛ فأتبعهم جنود فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبطر ، ثم ها هو ذا المشهد يقترب من نهايته ، والمعركة تصل إلى ذروتها .. إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين ، ولا هم يملكون خوضه ، وما هم بمسلحين ، وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح ، يطلبونهم ولا يرحمون !

وقالت دلائل الحال كلها : أن لا مفر ، والبحر أمامهم ، والعدو خلفهم .. قال أصحاب موسى : ((إنَّا لمدركون)) .

وبلغ الكرب مداه ، وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين ! ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه ، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه ، واليقين بعونه ، والتأكد من النجاة ، وإن كان لا يدري كيف ؛ فهي لابد كائنة ، والله هو الذي يوجهه ويرعاه .

((قال : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ . (كلا) في شدة وتوكيد ، كلا لن نكون مدركين . كلا لن نكون هالكين ، كلا لن نكون مفتونين ، كلا لن نكون ضائعين : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ بهذا الجزم والتأكيد واليقين .

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون : ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾ .

ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب بعصاه البحر . فهذا مفهوم ، إنما يعجل بالنتيجة . ﴿ **فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾ .

ووقعت المعجزة ، وتحقق الذي يقول عنه الناس : مستحيل ؛ لأنهم يقيسون سُنَّةَ اللهِ على المألوف المكرور ، والله الذي خلق السُّنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد .

وقعت المعجزة ، وانكشف بين فرقي الماء طريق ، ووقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم ، واقتحم بنو إسرائيل ، ووقف فرعون مع جنوده مبغوتًا مشدوهًا بذلك المشهد الخارق ، وذلك الحادث العجيب .

ولابد أن يكون قد وقف مبهوتًا ، فأطال الوقوف ، وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم في طريق مكشوف قبل أن يأمر جنوده بالاقتحام وراءهم في ذلك الطريق العجيب .

وتم تدبير الله ؛ فخرج بنو إسرائيل من الشاطئ الآخر ، بينما كان فرعون وجنوده بين فرقي الماء أجمعين ، وقد قربهم الله لمصيرهم المحتوم : ﴿ **وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ**

الآَخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآَخَرِينَ ﴾!! .

ومضت آية في الزمان ، تتحدث عنها القرون ؛ فهل آمن بها الكثيرون ؟ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١) (٢).

وكلمات موسى - عليه السلام - لقومه في الثقة بالله والاطمئنان إلى نصره وحفظه تتكرر على ألسنة الواثقين من الأنبياء والصالحين ؛ فهذا هو سيّد الأنبياء يقول لصاحبه يطمئنه : ﴿ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾(٣)(٤) .. وهكذا ينبغي أن نكون !

٥ - ٢ : قالت هاجر : إذن لا يضيعنا :

هاجر هي زوج نبي الله إبراهيم - عليه السلام - وقد جسّدت لنا إيمان المرأة المسلمة بربها وثقتها به في أوضح صورة يوم أن تركها إبراهيم - عليه السلام - وابنها الرضيع في وادٍ مقفرٍ ، فاطمأنت إلى حفظ ربها وكفايته ..

قال ابن عباس ﷺ : « أول ما اتخذ النساءُ المِنْطَقَ من قِبلِ أمّ إسماعيلَ ، اتخذت منطقًا لِتُعفّي أثرها على سارة ، ثم جاءَ بها إبراهيمُ وبابنها إسماعيل وهي تُرضِعُهُ حتى وَضَعهما عندَ البيتِ عند دوحةٍ فوقَ زمزم أعلى المسجدِ ، وليس بمكةَ يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماءٌ ، فوضعهما هنالكَ ووضعَ عندهما جِرابًا فيه تمرٌ ، وسقاءً فيه ماءٌ ، ثم قَفَّى إبراهيمُ مُنْطَلِقاً ، فتبعتهُ أمُّ إسماعيلَ فقالت : يا إبراهيمُ أين تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليسَ فيه إنسٌ ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفتُ إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يُضيّعنا ، ثم رجعت » (٥).

٥ - ٣ : وصدق الله ورسولــه :

« صورة الإيمان الواثق ، وصورة المؤمنين المشرفة الوضيئة ، في مواجهة الهول ، وفي لقاء الخطر . الخطر الذي يزلزل القلوب المؤمنة ، فتتخذ من هذا الزلزال مادةً للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾(٦) .

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة ، وكان

---

(١) سورة الشعراء [٦٧] .
(٢) الظلال : ج٥ ، ص (٢٥٩٨ - ٢٥٩٩) .
(٣) سورة التوبة [٤٠] .
(٤) انظر الظلال : ج٣ ، ص (١٦٥٦ - ١٦٥٧) .
(٥) رواه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب يزفّون النَّسلانُ في المشي ، برقم : ٣٣٦٤ .
(٦) سورة الأحزاب [٢٢] .

الكرب الذي واجهوه من الشدة ، وكان الفزع الذي لقوه من العنف ، بحيث زلزلهم زلزالاً شديدًا ، كما قال عنهم أصدق القائلين : ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا** ﴾[1] .

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة ، والرسول ﷺ يحس حالة أصحابه ، فيقول : « **مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ (يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة) أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة** » .. ومع هذا الشرط بالرجعة ، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله في الجنة ، فإن أحدًا لا يلبي النداء ، فإذا به ﷺ يذكر حذيفة بالاسم ، قال : فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ! .. ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة .. ولكن كان إلى جانب الزلزلة ، وزوغان الأبصار ، وكرب الأنفاس.. كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله ، والإدراك الذي لا يضل عن سنن الله ، والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن ، وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها ؛ ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببًا في انتظار النصر ؛ ذلك أنهم صدقوا قول الله سبحانه من قبل : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾[2] ، وها هم أولاء يُزَلْزَلُون ؛ فنصر الله إذن منهم قريب ! ومن ثم قالوا : ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾[3] »[4] .

٦ - بشائر تعزز الثقة بنصر الله لأوليائه :

لقد بشّر الصادق المصدوق ﷺ أُمته ببشائر تذيب اليأس ، وتذهب القنوط ، وتقوّي الثقة والأمل في قلب كل مسلم بغلبة هذا الدين وعلوّه ورفعة أهله مهما اشتد الضيق واجتمعت الكروب وتكالبت الأمم ؛ وتقرر في ضميره أن دينه ظاهر على جميع الأديان ، غالب على مرور الأزمان : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾[5] ؛ فمهما حاول أهل الكفر والضلال - على اختلاف مللهم ونحلهم - الصدَّ عن سبيل الله ، فإن الخسارة مآلهم ، والهزيمة عاقبتهم

---

(١) سورة الأحزاب [١١] .
(٢) سورة البقرة [٢١٤] .
(٣) سورة الأحزاب [٢٢] .
(٤) الظلال : ج٥ ، ص ٢٨٤٣ .
(٥) سورة الصف [٩] .

، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾[1] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[2] ..

ومما ذكره رسول الله ﷺ في البشائر :

٦ - ١ : انتشار الإسلام وتوسع فتوحاته :

قال ﷺ : ((**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أُمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لِي منها**)) [3] .

٦ - ٢ : العلو للإسلام والسيادة للمسلمين :

قال ﷺ : ((**الإسلام يعلو ولا يُعلى**)) [4] . هذا هو الأصل ، وقد يضعف المسلمين حينًا من الدهر فيعلو الباطل وأهله ؛ ولكنه علو كعلو الزبد ، ما يلبث أن يذهب جفاءً .

٦ - ٣ : بقاء الإسلام وزيادة أهله :

استعصاء الإسلام وأتباعه على الاستئصال حقيقة قطع بها الوحي ، بل وبشّر - عليه الصلاة والسلام - بزيادته واتساع رقعته وكثرة أهله فقال ﷺ : ((**.. ولا يزال الإسلام يزيد ، وينقص الشرك وأهله ، حتى تسير المرأتان لا تخشيان إلا جورًا ، والذي نفسي بيده لا تذهب الأيام والليالي حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم**)) [5] .

٦ - ٤ : البشارة بالتمكين للإسلام في الأرض والنصر والغلبة لأهله :

قال ﷺ : ((**بَشِّرْ هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ..**))[6].

٦ - ٥ : الطائفة المجاهدة القائمة على الحق :

أخبر - عليه الصلاة والسلام - بوجود طائفة من المجاهدين على اختلاف

---

(1) سورة الأنفال [٣٦] .
(2) سورة النساء [١٢٢] .
(3) رواه مسلم ، في كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، برقم : ٢٨٨٩ .
(4) صحيح الجامع ، برقم : ٢٧٧٨ ، وحسنّه ، وقال في الإرواء (ج٥ ، ص ١٠٩) : وجملة القول أن الحديث حسن مرفوع بمجموع طريقي عائذ ومعاذ ، وصحيح موقوف (يعني موقوفًا على ابن عباس - رضي الله عنهما) .
(5) صحيح الجامع ، برقم : ١٧١٦ ، وصححه .
(6) رواه أحمد : ج٥ ، ص ١٣٤ ، وهو في صحيح الجامع ، برقم : ٢٨٢٥ ، وصححه .

ثغورهم تقوم على الحق ، وتثبت عليه ، لا يضرُّها من خذلها ولا من خالفها ، وهي باقية لا تُستأصل شأفتها ولا تُكسر شوكتها إلى قيام الساعة : ((**لن يبرح هذا الدين قائمًا ، يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة**)) [1] .. وصفهم ﷺ بالظهور على من ناوأهم ، والقهر لمن عاداهم [2] .

إن تَذَكُّر هذه البشائر والتذكيرَ بها مما يرسخ الثقة في نفوس الدعاة خصوصًا والمسلمين عمومًا ، وإن لهذه التذكرة لأثرًا في القلوب ؛ فتندفع إلى العمل ، يشدوها الأمل بالنصر والتمكين والغلبة لهذا الدين [3] .

٧ - لماذا إذن يتأخر النصر ؟

إذا كانت هذه البشائر كلها قد دلّت على أن النصر للإسلام والعلو للمؤمنين ؛ فلماذا إذن نرى في واقعنا اليوم ضعف المسلمين وذلتهم وهوانهم ؟! وربما نطرح السؤال بصيغة أكثر وضوحًا ، وهي : لماذا إذن تأخر النصر الذي بشّرت به هذه النصوص الصريحة من القرآن والسنة ؟

لقد ذكر سيد قطب - رحمه الله - بعض الأسباب التي قد تؤخر النصر ، وتحول دونه فقال : ((النصر قد يبطئ على الذين ظُلموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله :

٧ - ١ : قد يبطئ النصر ؛ لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية ؛ وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات . فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكًا لعدم قدرتها على حمايته طويلاً ! .

٧ - ٢ : وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ؛ فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا ، لا تبذله هيّنًا رخيصًا في سبيل الله .

٧ - ٣ : وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر ؛ إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ، ثم تَكِلُ الأمر بعدها إلى الله .

٧ - ٤ : وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ؛ ولا تجد لها سندًا إلا الله ، ولا متوجهًا إلا إليه وحده في الضراء ، وهذه

---

(1) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب : قوله ﷺ : ((**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ..**)) ، برقم : ١٩٢٢ .
(2) انظر الأحاديث التي رواها الإمام مسلم في باب : ٥٣ ،(الأحاديث : ١٩٢٣ ، ١٩٢٤) .
(3) يراجع للتوسع : المستقبل لهذا الدين ، لسيد قطب ؛ الأمل وأثره في حياة الأمة ، لمحمد أبو صعيليك .

الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله ؛ فلا تطغى ، ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير ، الذي نصرها به الله .

٧ - ٥ : وقد يبطئ النصر ؛ لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته ؛ فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئًا من المشاعر الأخرى التي تلابسه ، وقد سُئل رسول الله ﷺ : الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل لِيُرى ؛ فأيُّهم في سبيل الله ؟ فقال ﷺ : ((**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**)) [1].

٧ - ٦ : كما قد يبطئ النصر ؛ لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرّد الشر منها ليتمحض خالصًا ، ويذهب وحده هالكًا ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار ! .

٧ - ٧ : وقد يبطئ النصر ؛ لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تمامًا ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارًا من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تتكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريًا للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية ! .

٧ - ٨ : وقد يبطئ النصر ؛ لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذٍ للقيت معارضة من البيئة ، لا يستقر لها معها قرار ؛ فيظل الصراع قائمًا حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر، ولاستبقائه !.

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطئ النصر ؛ فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية))[2].

٨ - من ثمار الثقة بالله [3] :

إن ثمار الثقة بالله تعالى كثيرة لا تحصى ؛ لأن الله يجازي المحسن إحسانًا ، ومن هذه الثمار:

- **الثمار الدنيوية** :

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الجهاد والسير .
(2) الظلال : ج٤ ، ص (٢٤٢٦ - ٢٤٢٧) .
(3) هذا المبحث ((من ثمار الثقة بالله)) من كتاب الثقة بالله وأثرها في العمل الإسلامي : ص (٤١ - ٤٣) .

٨ ـ ١ : الرضا بقضاء الله تعالى وقدره ، كما قال المصطفى ﷺ : ((**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا**))[1] ؛ فهو يعيش قرير العين ، راضيًا بقضاء الله ؛ لأن الله يحفظه ويعينه .

٨ ـ ٢ : اطمئنان النفس وسكينتها بتعرفها على خالقها وهدايته لها ؛ فهو مطمئن النفس ؛ لأنه يعرف كيف جاء ، وإلى أين يصير ؟ وما هو دوره في هذه الحياة ؟ فهو يعيش لهدف : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾[2] ، وهو يقوم بهذا الدور ، وهو سيعود إلى ربه فيجازيه على ما قدم : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾[3] ، ﴿ **ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[4] .

٨ ـ ٣ : عدم الندم على ما فات من الدنيا ؛ فهو يعلم أن ما عند الله خير وأبقى ، وأنه مهما قدم من عمل صالح فهو سيجده في ميزانه ، ولا يظلم ربك أحدًا : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** ﴾[5] . وهناك ثمار أخرى كثيرة .

- **أما الثمار الأخروية :**

وهي الثمار الحقيقية ، ألا وهي جنات النعيم ؛ فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

واسمع إلى قول الله تعالى ، يبين جزاء من وثق بوعده ونصره : ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[6].

خامسًا : التطبيقيات العملية لتأكيد معاني الدرس :

١- قراءة الآيات والأخبار والآثار المبشرات بنصر هذا الدين ، وعلو مكانته ، والتمكين له في الأرض ؛ والاعتقاد بها اعتقادًا جازمًا ، لا يقبل الشك أبدًا ،

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كله خير ، برقم : ٢٩٩٩ .
(٢) سورة الذاريات [٥٦] .
(٣) سورة آل عمران [١٨٥] .
(٤) سورة الجمعة [٨] .
(٥) سورة الزلزلة [٧] .
(٦) سورة الزلزلة [٧] .

ولا تساوره الوساوس مطلقًا .

٢- حصر بعض الأحداث التي وقعت في العالم ، والتي لها دلالات على ظهور الإسلام واتساع رقعته :

- الدعوة في أوروبا وأمريكا .
- الدعوة في تركيا (كيف كانت وكيف أصبحت ؟) .
- المقارنة بين حال الناس (بما فيهم الدعاة والعلماء) في الفترة التي أعقبت سقوط الخلافة العثمانية ، وحالهم الآن من حيث تمسكهم بالإسلام والدعوة إليه .
- الحركات الجهادية : كحماس ، ومواقفها المشرفة في التصدي لليهود ، مع إلقاء كلمة في هذا الموضوع .

٣- تعميق وتقوية مظاهر الثقة بين الداعية وإخوانه :

أ - استشارتهم في قضايا الدعوة والتربية .

ب - الذب عن أعراضهم ، وعدم تصيّد أخطائهم مع النصح لهم بالحكمة .

ج - الاستجابة لهم بالمعروف ، والمبادرة إلى تنفيذ واجبات الدعوة وتكاليفها .

٤- الصبر والاحتساب على ما يقدره الله من الابتلاءات ، وسؤاله - عزَّ وجلَّ - أن يجعلها كفّارة للسيئات ، رافعة للدرجات .

٥- الإعراض عن مجالسة المثبطين ، ومجانبة الحديث إلى أهل الشبه والمعوّقين : ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾ [1] .

- الخبال : الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف .
- وقوله تعالى : ﴿ **ولأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ** ﴾ ، المعنى : لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد ، والإيقاع.
- ﴿ **يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ** ﴾ : والمعنى يطلبون لكم الفتنة ؛ أي الإفساد والتحريض .
- ﴿ **وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾ : وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم [2] ، (وهو المعنى الذي رجّحه ابن كثير - رحمه الله - وقال : وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين) .

سادسًا : المراجع :

---

(1) سورة التوبة [٤٧] .

(2) انظر الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج٨ ، ص ١٥٧ ، ومختصر تفسير ابن كثير ، للصابوني : ج٢ ، ص ١٤٦ .

١- معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، دار الجيل .
٢- لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف .
٣- مدارج السالكين ، ابن القيم ، دار الجيل .
٤- صحيح الإمام مسلم ، الإمام مسلم ، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث .
٥- صحيح الجامع الصغير وزياداته ، الألباني ، المكتب الإسلامي .
٦- هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًّا ، محمود محمد الخازندار ، دار طيبة ، ط١ .
٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، الهيثمي ، دار الكتاب العربي .
٨- الصحيح المسند من أسباب النزول ، مقبل الوادعي ، مكتبة ابن تيمية ، ط٤ .
٩- من ركائز الدعوة ، مجدي الهلالي ، دار البشير ، طبعة ١٤١١ هـ .
١٠- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط٧ .
١١- التفسير المنير ، وهبة الزحيلي ، دار الفكر ، ط١ .
١٢- فتح الباري ، الحافظ ابن حجر ، دار المعرفة .
١٣- أُسد الغابة ، ابن الأثير ، دار إحياء التراث العربي .
١٤- المصفى من صفات الدعاة ، عبدالحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .
١٥- تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية .
١٦- جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ، تحقيق الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ .
١٧- مختصر تفسير ابن كثير ، الرفاعي ، مكتبة المعارف ، طبعة ١٤١٠ هـ .
١٨- السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ، دار الندوة الجديدة ، ط٤ .
١٩- السلسلة الصحيحة ، الألباني ، المكتب الإسلامي .
٢٠- الدعوة قواعد وأصول ، جمعة أمين عبد العزيز ، دار الدعوة ، ط٢ .
٢١- المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ، دار الشروق .
٢٢- الأمل وأثره في حياة الأمة ، محمد عبد الله أبو صعيليك ، دار القلم ، ط١ .
٢٣- الجامع لأحكام القرآن القرطبي ، دار إحياء التراث العربي .
٢٤- دروس في العمل الإسلامي ، سعيد حوى ، مكتبة الرسالة الحديثة ، ط١ .
٢٥- المتساقطون ، فتحي يكن ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ .
٢٦- الرسول ﷺ ، سعيد حوى ، دار الكتب العلمية ، ط٤ .
٢٧- الجهاد : ميادينه وأساليبه ، محمد نعيم ياسين ، مكتبة الزهراء .
٢٨- الثقة بالله تعالى وأثرها في العمل الإسلامي ، اللجنة الثقافية في مؤسسة الكلمة ، مؤسسة الكلمة ، طبعة ١٤١٣ هـ .
٢٩- طريق الدعوة الإسلامية ، جاسم مهلهل ياسين ، دار الدعوة ، ط١ .

٣٠- مشكلات وحلول في حقل الدعوة ، عبد الحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .
٣١- آفات على الطريق ، السيد محمد نوح ، دار الوفاء ، ط١ .
٣٢- موسوعة أخلاق القرآن ، أحمد الشرباصي ، دار الرائد العربي ، ط٣ .
٣٣- الإحكام بين مراحل العمل في دعوة النبي ﷺ ، يوسف محيي الدين أبو هلاله ، دار العاصمة ، طبعة ١٤١١ هـ .
٣٤- موسوعة عظماء حول الرسول ، خالد العك ، دار النفائس ، الطبعة الأولى .
٣٥- مقومات الداعية الناجح ، علي بادحدح ، دار الأندلس الخضراء ، ط١ .

جدية

الجدية

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغة :

يقول ابن منظور - يرحمه الله - : « الجدُّ : نقيض الهَزْلِ . جَدَّ في الأمر يَجِدُّ وَيَجُدُّ بالكسر والضم ، جدًّا ، وأَجَدَّ : حَقَّقَ . وعذابٌ جِدٌّ : مُحقّقٌ مبالغ فيه .. وجَدَّ في أمره يَجِدُّ جَدًّا وأجدَّ : حقّقَ .

- والجِدُّ : الاجتهادُ في الأمور ، وفي الحديث : **كان رسول الله ﷺ ، إذا جَدَّ في السير جمع بين الصلاتين ، أي اهتم به وأسرع فيه** ..

ويقال : جَدَّ فلانٌ في أمرِهِ إذا كان ذا حقيقةٍ ومضاءٍ » [1] .

وبهذا يتبين أن الجِدَّ يتضمن معنى :

- الاجتهاد في الأمر .
- والمبالغة في تحقيقه .
- والاهتمام به .
- والإسراع في إنجازه .

ب - اصطلاحًا :

والتعريف الاصطلاحي للجدية - في الدعوة والتربية - هو الذي يجمع المعاني اللغوية المذكورة آنفًا ، ويمكن صياغتها بالتعريف التالي :

- الجدِّية : هي الاجتهاد في الأمر ، والاهتمام به ، والمبالغة في تحقيقه حتى نصل إلى الهدف .
- فالاجتهاد في الأمر : يتضمن بذل الطاقة والوسع . (والأمر نعني به كل أمر يقربنا إلى الله - عز وجل -) .
- والاهتمام به : يتضمن الحرص عليه ومراقبة العمل وتصويبه .
- والمبالغة في تحقيقه : تتضمن نفي التردد والقعود في وسط الطريق ، أو

(1) لسان العرب : ج١ ، ص ٥٦٤ ، مادة : جدد .

التواني عنه والتكاسل فيه .

- حتى نصل إلى الهدف : يتضمن الديمومة على العمل حتى يتحقق المقصود منـــه (وهو الهدف أو الغاية) .

فكل هذه المعاني مرادة في حديثنا عن الجِدِّية .

ج - المصطلحات المرادفة أو القريبة منه :

الهمة العالية ، والعمل الصالح ، والإيجابية .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من خلال هذا الدرس إلى :

١- تأصيل صفة الجدية عند الداعية ، مع الحثِّ على أسباب قوتها ونمائها ، والتحذير من معاول هدمها وعوامل ضعفها ووهنها .
٢- تعويد المسلم على حسن استغلاله لأوقاته ، واستثماره لمواهبه وطاقاته ؛ للارتقاء بنفسه ، وخدمة دينه ، ونشر دعوته .
٣- تكوين الوعي بأهمية وضع الخطط والبرامج للوصول إلى الأهداف المأمولة والغايات المرجوة ، مع ضرورة واقعيتها ومراعاتها للوقت والطاقة .
٤- غرس روح المبادرة للعمل والتسابق فيه بعزم وهمّة عالية ، وإيثار الأعمال على الأقوال : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾ [1] ، ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ**﴾ [2] .
٥- التأسي بالجادّين من رجال الإسلام والاقتداء بهم ، وشحذ الهمم ، وإيقاد الحماس بذكر سيرهم وما كانوا عليه من جِدٍّ وعزيمة ، وهمة عالية وقوة شكيمة .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- دلالة المصطلح (ماذا نعني بالجدِّية ؟) .
٢- لماذا الحديث عن الجدِّية ؟
٣- الدعوة إلى الجدّية :

---

(1) سورة الصف [٢] .
(2) سورة آل عمران [١٣٣] .

أ - في الكتاب .
ب - في السنة .
ج - في أقوال السلف .
٤- بعض مجالات الجدِّية .
٥- من مظاهر الجدِّية .
٦- كيف تكون جادًّا ؟
٧- معاول هدم الجدِّية .
٨- نماذج من الجادِّين .
٩- قواعد يسير عليها الجادّون .
١٠-مسائل في الجدِّية .

رابعًا : العرض :

١- ماذا نعني بالجدِّية ؟ (انظر دلالة المصطلح) .
٢- لماذا الحديث عن الجدِّية ؟

٢ - ١ : لأن العمر قصير ، واللبث يسير ؛ فيحتاج المرء - والحال هذه - إلى الجد والاجتهاد ليدرك المراد ، ويبادر ليسعد يوم الحصاد .

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدًا

ندمْتَ على التفريط في زمن البذر[1]

ولهذا أمرنا رسول الله ﷺ بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة فقال ﷺ : ((**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع اليل المظلم** ..))[2]، ومعنى الحديث : ((الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذّرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة ، المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم ، لا المقمر)) .

٢ - ٢ : ولأن الجدّية صفة من صفات أهل الإيمان ، وخلة لأولياء الرحمن الذين امتدحهم وليُّهم - عزَّ وجلَّ - فقال : ﴿ **أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** ﴾[3]. قال الإمام القرطبي - يرحمه الله - : ((﴿ **أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** ﴾ أي في

---

(1) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي ، أحمد قبش : ص ٣٦٤ .
(2) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن ، برقم : ١١٨ .
(3) سورة المؤمنون [٦١] .

الطاعات ؛ كي ينالوا أعلى الدرجات والغُرفات ، وقرئ : ﴿ **يُسَارِعُونَ** ﴾ في الخيرات ، أي يكونوا سراعًا إليها .. ﴿ **وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** ﴾ ، أحسن ما قيل فيه : أنهم يسبقون إلى أوقاتها »[1]، أي يبادرون بالطاعات في أول أوقاتها . فمتى ما بدت لهم فرصة خير تعجلوا إليها وهمّوا بها[2] .

٢ - ٣ : ولأن الواجبات أكثر من الأوقات .. لهذا لابد من الجد في استثمار أوقاتنا؛ لكي نؤدي أماناتنا ، ونقوم بمسؤولياتنا ، ونصل إلى غاياتنا .

٤ - ٢ : لأن فئامًا من الدعاة أكثروا من الهَزْل والضحك ، واستعذبوا القعود ، وأطالوا النوم ، وتوسعوا في المباحات ؛ حتى أشغلتهم عن الواجبات ، فضلاً عن المندوبات . هذا ونحن في زمن قد تغلب فيه الأعداء ، وطفح فيه فساد أهل الأهواء .. فإلى الله المشتكى من جَلَد الفاجر وعجز الثقة .

قال رسول الله ﷺ : « **يا أمة محمد ، لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا** »[3].

وكأن الفضيل بن عياض - رحمه الله - قد ضجر من بعض أصحاب الحديث ؛ إذ رآهم يكثرون من الضحك ، ويحبون الدعة والمرح ، فقال لهم : « مهلاً يا ورثة الأنبياء !! مهلاً .. إنكم أئمة يُقتدَى بكم »[4] .

٢ - ٥ : الجد والاجتهاد والحركة الدائبة في ميدان العمل الصالح تجدد للروح حيويّتها ونشاطها ؛ فلا تفسد بالركود ، ولا تأسن بالجمود ، كما قيل :

إني رأيت وقوف الماء يُفسدُهُ

إن سَاحَ طاب وإن لم يَجْرِ لم يَطبِ[5]

٢ - ٦ : ولأن الجدّية تتأكد في الشباب حيث القوة والعافية والفراغ فلابد من استغلالها في مرضاة الله - عز وجل - قال ﷺ : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ** »[6] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج١٢ ، ص ١٣٣ ، باختصار .
(٢) راجع في هذا المعنى تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾.
(٣) رواه البخاري ، كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف ، برقم : ١٠٤٤ ، ورواه مسلم ، في الفضائل باب : توقيره ﷺ .. ، برقم : ٢٣٥٩ .
(٤) حلية الأولياء : ج٨ ، ص ١٠٠ ، السير : ج٨ ، ص٤٣٥ .
(٥) ديوان الإمام الشافعي : ص ٣٦ .
(٦) رواه البخاري ، كتاب الرقائق ، باب : باب ما جاء في الرقائق ، وأن لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة ، ٦٤١٢ .

وقال السري السقطي : « يا معشر الشباب جدّوا قبل أن تبلغوا مبلغي ؛ فتضعفوا ، وتقصروا ، كما ضعفت وقصرت » (١) ، وكان في ذلك الوقت جادًّا مجدًّا - رحمه الله - .

٢ - ٧ : ولأن القرب من الله - عز وجل - بحسب جِدِّ العبد في التقرّب إليه ، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي : « **ومن تَقَرّب إليَّ شبرًا ، تقرّبتُ إليه ذراعًا ، ومَنْ تَقَرّبَ إليَّ ذراعًا تَقَربتُ إليه باعًا ، وإذا أقبل إليَّ يمشي ، أقبلت إليه أُهرولُ** » (٢) . فتأمل كيف أن قُرْبَ الله - عز وجل - من عبده بقدر جدِّه في التقرب إليه ، فالجزاء من جنس العمل ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ! وهل يستوي من جدَّ وعمل ، مع مَنْ تعدى - لغير عذر - وتكاسل ؟ : ﴿**لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**﴾ (٣) .

وأخيرًا : فإن الجادّين هم الأكفاء الذين يحملون الدعوة على أكتفاهم ؛ يبلغونها ، ويسعون في حمايتها ونشرها بأموالهم وأنفسهم .. وقفوا أعمارهم عليها ، وبذلوا مهجهم في سبيلها .. ولهذا فإن من الأهمية أن نربِّي أنفسنا على الجدِّية ؛ لنكون من أولئك الذين ينصر الله بهم دينه ويعلي كلمته .

٣- الدعوة إلى الجدِّية :

٣ - ١ : الدعوة إلى الجدّية في القرآن الكريم :

حثَّ القرآن على الجدِّية من خلال معان كثيرة منها :

٣ - ١ - أ : الجدية في التمسك بالكتاب :

امتدح الحق - عزَّ وجلَّ - عباده ، الذين درسوا الكتاب وعملوا به وتمسّكوا به ، وجعلوه محورَ حياتهم ومنطلق شؤونهم وتصوراتهم :

- فقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ (٤) . قال سيد - رحمه الله - : « إن الصيغة اللفظية : ﴿ **يُمَسِّكُونَ** ﴾ ..

---

(١) الرسالة القشيرية : ص ٤٨ ، نقلاً عن : صفحات مضيئة من عبادة السلف ، إبراهيم العلي : ص ١٨ .
(٢) رواه مسلم ، كتاب التوبة ، باب : في الحض على التوبة والفرح بها ، برقم : ٢٦٧٥ ، وانظر شرح الحديث في تهذيب مدارج السالكين : ص ٦٠٠ - ٦٠٣ (للتوسع) ، وتنبّه للتأويل في شرح الإمام النووي - رحمه الله - للحديث . فإن السلامة والحكمة فيما كان عليه صدر هذه الأمة ، فتمسك به ، وادعو بالمغفرة والعفو لمن خالف منهجهم من أئمة الإسلام الذين اجتهدوا فأخطئوا في هذا الباب .
(٣) سورة النساء [٩٥] .
(٤) سورة الأعراف [١٧٠] .

تُصوّر مدلولاً يكاد يُحَسُّ ويُرى .. إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة .. الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه .. في غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت ؛ فالجد والقوة والصرامة شيء ، والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر .. إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر ، ولكنها تنافي التميع ! ولا تنافي سعة الأفق ، ولكنها تنافي الاستهتار ! ولا تنافي مراعاة الواقع ، ولكنها تنافي أن يكون ((الواقع)) هو الحكم في شريعة الله ! فهو الذي يجب أن يظل محكومًا بشريعة الله ، والتمسك بالكتاب في جد وقوة وصرامة ، وإقامة الصلاة - أي شعائر العبادة - هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة .. والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقرونًا إلى الشعائر يعني مدلولاً معينًا ؛ إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة ، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس ؛ فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس ، ولا تصلح بسواه .. والإشارة إلى الإصلاح في الآية : ﴿ **إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ .

يشير إلى هذه الحقيقة .. حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً ، وإقامة الشعائر عبادة ، هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين)) [1] .

- وقال - عزَّ وجلَّ - لعبده يحيى - عليه السلام - : ﴿ **يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾[2] . قال الشيخ السعدي - يرحمه الله - : ((بقوة : أي بجدٍّ واجتهاد ؛ وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه ، وفهم معانيه ، والعمل بأوامره ونواهيه ، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة)) [3].

- وقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ** ﴾ [4] . قال الإمام القرطبي - يرحمه الله - : ((أي بجد واجتهاد . قال ابن عباس وقتادة والسدي .. (وقال) مجاهد : القوة : العمل بما فيه)) [5] .

٣ - ١ - ب : الدعوة إلىالعمل والمبادرة إليه :

- قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾[6] :

- ونهى عن الأقوال التي لا رصيد لها من الأفعال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ**

---

(1) الظلال : ج٢ ، ص ١٣٨٨ .
(2) سورة مريم [١٢] .
(3) تيسير الكريم المنان : ص ٤٤٠ ، وانظر أيضًا الجامع لأحكام القرآن : ج١١ : (ص ٨٦ - ٨٧) .
(4) سورة البقرة [٦٣] .
(5) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج١ ، ص ٤٣٧ باختصار .
(6) سورة المؤمنون [٥١] .

تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (1) .

- ووصف عباده المؤمنين بأنهم بالخيرات سابقون وإليها يسارعون .
- بل أمر بالمسارعة إلى الصالحات لما فيها من تكفير للسيئات والفوز بجنّات عرضها الأرض والسماوات ، فقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (2) .

٣ - ١ - ج : التحذير من التفريط والإهمال وبيان سوء حال أهله عند الموت :

قال تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾(3) .

- وقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ (4) .

(وسيأتي في ثنايا البحث - إن شاء الله - بعض المعاني القرآنية في الدعوة إلى الجدِّية).

٣ – ٢ : الدعوة إلى الجدّية في السنة النبوية :

إذا كان كتاب الله قد أمر بالعمل الصالح وحثَّ على الجدِّ والاجتهاد ورفع منزلة أهله ، فقد جاءت السنة الشريفة تؤكد معاني القرآن وتتابعه وتشايعه ، وإليك بعض نصوصها :

٣ - ٢ - أ : الأمر بالجد وترك العجز :

قال رسول الله ﷺ : ((**المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قَدَّر الله وما شاء فَعَل ، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان**))(5)،

(1) سورة الصف [٢ - ٣] .
(2) سورة آل عمران [١٣٣] .
(3) سورة المؤمنون [٩٩ - ١٠٠] .
(4) سورة المنافقون [١٠] .
(5) رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله .. ، برقم : ٢٦٦٤ .

وقوله ﷺ : ((**المؤمن القوي خير**)) المراد بالقوة هنا ، عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة ؛ فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد ، وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في طلبه ، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على الأذى في كل ذلك ، واحتمال المشاق في ذات الله ، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها ، ونحو ذلك .. وقوله ﷺ : ((**وفي كلٍّ خير**)) معناه في كلٍّ من القوي والضعيف خير ، لاشتراكهما في الإيمان ، مع ما يأتي به الضعيف من العبادات ، وقوله ﷺ : ((**احرص على ما ينفعك**)) معناه احرص على طاعة الله تعالى ، والرغبة فيما عنده ، واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ، ولا تعجز : ولا تكسل عن طلب الطاعة ، ولا عن طلب الإعانة [1] .

وكما أن المؤمن القوي خير من الضعيف ، فكذلك المؤمن ذو العمر الطويل مع الطاعة خير من المؤمن ذي العمر القصير . فعن أبي بكرة رضي الله عنه ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أيُّ الناس خيرٌ ؟ قال : ((**مَنْ طال عُمُره ، وحَسُنَ عمله**)) . قال : ((فأي الناس شرٌّ ؟)) قال : ((**من طال عُمُره وساء عمله**)) [2] ؛ وذلك لأن الأول قد جدّ واجتهد في استغلال ساعات عمره وأيام حياته في الطاعات .

قال الطيبي - رحمه الله - : ((وقد سبق أن الأوقات والساعات كرأس مال للتاجر ، فينبغي أن يتجر فيما يربح فيه ، وكلما كان رأس ماله كثيرًا ، كان الربح أكثر)) [3] .

٣ - ٢ - ب : فتح أبواب العمل الصالح لكل راغب :

لقد فتح الرسول ﷺ أبواب العمل الصالح على مصراعيها ، حتى لم يدع لعاجز أو متكاسل عذرًا به لقعوده وتكاسله عن الجد في فعل الخيرات والإكثار من الطاعات .

قال رسول الله ﷺ : ((**على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة منه على نفسه**)) . قلت [4] : يا رسول الله ، من أين أتصدق وليس لنا أموال ؟ قال : ((**لأن من**

---

(1) شرح صحيح مسلم ، للنووي : ج ١٦ ، ص ٢١٥ (باختصار) .
(2) رواه الترمذي ، ٢٣٣٠ ، ورواه أحمد في مسنده ، برقم : ٢٠٤٣١ : ج٥ ، ص ٤٠ ، والدارمي : ج٢ ، ص٣٠٨ . قال الهيثمي في المجمع : ج١٠ ، ص ٢٠٣ ، رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده جيد ، وهو في الصحيحة ، للألباني ، برقم : ١٨٣٦ .
(3) المرقاة ، للقاري : ج٩ ، ص ١٣٥ .
(4) القائل هو : أبو ذر رضي الله عنه .

أبـواب الصـدقة التكبـير وسـبحان الله ، والحمـد الله ، ولا إلـه إلا الله ، وأسـتغفر الله ، وتأمـر بالمعروف، وتنهى عن المنكر ، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظمة والحجر ، وتهدي الأعمى ، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه ، وتدل المُسْتَدِلَّ على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث ، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف ، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك ، ولك في جِماعِك زوجتك أجر)) . قال أبو ذر : كيف يكون لي أجر في شهوتي ؟ فقال : ((**أرأيت لو كان لك ولد فأدرك ورجوت خيره ، فمات؛ أكنت تحتسبه** ؟ قلت : نعم . قال : ((**فأنت خلقته** ؟)) قال : بل الله خلقه . **قال** : ((**فأنت هديته** ؟)) . قال : بل الله هداه . قال : ((**فأنت ترزقه** ؟)) **قال** : بل الله كان يرزقه . قال : ((**كذلك فضعه في حلاله وجنبه حرامه ، فإن شاء الله أحياه ، وإن شاء أماته ، ولك أجر**))(١).

فائدتان للجادِّين فقط :

- قال رسول الله ﷺ : ((**أيعْجَزُ أحدُكم أن يكسب كلَّ يوم ألفَ حسنةٍ** ؟)) **فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال** : ((**يُسبِّح مائةَ تسبيحة ، فتكتب له ألفُ حسنةٍ ، أو تُحطُّ عنه ألفُ خطيئةٍ**)) (٢).
- قال رسول الله ﷺ : ((**لقد رأيتُ رجلاً يتقلّبُ في الجنّة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين**)) (٣) .

٣ - ٢ - ج : الحث على الأعمال ولو كانت يسيرة :

بعض الناس قد يقعد عن العمل الصالح ويتكاسل عنه ولا يجدُّ في طلبه ؛ لأن الشيطان يسوّل له أنه قليل الفائدة أو عديم الجدوى .. مثل : السلام ، كلمة طيبة ، ابتسامة .. إلخ ، وقد جاءت السنة لتبين للمؤمنين خطأ هذا المفهوم ، وتسد هذا المدخل الشيطاني ؛ لكي يجدَّ المؤمن ويجتهد في الأعمال مهما كانت في نظره يسيرة أو حقيرة .

---

(١) رواه أحمد : ج٥ ، ص ١٦٨ ، والنسائي ، وابن حبان ، وانظر كنز العمال ، ١٦٣١٤ ، وهو في الصحيحة للألباني ، برقم : ٥٧٥ ، وللتوسع انظر رياض الصالحين ، باب ١٣ ، بيان كثرة طرق الخير .

(٢) صحيح الكلم الطيب ، برقم : ١١ .
(٣) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، برقم : ١٩١٤ .

- قال رسول الله ﷺ : ((**لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئًا ، ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ**)) [١] ، أي بوجهٍ بشر وبشوش .

- وقال ﷺ : ((**اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**)) [٢] ، وقال ﷺ : ((**يا نساء المسلمات لا تحقرنَّ جارةٌ لجارتها ولو فِرسن شاة**)) [٣] ، ومثله : ((**إذا طبخت مرقةً فأكثرْ ماءَها وتعاهدْ جيرانَك**)) [٤].

٣ - ٢ - د : الدعوة إلى استغلال الطاقات وعمارة الأرض بالجدِّ والاجتهاد :

لقد حثَّ رسول الله ﷺ على الجدِّ في عمارة الأرض واستغلال كنوزها ، واستثمار الطاقات البشرية وتوظيف ملكاتها ومواهبها ، ومن أمثلة أقواله الداعية إلى ذلك :

قال رسول الله ﷺ : ((**من أعمر أرضًا ليست لأحدٍ فهو أحقُّ بها**)) [٥].

٣ - ٣ : الجدية في أقوال السلف :

- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ((إني لأكره أن أرى أحدكم سَبَهْللاً - أي فارغًا - لا في عمل دنيا ، ولا في عمل آخرة !)) .

- وقال الوزير ابن هبيرة الحنبلي :

والوقت أنفس ما عُنِيتَ بحفظه وأراه أسَهَلَ ما عليكَ يضيعُ [٦]

- وأخرج البيهقي عن ابن الزبير قال : ((أشرُّ شيء في العالم البطالة ، وذلك أن الإنسان إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغًا ، ولم يبق قلبه فارغًا ، بل يعشعش الشيطان ويبيض ويفرِّخ ، فيتولّد فيه نسله توالدًا أسرع من توالد كل حيوان ، ومن ثَمَّ قيل : الفراغ للرجال غفلة وللنساء غلمة))

---

(١) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء ، برقم : ٢٦٢٦ .
(٢) رواه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، والقليل من الصدقة ، برقم : ١٤١٧ ، ورواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة .. ، برقم : ١٠١٦ .
(٣) رواه البخاري ، كتاب الهبة ، برقم : ٢٥٦٦ ، ورواه مسلم : كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بالقليل ، ولا تمتنع من القليل لاحتقاره ، برقم : ١٠٣٠ ، والفِرْسِن : قال الجوهري : والفِرْسِن من البعير : الحافر من الدّابّة ، قال : وربما استعير في الشاة ، رياض الصالحين ، ٥٧ ، وهو شيء زهيد . [انظر الفتح : ج٥ ، ص ١٩٨] .
(٤) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب الوصية بالجار ، والإحسان إليه ، برقم : ٢٦٢٥ .
(٥) رواه البخاري ، كتاب الحرث والمزارعة ، باب من أحيا أرضًا مواتًا .. ، برقم : ٢٣٣٥ .
(٦) قيمة الزمن عند المسلمين ، عبد الفتاح أبو غدة : ص ٦٨ .

(١) .

٤- بعض مجالات الجدِّية :

لئن كانت الجدِّية صفة بارزة في حياة المسلم كلِّها تعمر أوقاته وتحكم تحركاته ، فإنه يتأكد ظهورها جليةً في بعض المجالات ومنها :

٤ - ١ : الجدية في التمسك بالإسلام :

ونعني بها : التزام المسلم بالإسلام عقيدة وشريعة ، منهجًا للحياة كلِّها ؛ فمنه يستمدُّ تصوراته وأحكامه ، وفي ضوء مبادئه يستنير في أعماله وأقواله ، وسمته وهديه ، وفي دائرته يجول ، وفي سبيله يصول : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (٢) .

٤ - ٢ : الجدية في الدعوة :

- **ونعني بها** : أن يستشعر المسلم مسؤوليته تجاه دعوة الإسلام وتبليغها للناس بأقواله وسلوكه وأعماله ، فتعيش الدعوة حيّة في قلبه ، متوهجة في ضميره ، تجري في دمائه فتنقله من الفتور والكسل إلى الحركة والعمل ، ومن حظوظ النفس وشهواتها إلى احتياجات الدعوة وواجباتها ، يردد قول ربه - عز وجل - : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (٣) .
- **ونعني بها** : الاهتمام بأمر المسلمين ، والعمل على إصلاحهم وإرشادهم وتربيتهم وتوجيههم ، والسعي لمساعدة المحتاجين ، وتنفيس كرب المكروبين ومناصرة المظلومين . ((**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**)).
- **ونعني بها** : جهاد أعداء الله والتصدي لهم - بقدر المستطاع - وكشف خططهم ودحض شبههم ، وتحصين الأُمّة من أفكارهم وضلالهم وحماية المجتمع من فسادهم.
- **ونعني بها** : التعاون على البر والتقوى بين الدعاة في ظل برنامج دعوي مدروس .

---

(١) فيض القدير ، المناوي : ج٢ ، ص ٢٩٠ .
(٢) سورة الأنعام [١٦٢ - ١٦٣] .
(٣) سورة يوسف [١٠٨] .

ومن القدوات الجادة في الدعوة صاحبُ موسى - عليه السلام - ، الذي أخبرنا الله - عزَّ وجلَّ - عنه فقال : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [1]. فانظر إلى إخلاصه للدعوة وحرصه على الدعاة :

أ - جاء من أقصى المدينة ولم يستطل الطريق .

ب - يسعى راكضًا بقوة قدميه الحافيتين ، جادًّا مجدًّا في الوصول إلى موسى قبل وصول الملأ إليه .

ج - فقهه للواقع واطِّلاعه عليه ، حيث عَلِمَ بمخططات الأعداء وتآمرهم على الدعوة والداعية ..

د - ترجمة العواطف إلى خطط وبرامج : ﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

٤ - ٣ : الجدية في طلب العلم :

مع أننا سنفرد العلم ببحث مستقل - إن شاء الله - إلا أننا نشير إلى بعض الأمور المهمة التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار في طلب العلم :

أ - البداية بالمبادئ الأساسية للعلوم الشرعية ، وترتيب الأولويات ؛ فالأصول قبل الفروع ، والكليات قبل الجزئيات .

ب - الالتزام ببرنامج منهجي يتضمن ما يُراد دراسته موزعًا على وحدات زمنية .

ج - الاستفادة من أهل العلم في التلقي عنهم والدراسة عليهم .

د - الاستفادة من المربين في شحذ الهمم ومتابعة المسيرة .

هـ - طلب العلم لا يعني الانقطاع له والعزلة عن الناس والبعد عن المجتمع والواقع بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [2] ، فجعل الإنذار من مهام طلبة العلم ، وهذا لا يكون مع العزلة عن الناس وعدم الاختلاط بهم.

٤ - ٤ : الجدية في التربية الأسرية :

---

(1) سورة القصص [٢٠] .
(2) سورة التوبة [١٢٢] .

ونعني بها :

- قيام المسلم بمسؤوليته تجاه أهله وأبنائه ؛ فيربيهم على الإسلام ، وينشئهم عليه :
﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾ (١) .
- تطهير المسلم بيته من المنكرات ، وتنقيتها من وسائل الشيطان ، وحرصه على أن يكون بيته محضنًا صالحًا لزوجته وأبنائه .
- حثّ المسلم أهلَ بيتِهِ على حفظ كتاب الله وتدبره ، والعمل به والالتزام بآدابه وأخلاقه . [الاشتراك في حلق تحفيظ القرآن ، ودور الذكر ..] .
- الحرص على ربط أبنائه بصحبة صالحة : ((**المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل**)) (٢) .

٤ - ٥ : الجدية في الصحبة والأخوة :

الاستفادة من الأُخُوَّة والصحبة الصالحة في التعاون على البر والتقوى والتناصح في الخير ، وذلك من خلال عدة أمور منها :

- التعاون على التفقه والتعلم .
- التعاون على أداء العبادات المحضة : كالصلوات الخمس ، وقيام الليل ، والصيام ، ونحوها ..
- التعاون على الدعوة .
- التناصح فيما يقع فيه الأخ من قصور ، أو فيما يرتقي به من المفضول إلى الفاضل ، ومن المرجوح إلى الراجح ، ومن الحسن إلى الأحسن .

والمقصد أن تظهر معالم الأخوة في الله في صورٍ جدِّية أكثر منها عواطف ، ومشاعر يمليها توافق الطباع (٣) .

٤ - ٦ : الجدية في الأماني والتطلعات (٤) :

---

(١) سورة التحريم [٦] .
(٢) رواه الترمذي ، ٢٣٧٨ ، وأحمد : ج٢ ، ص ٣٠٣ ، ٣٣٤ ، والحاكم : ج٤ ، ص ١٧١ ، حسنه الألباني ، وانظر الصحيحة برقم : ٩٢٧ .
(٣) للتوسع في الجدية في الصحبة والأخوة ، وانظر مبحث الأخوة في الجزء الأول .
(٤) انظر للتوسع : تفسير القرطبي : ج٨ ، ص ٢١١ ، الرقائق ، للراشد : ص (٤٣ - ٤٦) ، فتح الباري : ج١٣ ، ص ١٢١٧ . في بناء الشخصية الإسلامية ، للزيد : ص ٥٣ - ٦١ ، الجواب الكافي : ص (٧٨ - ٧٩) .

لابد للمسلم أن تكون له آمال وتطلعات يسعى لتحقيقها ، ولا شك أن أعظم أمل وأمنية له هو أن يحطَّ رحاله في جنات عدنٍ ويفوز برضا ربه - عز وجل - ولكن هذه الأمنية - وغيرها من الأماني والتطلعات - ستعصف بها الأيام ما لم تترجم في برنامج عملي يبذل فيه المسلم جهده وطاقته لتحقيقه .

وقد أخبرنا الحق - عزَّ وجلَّ - في كتابه أن النجاة والفوز والفلاح ليس بالأماني ، وإنما بالإيمان والعمل الصالح ، فقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [1]. قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : « والمعنى في هذه الآية ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ... ﴾ أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال ، وليس كلُّ مَنْ ادّعى شيئًا حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال إنه هو على الحق سُمِعَ قولُه بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ ﴾ [2] ، أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني ، بل العبرة بطاعة الله – سبحانه - واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام .. » [3] .

ومن نماذج الأماني والتطلعات التي لا تستند إلى العمل :

- تمني الجهاد دون الاستعداد له . قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [4] .

- تمني الغنى والمال الكثير للتصدق دون العمل على تزكية النفس من الحرص والطمع والبخل : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى

---

(1) سورة النساء [١٢٣ - ١٢٤] .
(2) سورة النساء [١٢٣] .
(3) مختصر تفسير ابن كثير : ج١ ، ص ٤٤٠ ، للصابوني .
(4) سورة البقرة [٢٤٦] .

﴿ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [1].

إذن فهي أمانيّ كاذبة ؛ لأنها افتقرت إلى الصدق الذي يدفع العبد للسعي بقدر استطاعته لتحقيق ما تمنّاه ؛ ولهذا نرى لفظة ((الصدق)) في بعض أحاديث الأماني المقبولة عند الله تعطينا إشارة إلى نوع الأماني المقبولة عند الله ، والتي يُثاب صاحبها ، ومنها :

قولــه ﷺ : ((**من سأل الله الشهادة بصدق أنزله الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**))[2]، وقال - عليه أفضل الصلاة والسلام - :((**من طلب الشهادة صادقًا ، أُعطيها ، ولو لم تصبه**)) [3] .

وقولــه ﷺ : ((**إنما الدنيا لأربعة نفر ، عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقي ربه فيه ، ويصل به رحمه ، ويعلم لله فيه حقًّا ، فهذا بأفضل المنازل ؛ وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلانٍ ، فهو بنيته ؛ فأجرهما سواء ..**)) [4] الحديث .

وتأمل لفظ القسم الذي جعله رسول الله ﷺ بين يدي أمنيته فقال : ((**والذي نفسي بيده وددت أني أقاتل في سبيل الله فأُقتل ، ثم أحيا ثم أُقتل ، ثم أحيا ثم أُقتل ..**)) [5] ، وها هو رسول الله ﷺ يعلم ربيعة بن كعب الأسلمي البرنامج العملي لتحقيق أمنيته حين قال له رسول الله ﷺ يومًا : ((سلْ)) ، فقال : أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : ((**أو غير ذلك ؟**)) . قال : هو ذاك . قال ((**فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود**)) [6] .

أسئلة للجادِّين :

- هل لديك برنامج عملي محدد لتحقيق أمنيّتك في حفظ كتاب الله ؟
- ما هي الأسباب العملية التي اتخذتها لتحقيق أمنيّتك في قيام الليل وحضور

(1) سورة التوبة [٧٥ - ٧٧] .
(2) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله ، برقم : ١٩٠٩ .
(3) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله ، برقم : ١٩٠٨ .
(4) رواه الترمذي ، ٢٤٤١ ، وابن ماجة ، وأحمد : ج٤ ، ص ٣١ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ، برقم : ١٨٩٤ .
(5) رواه البخاري ، كتاب التمني ، باب ما جاء في التمني ، ومن تمنّى الشهادة ، برقم : ٧٢٢٧ .
(6) رواه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه ، برقم : ٤٨٩ .

صلاة الفجر مع الجماعة ؟

- ما هي خططك في الدعوة لتحقيق أمنيتك في هداية شباب الحي الذي أنت فيه ؟
- ما هي خطواتك العملية في طلب العلم ؟

قال الإمام ابن القيم : « ومما ينبغي أن يُعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

- أحدهما : محبة ما يرجوه .
- الثاني : خوفه من فواته .
- الثالث : سعيه في تحصيله بحسب الإمكان .

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني » (١).

٥- مظاهر الجدّيــة :

تبدو في شخصية المسلم الجاد مظاهر وملامح تميّزه عن غيره ، ومن أبرز هذه المظاهر :

٥ - ١ : الحرص على اغتنام الأوقات :

الجادُّ يعرف قيمة وقته ، ويدرك أهمية عمره ؛ لذا تراه مجدًّا في المحافظة عليه ، والاستفادة منه ، وعمارته بالعمل الصالح على حدِّ قول عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - : « إن الليل والنهار يعملان فيك ، فأَعْمِل فيهما » ، فهو في ارتقاء دائم ، وعمل دائب . قال حماد بن سلمة يَصِفُ جدِّية سليمان التيمي : ما أتينا سليمانَ التيميَّ في ساعة يُطاع الله - عزَّ وجلَّ - فيها إلا وجدناه مطيعًا ، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا ، وإن لم يكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئًا ، أو عائدًا مريضًا ، أو مشيِّعًا لجنازة ، أو قاعدًا في المسجد . قال : « فكنا نرى أنه لا يُحْسِنُ يَعْصِي الله - عز وجل - » (٢) .

٥ - ٢ : تنظيم الواجبات والاهتمام بالمسؤوليات :

لكل وقت واجباته - عند الجاد - كما أن لكل واجب حقه من الوقت ، فهو يعطي كلَّ ذي حق حقه ، ولا يمكن تحقيق ذلك - بعد توفيق الله - إلا بتنظيم الواجبات وترتيب الأولويات .

---

(١) الجواب الكافي ، لابن القيم ، ٧٨ ، وانظر أيضًا مدارج السالكين ، أماني أهل الهمم العالية وخيالات أهل الهمم الخسيسة : ج١ ، ص (٥٠٣ - ٥٠٤) .
(٢) الحلية : ج٣ ، ص ٢٨ ، وسيأتي موضوع الوقت مستقبلاً - إن شاء الله .

قال الصديق ﷺ يوصي عمر بن الخطاب ﷺ : ((اعلم أن لله - عزَّ وجلَّ - في النهار حقًّا لا يقبله في الليل ، واعلم أن لله - عزَّ وجلَّ - في الليل حقًّا لا يقبله في النهار ، واعلم أنه لا تُقبل نافلةٌ حتى تؤدَّى الفريضة ..)) [1].

وتأمل حديث وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ عندما بعثه إلى اليمن[2] ؛ تجد فيها ضرورة اهتمام الداعية بترتيب أولوياته ، وتنظيم واجباته ، وضبط أحكامه وتصوراته .

٥ - ٣ : له من كلِّ غنيمةٍ سهمٌ :

لما كان المسلمُ الجادُّ حريصًا على اغتنام الفرص ؛ يستغل الشباب قبل الهرم ، والصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، فلا نراه إلا عاملاً في طاعة الله ، مسارعًا إليها ؛ لهذا كثرت غنائمهُ ، وازدادت أسهمُه ، ومَنْ كان هذا ديدنه فالجنّة مآلُه وعاقبتُهُ .

((قال رسول الله ﷺ : **مَنْ أصبح منكم اليوم صائمًا ؟** ، قال أبو بكر : أنا . قال : **فمن تبع منكم اليوم جَنَازةً ؟** قال أبو بكر : أنا . قال : **فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا ؟** قال أبو بكر : أنا . قال : **فمن عاد منكم اليوم مريضًا ؟** قال أبو بكر : أنا ، فقال رسول الله ﷺ : **ما اجتمعن في امرئ إلا دَخَلَ الجنّةَ**)) [3] .

٥ - ٤ : دائم الارتقاء :

فهو دائم الارتقاء أبدًا ، وساعيًا في تطوير نفسه مُجدًّا ، كل يوم يزداد علمًا وعملاً وفضلاً .. له في سلفه الصالح خير قدوة ؛ إذ يقول قائلهم [4] : ((ما نَدِمت على شيء ندمي على يوم غربت فيه شمسه ، ونقص فيه أجلي ، ولم يزد فيه عملي)) .. ولهذا فهو حريص أن يكون يومُه خيرًا من أمسه وغدُه خيرًا من يومه .

قال المحدث إبراهيم الحربي : ((لقد صحبت أحمد بن حنبل عشرين سنة ، صيفًا وشتاءً ، وحرًّا وبردًا ، وليلاً ونهارًا ، فما لقيته في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس)) [5] .

٥ - ٥ : يؤثر العمل على الكلام :

---

(1) وصايا العلماء ، للربعي ، ص٣٥ ، نقلاً عن واحات الإيمان ، للبلالي : ج٢ ، ص (٩٢ - ٩٣) .
(2) رواه مسلم ، في الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، برقم : ١٩ .
(3) رواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ ، برقم : ١٠٢٨ .
(4) هو عبد الله بن مسعود ﷺ .
(5) مناقب أحمد بن حنبل ، لابن الجوزي : ص ١٤٠ ، نقلاً عن الوقت عمار أو دمار ، لجاسم المطوع ، ج٢ ، ص٧١ .

صاحب الجدِّية ليس من أولئك النفر الذين ورثوا الدين كلامًا ولا حظ لهم من العمل إلا قليلاً ؛ ولذا فقد ترجم الكثير من المعاني التي يريد إيصالها إلى الناس من خلال سيرته فيهم ومعاشرته لهم بالمعروف والخلق الحسن .

قال النخعي(١) - رحمه الله - : ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس [أي منعتني من الإكثار من تحديثهم ووعظهم] : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾(٢)، و﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ (٣)، و﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

وروى الخطيب البغدادي بسنده إلى معروف الكرخي أنه قال : « إذا أراد اللهُ بعبد خيرًا فتح له بابَ العمل ، وأغْلق عنه باب الجَدَل ؛ وإذا أراد الله بعبد شرًّا فتح له بابَ الجَدَل وأغْلَقَ عَنْهُ بابَ العمل » (٥) .

ولهذا فأهل الجدِّية يُشغلون أنفسهم بالعمل ، فإذا تكلموا أحكموا زمام ألسنتهم من أن تهذي بما ليس من طبعها أو بما لا تستطيع الوفاء به .

« قال أنس : غاب عَمِّي أنسُ بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئنِ اللهُ أَشهَدَني قتالَ المشركين لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أصنع (٦) ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : **اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعني أصحابه –، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعني المشركين –** ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : **يا سعد بن معاذ ، الجنّةَ وربِّ النضر ، إني أجِدُ ريحَها من دونِ أحد** . قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قُتِلَ وقد مَثَّلَ به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أُخْتُهُ ببنانه . قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾(٧) إلى آخر الآية » (٨) .

٦- كيف تكون جادًّا ؟

---

(١) جامع أحكام القرآن ، للقرطبي : ج١٨ ، ص٨٠ .
(٢) سورة البقرة [٤٤] .
(٣) سورة هود [٨٨] .
(٤) سورة الصف [٢] .
(٥) اقتضاء العلم العمل ، الخطيب البغدادي : ص (٧٩ - ٨٠) .
(٦) هكذا علي التعميم دون أن يحدد أعمالاً قد لا يستطيع الالتزام بها ؛ ولهذا ورد أن أنس قال : وهاب أن يقول أكثر من ذلكَ .
(٧) سورة الأحزاب [٢٣] .
(٨) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب قول الله تعالى - عزَّ وجلَّ - : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية ، برقم : ٢٨٠٥ .

إن صفة الجدِّية من أهم الصفات التي ينبغي أن نجاهد أنفسنا لنتخلَّق بها ؛ لندرك أهدافنا ، ونصل إلى غاياتنا ، ونعمر أعمارنا بالصالحات ، ونثقلَ موازيننا بالحسنات ؛ ولهذا لابد من الإشارة إلى بعض أسباب الجدِّية وعوامل تنميتها في القلوب :

٦ ـ ١ : الإقلاع عن الذنوب والمبادرة إلى التوبة :

الذنوب حُجُبٌ تحجبُ صاحبها عن الهدى وتثبطه عن أعمال الخير والتُّقى ، وتقعد به عن المنازل العُلى . قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : ((كم من نظرة منعت قيام ليلة ، وكم من أكلة منعت قراءة سورة)) ، وقال ابن الجوزي - يرحمه الله - : ((فربَّ شخص أطلق بصره فحُرم اعتبار بصيرته ، أو لسانه [أي في الحرام : كالغيبة والكذب] ، فحَرَمَهُ الله صفاءَ قلبه ، أو آثر شبهةً في مطعمِه فأظلم سرُّه ، وحرم قيام الليل وحلاوة المناجاة ، إلى غير ذلك)) [1] .

فانظر كيف حجبت هذه الذنوب أصحابها عن صالح الأعمال وصفاء الأحوال .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ((إن للحسنة ضياء في الوجه ، ونورًا في القلب ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سوادًا في الوجه ، وظلمة في القلب ، وَوَهَنًا في البدن ، ونقصًا في الرزق ، وبغضًا في قلوب الخلق))[2]. فانظر أثر الذنوب في تكاسل المرء عن الطاعة ونفوره منها . قال الله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾[3] الآية .

٦ ـ ٢ : ذكر الله تعالى :

للذكر أثر عجيب في تقوية العبد وتنشيطه وزيادة جِدِّهِ ومبادرته لطاعة الله .

- **الذكر سبب لزوال عقد الكسل الشيطانية :**

قال رسول الله ﷺ : ((**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عُقدٍ إذا نام ، بكلِّ عقدةٍ يَضْرِبُ عليك ليلاً طويلاً ، فإذا استيقظ ، فذكَرَ الله انحلّت عقدةٌ ، وإذا توضَّأ انحلّتْ عنه عُقدتانِ ، فإذا صلى انحلت العُقدُ ، فأصبح نشيطًا طيب النفس ، وإلا أصبح كَسلان**))[4].

---

(1) صيد الخاطر ، ابن الجوزي : ص ٩٥ .
(2) الجواب الكافي : ص ١٠٦ ، وانظر أيضًا تحذير الداني والقاصي من عقوبات الذنوب والمعاصي ، أحمد فريد .
(3) سورة آل عمران [١٥٥] .
(4) رواه البخاري ، كتاب التهجد ، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يُصلِّ بالليل ، برقم : ١١٤٢ ، ورواه

- **الذكر سبب لزيادة قوة المرء روحًا وإقدامًا :**

قال تعالى على لسان هود : ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ**﴾ . قال ابن القيم - رحمه الله - في الفائدة الحادية والستين من فوائد الذكر : ((إن الذكر يعطي الذاكر قوّة ، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه ، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه ، وكلامه ، وإقدامه ، وكتابته ، أمرًا عجيبًا ، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر ، وقد شاهد العسكرُ من قوّته في الحرب أمرًا عظيمًا .

وقد علّم النبيُّ ﷺ ابنَتَه فاطمةَ وعليًّا - رضي الله عنهما - أن يسبّحا كل ليلة إذا أخذا مضاجِعَهما ثلاثًا وثلاثين ، ويحمدا ثلاثًا وثلاثين ، ويكبرا أربعًا وثلاثين .. لمّا سألَتْهُ الخادم ، وشكت إليه ما تقاسيه من الطَّحْن والسعي والخدمة ، فعلّمها ذلك ، وقال : ((**إنه خيرٌ لكما من خادم**)) [1] . فقيل : إن مَنْ داوم على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم)) [2] .

٦ - ٣ : مصاحبة الجادين :

يقتدي القرين - عادة - بصفات مَنْ قارنهم ، ويتأثر بأخلاق من عاشرهم وصاحبهم ؛ ولهذا قيل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

وأصدق من ذلك قيلاً وأبلغ تعبيرًا قول سيد البشر ﷺ : ((**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**))[3]، فإذا رأى المسلم إخوانه يخططون لحياتهم ، ويبرمجون أوقاتهم ، ويستثمرون طاقاتهم ليحققوا آمالهم وأهدافهم ، ويتعاهدون فيما بينهم على الجدّية ، ويعين بعضهم بعضًا على الارتقاء في مدارج العبودية ، فإنه سيتأثر بهم ، وسيكتسب من صالح خصالهم .

٦ - ٤ : فقه السعادة :

مسلم ، واللفظ له ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ، برقم : ٧٧٦ .

(1) رواه البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عليٍّ ﷺ ، برقم : ٣٧٠٥ ، ورواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة ، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ، برقم : ٢٧٢٧.

(2) الوابل الصيب من الكلم الطيب ، ابن القيم .

(3) رواه الترمذي ، ٢٣٧٨ ، وأحمد : ج٢ ، ص ٣٠٣ ، ٣٣٤ ، والحاكم : ج٤ ، ص ١٧١ ، حسنة الألباني ، وانظر الصحيحة برقم : ٩٢٧ .

النفوس الصغيرة هي التي ترى السعادة في الدعة والكسل ، والخلود إلى الجمود وقلة العمل ، والإكثار من المطاعم والمشارب ، ولبس أجمل الثياب وركوب أفخر المراكب ؛ ولكن النفوس العظيمة تأبى حياة البهائم ، وترى سعادتها في ركوب المصاعب لنيل أعلى المطالب ، وتُقدِم على المكاره ابتغاء المكارم ؛ وهو طريق الجنة والسعادة الكبرى ، كما قال ﷺ : ((**حُفت الجنّةُ بالمكاره ، وحُفت النارُ بالشهوات**)) [1]. قال الإمام ابن القيم : ((فالمكارم منوطة بالمكاره ، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة ؛ فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد .. وقد قيل : من طلب الراحة ترك الراحة)) [2] . وهو المعنى نفسه الذي قاله صاحب الذريعة حيث قال : ((وإن من تعود الكسل ومال إلى الراحة فَقَدَ الراحة . فحبُّ الهوينا يُكسب التعب ، وقيل : إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلا تتعب)) [3] . وقد أفرغ القرضاوي هذه المعاني في ثوب شعري جميل فقال :

قـــالوا : السـعادة في السـكون ... وفي الخمـــول وفي الخمـــود
في العـــيش بـــين الأهـــل لا ... عـــيش المهـــاجر والطريـــد
في لقمـــــة تأتي إليـــــك ... بغـــير مـــا جهـــد جهيـــد
في المشــي خلــف الركــب في ... دعـــة وفي خطـــو وئيـــد
في أن تقـــول كمـــا يقـــال ... فـــلا اعـــتراض ولا ردود
في أن تســـير مـــع القطيـــع ... وأن تقـــاد ولا تقـــود
في أن تعـــيش كمـــا يـــراد ... ولا تعـــيش كمـــا تريـــد
قلــت الحيــاة هــي التحــرك ... لا الســكون ولا الهمـــود
وهـــي التفاعـــل والتطـــور ... لا التحجـــر والجمـــود

---

[1] رواه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، المقدمة ، برقم : ٢٨٢٢ ، وهو أيضًا في البخاري وفي رواية للبخاري بلفظ ((حجبت)) ، وانظر هامش صحيح الإمام مسلم : ج٤ ، ص ٢١٧٤ .
[2] مفتاح دار السعادة : ج١ ، ص ١٠٩ .
[3] الذريعة ، للأصفهاني : ص ٢٦٨ .

وهـــي الجهـــاد وهـــل يجـــا / هـــد مـــن تعلـــق بالقعـــود
وهـــي الشـــعور بالانتصـــار / ولا انتصـــار بـــلا جهـــود
وهـــي التلـــذذ بالمتاعـــب / لا التلـــذذ بالرقـــود
هـــي أن تـــذود عـــن الحيـــاض / وأي حـــر لا يـــزوذ
هـــذي الحيـــاة وشـــأنها / مـــن عهـــد آدم والجـــدود
فـــإذا ركنـــت إلى الســـكون / فلـــذ بســـكان اللحـــود
أفبعـــد ذاك تظـــن أن / أخـــا الخمـــول هـــو الســـعيد (١)

هذه هي السعادة ، وكل ما عداها فهو ذل لا يرضى به الحر الذي خلقه الله من أجل عبادته هو لا شريك له ، وبغير خدمة هذا الإله والتحرك السريع والدائب الذي فيه
منافسة لحركة النمل والنحل ، من أجل نصرة دينه - سبحانه وتعالى - فلا يمكن الحصول على السعادة (٢) .

٦ - ٥: اكتشاف القدرات وتطوير الذات ، وعدم الرضا بالدون من المهمات والدرجات :

المسلم دائمًا يتطلع إلى الرقي بنفسه ، وتطوير قدراته ، ولا يرضى أن يكون مثل
((السيد عادي العادي)) ، الذي قرأت سيرته فكانت :

((ولد السيد عادي عام ١٩٢٠م ، ودخل المدرسة في السادسة من عمره ، وقضى فيها اثني عشر عامًا ، تفاوتت فيها درجاته بين الجيد والمقبول ، ثم التحق بالجامعة وتخرج فيها عام ١٩٤٣م بتقدير جيد ، وانخرط بعد ذلك في السلك الوظيفي .

وفي عام ١٩٤٤م تزوج السيد عادي الآنسة وسط الواسط ، ورزق منها بولد وبنت سماهما (أوسط ، وعادية) . قضى السيد عادي أربعين عامًا في الخدمة الوظيفية ، شغل خلالها عددًا من الوظائف العادية والهامشية التي لم تتطلب أي جهد

(١) شعراء الدعوة الإسلامية : ج٣ ، ص ٤١ .
(٢) المصفى من صفات الدعاة ، البلالي : ص (٥٠ - ٥١) .

مميز أو اجتهاد أو إبداع ، ولم يجرب السيد عادي أبدًا أي نشاط فيه تحدٍ أو مخاطرة ، وكان شعار السيد عادي في الحياة « امسك مجنونك لا يجيك أجن منه » ، و« ابعد عن الشر (وغني) له » .

وفَاتَهُ قول المتنبي :

إذا غـــامرت في شـــرف مـــروم فـــلا تقنـــع بمـــا دون النجـــوم

فطعـــم المـــوت في أمـــر صـــغير كطعـــم المـــوت في أمـــر عظـــيم

توفي السيد عادي عام ١٩٨٥م عن عمر يناهز الـ ٦٥ عامًا .

عاش السيد عادي من غير هدف ولا خطة ولا همة ولا عزم ولا تصميم ، لم يقدم في حياته شيء يذكر ولم يطلب من الحياة إلا القليل .

السيد عادي العادي ولد ميتًا عام ١٩٢٠م ، ودفن عام ١٩٨٥م »[٢] .

قلت : كم من شباب المسلمين من هم دون السيد عادي بسبب حب التكاسل والدعة والراحة ، وكراهة الجد والاجتهاد ، حتى وكأنهم أموات وهم أحياء ، كما قال القائل :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

٦ ـ ٦ : تذكر الأجـر :

إذا تذكر المسلم ما وَعَدَهُ اللهُ به من أجر ، وما أعده له من مثوبة وفضل جزاءَ سعيِهِ ونَصَبِهِ وجده واجتهاده ، فإن ذلك من أكبر الدوافع له على اندفاعه وحماسه للعمل بجدّية للرقي بنفسه والتقرّب إلى ربه .

فتأمل كيف امتلأت نفس عمير بن الحمام الأنصاري ﷺ حماسة واجتهادًا في طلب الشهادة عندما تذكر أجر الجهاد في سبيل الله والقتل في سبيله ، قال رسول الله ﷺ في غزوة أُحد عندما دنا المشركون ـ قال لأصحابه : « **قوموا إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض** ».

قال عمير بن الحُمام الأنصاري : يا رسول الله ، جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : « **نعم** » . قال : بخٍ بخٍ . قال : « **ما يَحمِلُكَ على قولِك بخٍ بخٍ** » ، قال : لا والله يا

(٢) لا أذكر الآن المرجع .

رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها ! قال ﷺ : ((**فإنك من أهلها**)) ، فأخرج تمرات من قَرَنِهِ فجعل يأكلُ منهنَّ ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة . قال : فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتِلَ)) [1] .

وتالله ما أعظم ما كان يذكِّر به إبراهيم التيمي به نفسه حين قال : ((مَثَّلْتُ نفسي في الجنة آكُلُ من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأُعانقُ أبكارها ، ثم مَثَّلْتُ نفسي في النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأُعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسي : أيْ نفس ، أيُّ شيءٍ تريدين ؟ قالت : أُريد أن أُردَّ إلى الدنيا ، فأعمل صالحًا ، قال : قلت : فأنت في الأمنيّةِ ، فاعملي)) [2]. وهذا وإن كان تذكيرًا بالجنة وبالنار إلا أنه له صورة المحاسبة ، وهي من أسباب الجدِّية ؛ ولهذا ذكرناها استقلالاً .

٦ ـ ٧ : المحاسبــة :

لابد من محاسبة النفس على تقصيرها ، ومعاتبتها على تفريطها ، وحثها على ما فيه نجاتها وفلاحها ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ [3] . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا أنفسكم ، فإنه أهونُ عليكم في الحساب غدًا ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ؛ وتزيَّنوا للعرض الأكبر : ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ [4] [5].

وقال رضي الله عنه لفضيل بن زيد الرَّقاشي : ((لا يُلْهينَّك الناس عن ذات نفسك فإن الأمر يخلصُ إليك دونهم ، ولا تقطع النهار بكَيْتَ وكَيْتَ ، فإنه محفوظٌ عليك ما قُلْتَه ، ولم تَرَ شيئًا أحسن طلبًا ولا أسرع إدراكًا من حسنةٍ حديثة لذنبٍ قديم)) [6] .

٦ ـ ٨ : الدعاء :

لما كانت الجدِّيةُ والاجتهادُ في العمل الصالح فضلاً من الله يؤتيه من يشاء ، كان على المسلم أن يرفع يديه متضرعًا ، ويضع جبهته متذللاً لمن بيده الفضل كلّه والخير كلّه ، فيسأله من فضله . وقد روي أنه ﷺ يدعو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالعزيمة والجد والاجتهاد في الرشد :

((**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك نعمتَك ، وحُسْنَ**

---

(1) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، برقم : ١٩٠١ .
(2) محاسبة النفس ، لابن أبي الدنيا : ص ٣٤ .
(3) سورة الحشر [١٨] .
(4) سورة الحاقة [١٨] .
(5) محاسبة النفس ، لابن أبي الدنيا : ص ٢٢ .
(6) المرجع السابق : ص ٣٨ .

عبادتِك ، وأسألك قلبًا سليمًا ، ولسانًا صادقًا ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم »[1] .

وكان من دعائه ﷺ : « **اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون** »[2] .

كما أنه ﷺ كان يكثر من الاستعاذة من العجز والكسل . قال أنس : « فكنت أسمعه - يعني النبي ﷺ - يُكثر أن يقول : **اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحَزَن ، والعجز والكسَل ، والبخل والجُبن ، وضَلَع الدَّين وغلبة الرجال** »[3] . قال ابن حجر في الفتح : « [ضلع الدَّين] : المراد به ثقل الدَّين وشدته ، [غلبة الرجال] : أي تسلطهم كاستيلاء الرعاع هرجًا ومرجًا »[4] .

٦ - ٩ : تعلم العلم الشرعـي :

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : وأما العلم النافع فكلما أزداد منه ، أزداد في تعبية الزاد وقضاء الجهاز وإعداد عدة المسير ، والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به ، فعدة السفر (أي إلى الدار الآخرة) هو العلم والعمل ، ومن أراد شيئًا هيأ له عدته . قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ** ﴾[5][6]، والمقصد أن المسلم كلما ازداد علمًا كان على العمل أقدر وأمكن وأجدر .

٦ - ١٠ : ذكر الموت وسرعة انقضاء الدنيا :

مَنْ أكثر من ذكر الموت ازداد سعيه في الاستعداد له ، ومَنْ علم طول السفر وقرب الرحيل استكثر من الزاد ، كما قال ابن الجوزي - رحمه الله - : « من عَلِمَ

---

(1) رواه النسائي : ج٣ ، ص ٥٤ ، والترمذي ، ٣٤٠٧ ، وأحمد : ج٤ ، ص١٢٥ ، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، ٢٤١٦ ، ٢٤١٨ ، قلت : وقد سقته بصيغة التمريض تنبيهًا إلى علةٍ في سند الحديث ، أوردها الألباني في تمام المنة (ص ٢٢٥) .
(2) رواه الترمذي ، ٣٤٦٣ ، وأحمد : ج٥ ، ص ٢٣٤ ، قال الترمذي - رحمه الله - : حسن صحيح ، سألت محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - عن هذا الحديث فقال : حسن صحيح ، وقد صححه الألباني في صحيح الترمذي ، برقم : ٢٥٨٠ ، غير أن البيهقي وابن خزيمة قد ضعّفاه لاضطراب في إسناده ، وانظر إرواء الغليل : ج٣ ، ص ١٤٧ .
(3) رواه البخاري ، كتاب الأطعمة ، باب الحَيْس ، برقم : ٥٤٢٥ .
(4) فتح الباري : ج١١ : ص ١٧٤ .
(5) سورة التوبة [٤٦] .
(6) مفتاح السعادة : ج١ ، ص ١٣٦ .

قُرْبَ الرحيل عن مكة استكثر من الطواف » (١) .

وقال :« إن العاقل إذا علم قرب هذا المصرع منه أوجب عليه عقله البدار بالعمل »(٢)، وبهذا نفقه حكمة الشارع في أمره بزيارة القبور وتذكر الموت ، حين قال ﷺ : « **أكثروا ذكر هاذم اللذات** » (٣)، يعني الموت ، وقال ﷺ : « **كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فإنها ترق القلب ، وتدمع العين ، وتذكر الآخرة** » (٤) .

٧- معاول هدم الجِدّيــة :

إن التخلي عن أسباب اكتساب الجدِّية والاتصاف بأضدادها يمثل معول هدم للجدية في الشخصية المسلمة ؛ ولهذا فإننا سنشير إشارة سريعة إلى بعض المعاول التي توهن بناء الجدِّية في النفوس وتصدعها :

٧ - ١ : التسويف :

وهو من أكبر معاول هدم الجدّية في النفس ؛ ولهذا قيل لرجل من عبد القيس أوْصِنَا . قال : « **احذروا (سوف)** » .

« وفي التسويف وتأخير واجب اليوم إلى الغد آفات :

أولاً : أنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد . دعا أحد الأمراء رجلاً صالحًا إلى الطعام ، فاعتذر بأنه صائم ، فقال الأمير : أفطر وصم غدًا . قال : وهل تضمن لي أن أعيش إلى الغد ؟

ثانيًا : أنك إن ضمنت حياتك إلى الغد فلا تأمن المعوقات من مرض طارئ ، أو شغل عارض ، أو بلاء نازل ؛ ولهذا كان الحزم أن تبادر إلى فعل الخيرات ، وأداء الواجبات ، وكان العجز أن تسوف وتؤجل حتى تفوتك الفرصة ، وتشكو من الغصة .. كما قال الشاعر :

ولا أُؤخر شغل اليوم عن كسل   إلى الغد إن يومَ العاجزين غدُ

ثالثًا : أن لكل يوم عمله ، ولكل وقت واجباته ، فليس هناك وقت فارغ من العمل . ولما قيل لعمر بن عبد العزيز وقد بدا عليه الإرهاق من كثرة العمل : أخِّر هذا إلى

---

(١) صيد الخاطر .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٧٠ .
(٣) رواه النسائي : ج١ ، ص٢٥٨ ، والترمذي : ج٢ ، ص٢٥٨ ، والترمذي : ج٢ ، ص ٥٠ ، وابن ماجة : ج٢ ، ص ٤٢٥٨ ، وابن حبان وغيره ، وقد صححه الألباني في الإرواء بشواهده ، برقم : ٦٨٢ .
(٤) رواه الحاكم : ج١ ، ص٣٧٦ ، وهو في صحيح الجامع ، برقم : ٤٥٨٤ ، وانظر للتوسع في هذا المعنى تهذيب المدارج : ص (٦٠٥ - ٦١٠) .

الغد . فقال : لقد أعياني عمل يوم واحد ؛ فكيف إذا اجتمع عليَّ عمل يومين ؟ ! .

رابعًا : أن تأخير الطاعات والتسويف في فعل الخيرات يجعل النفس تعتاد تركها ، والعادة إذا رسخت أصبحت طبيعة ثانية يصعب الإقلاع عنها » [1] .

(انظر أثر التسويف في تخلُّف كعب بن مالك ﷺ عن الجهاد) .

٧ - ٢ : كثرة الهزل والضحك واللهو[2] :

كلُّها - إذا كثرت - تضيع الوقت وتقسي القلب وتزري بالمرء ، فينبغي أن تكون بقدر ، وفيما أباح الله - عزَّ وجلَّ - . قال الله تعالى ممتدحًا عباده المؤمنين : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾[3] ، وقال ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾[4] ، وقال رسول الله ﷺ : « **لا تكثروا الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب** » [5] .

وقال - عليه أفضل الصلاة والسلام - : « **ما من قومٍ يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه ، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار ، وكان حسرة يوم القيامة** » [6] ، ولكن لما كانت القلوب تكلُّ كما تكلُّ الأبدان ، أباح الشارع الترويح عنها بما ينشطها للقيام بالواجبات ، « ولقد كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون (يترامون) بالبطيخ ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال » [7] ، « فلا بأس على المسلم أن يتفكه ويمزح بما يشرح صدره ، ولا حرج عليه أن يروِّح نفسه ونفوس رفقائه بلهوٍ مباح ، على ألاَّ يجعل ذلك ديدنه وخلقه في كل أوقاته ، ويملأ به صباحه ومساءه ، فينشغل به عن الواجبات ، ويهزل في مواضع الجد ؛ ولذا قيل : أعطِ الكلام من المزاح بقدر ما يعطى الطعام من الملح » [8]، ومن ضوابط المزاح : أن يكون المسلم صادقًا في مزحه ، وألا

---

(1) الوقت في حياة المسلم ، القرضاوي : ص (٦٦ – ٦٩) (باختصار) ، وللتوسع انظر المرجع نفسه ، وفتح الباري : ج١١ : ص ٢٣٧ ، والذريعة ، للأصفهاني : ص ٨٦ .

(2) سنتوسع في كتاب القائد - إن شاء الله - في موضوع اللهو ، واستخدامه في الدعوة ، وما ينبغي للمربي أن يحذره من وسائل اللهو ، وكيفية استثمار بعضها استثمارًا دعويًّا وتربويًّا .

(3) سورة المؤمنون [٣] .

(4) سورة الفرقان [٧٢] .

(5) رواه ابن ماجة ، ٤١٩٣ . قال البوصيري ، في الزوائد : ج١ ، ص ٢٥٨ : إسناده صحيح ، وهو في الصحيح ، للألباني ، برقم : ٥٠٦ .

(6) رواه أبو داود ، ٤٤٨٥ ، ورواه الحاكم : ج١ ، ص٤٩٢ ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني ، برقم : ٧٧ .

(7) الأدب المفرد ، للبخاري ، برقم : ٢٦٦ .

(8) الحلال والحرام في الإسلام ، للقرضاوي : ص ٢٨٣ ، وانظر أيضًا تربية الأولاد في الإسلام ، عبد الله علوان

يغتاب أحدًا أو يسخر من قوم ، بالإضافة إلى محدوديته وعدم التوسع فيه ؛ حتى لا ينشغل به عن المستحبات فضلاً عن الواجبات .

٧ - ٣ : إضاعة الأوقات وتبديد العمر بما لا ينفع :

فالأوقات رأس مال العبد في هذه الدنيا ، وسوف يُسأل عن رأس ماله فيما أنفقه ، فليعدّ للسؤال جوابًا ، وليكن جوابه صوابًا . وقد سبق أن تناولنا موضوع الوقت في المبحث ، فلا حاجة لإعادته هنا .

٧ - ٤ : مصاحبة البطالين :

قال الأصفهاني - يرحمه الله - : ((حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ، فهي قد تجعل الشرير خيِّرًا ، كما أن مصاحبة الأشرار قد تجعل الخيّر شريرًا .. وقالوا : إياك ومجالسة الشرير فإن طبعك يسرق من طبعه وأنت لا تدري !)) .

وقال : ((والريحانة الغضة تذبل بمقارنة الذابلة ؛ ولهذا يلقط أصحاب الفلاحة الرمم عن الزروع لئلا تفسدها ، ومعلوم أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قربت منهما ، وذلك مما لا ينكره ذو تجربة . إذا كانت هذه الأشياء بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ ؛ فما الظن بالنفوس البشرية التي موضوعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها))[٢] [أي أكثر وأعمق] .

ولهذا فإن مصاحبة البطالين والقاعدين تضعف همّة المرء وتذهب بجديته شيئًا فشيئًا ، وقد قيل :

لا تصحبِ الكسلان في حاجاته ... كم صالح لفساد آخر يفسُدُ

عدوى البليد إلى الصحيح سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمدُ ( )

٧ - ٥ : الإكثار من المباح :

وقد حذّر السلف من الاستغراق في المباحات والإكثار من الكماليات ، التي تشغل المرء عن دينه ، وتلهيه عن آخرته ، وتميل به إلى متاع الدنيا وزهرتها وتَخْلُد

ج٢ ، ص ٩٣٤ ، اللهو المباح في العصر الحديث ، إبراهيم محمد : ص ٢٧ ، المزاح بين المشروع والممنوع ، عبدالعزيز الجطيلي .

(٢) الذريعة ، للأصفهاني : ص (٢٥٥ - ٢٥٧) (باختصار) .

(٣) مجمع الحاكم والأمثال في الشعر العربي : ص ١٤٢ .

به إلى الأرض ومتاعها .. وقد قال الله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (١) .. فهي قاعدة أصيلة في المباحات ، تحمل المسلم على الاعتدال ونبذ الإسراف والتقتير أو الحرمان . وقد كان السلف يجاهدون أنفسهم في التقليل من المباحات لما تفوته عليهم من الطاعات .

قال همّام بن الحارث داعيًا ربه : « اللهم اشفني من النوم باليسير ، وارزقني سهرًا في طاعتك . قال : فكان لا ينام إلا هنيهة » (٢) .

وقال الإمام الشافعي - رحمه الله - : « إن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب ، وكثرته جالبة للنوم والبلادة وقصور الذهن وفتور الحواس وكسل الجسم ، هذا مع ما فيه من الكراهية الشرعية » (٣) .

وقال أبو سليمان الداراني - رحمه الله - : « لكل شيء صدأ ، وصدأ القلب شبع البطن » (٤) .

وقال عمر بن الخطاب ﵁ : « أيها الناس ، إيّاكم والبطنة من الطعام ، فإنها مُكْسِلة عن الصلاة ، ولن يهلك عبدٌ حتى يؤثر شهوته على دينه » (٥) .

ومنها أيضًا : كثرة التزين والتأنق ؛ فقد نهى النبي ﷺ عن الترجّل إلا غِبًّا (٦)، قال أحدُ أصحاب محمد ﷺ : « كان ينهانا - أي النبي ﷺ - عن الإرفاه . قلنا : وما الإرفاه ؟ قال : الترجّل كل يوم » (٧) . والترجل : هو تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه كل يوم .

٦ - ٧ : الركون إلى الزوجة والأبناء :

عن ابن عباس ، وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ

---

(١) سورة الأعراف [٣١ - ٣٢] .
(٢) سير أعلام النبلاء ، للذهبي : ج٤ ، ص ٢٨٤ .
(٣) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، للكناني : ص ٧٤ ، عن الوقت عمار أو دمار : ص ٥٦ .
(٤) البداية والنهاية : ج١٠ ، ص٢٥٦ ، وللتوسع في ذكر مفاسد الشبع وكثرة النوم راجع مدارج السالكين : ج١ ، ص٥٠٥ .
(٥) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لابن الجوزي : ص ١٨٠ ، نقلاً عن الوقت عمار أو دمار : ص ٥٧ .
(٦) رواه أبو داود ، ٤١٥٩ ، والنسائي : ج٢ ، ص ٢٧٦ ، والترمذي : ج١ ، ص٣٢٦ ، وهو في الصحيحة ، للألباني ، ٥٠١ .
(٧) رواه النسائي : ج٢ ، ص (٢٧٦ - ٢٧٧) ، وهو في الصحيحة ، للألباني ، برقم : ٥٠٢ .

وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [1] ، قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة ، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، أن يأتوا رسول الله ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، [فـ] هموا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ الآية [2] .

وقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾[3] .

وقال ﷺ : ((**إنَّ الولد مبخلة مجبنة مجهلة محزنة**)) [4] :

مبخلة : يحمل أبويه على البخل ، ويدعوهما إليه فيبخلان بالمال لأجله .

مجبنة : معناه أن الولد موقع أباه في الجبن خوفًا من أن يقتل في الحرب ، فيضيع ولده بعده [5] .

ومجهلة : معناه أن الولد يشغل والده عن تَعلُّم ما ينفعه من أمور دينه ، كما في تفسير أبي عباس للآية المذكورة قريبًا .

ومحزنة : يحزن الوالد على ولده إذا مرض أو مات .

والخلاصة أن قيام الرجل على تربية أهل بيته ، وسعيه للإنفاق عليهم وإحاطتهم برعايته واهتمامه مطلوب شرعًا ، حتى قال ﷺ : ((**كفى بالمرء إثمًا أن يُضيّع مَنْ يعول**)) [6]، ولكن يجب ألا يحمله حبُّه لهم وإشفاقه عليهم على التقصير في حق ربه أو التفريط في حق نفسه ودعوته ، وغيرها من الحقوق .. وقد قال سلمان الفارسي لأخيه أبي الدرداء رضي الله عنه :

---

(١) سورة التغابن [١٤] .
(٢) رواه الترمذي : ٣٥٥٠ ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم : ج٢ ، ص ٤٩٠ ، وصححه ووافقه الذهبي ،والحديث من رواية سماك بن حرب عن عكرمة ، وقد حسّنه الألباني ، كما في صحيح سنن الترمذي ، برقم : ٢٦٤٢.
(٣) سورة المنافقون [٩] .
(٤) رواه الحاكم عن الأسود بن خلف ، ورواه الطبراني عن خولة بنت حكيم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ، برقم : ١٩٩٠ ، وانظر أيضًا المشكاة ، برقم : (٤٦٩١ - ٤٦٩٢) .
(٥) المرقاة : ج٨ ، ص (٤٦٩ - ٤٧٠) .
(٦) رواه أبو داود ، ١٦٩٢ ، وأحمد : ج٢ ، ص (١٦٠ - ١٩٤) ، وغيرهما . وقد حسَّنه الألباني في الإرواء ، برقم : ٨٩٤ ، ٨٩٨ .

« إن لربك عليك حقًّا ، ولنفسك عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا ، فأعطِ كلَّ ذي حق حقه » .. فقال النبي ﷺ : « **صدق سلمان** » (١) .

٧ - ٧ : اتباع الهوى :

من ضعف أمام هواه تخلف عن قافلة الجادِّين ، وقعد مع الخوالف ، وصار من جملة الكسالى البطالين ؛ فليس له في قافلة الجدِّية ناقة ولا جمل ..

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ولهذا عدَّ السلف مخالفة الهوى من موجبات قوة المرء ومروءته وقدرته على الجهاد .

قال السفاريني : « قال الإمام ابن القيم : مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه . وقال بعض السلف : الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده ، وفي الحديث الصحيح المرفوع : « **ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** » (٢). وكلما تمرن على مخالفة هواه اكتسب قوة على قوته ، وبمخالفته لهواه تعظم حرمته وتغزر مروءته . قال معاوية خليفة المؤمنين : المروءة ترك الشهوات وعصيان الهوى . قال الإمام المحقق ابن القيم : وسمعت شيخنا (يعني شيخ الإسلام ابن تيمية) - قدّس الله روحه - يقول : جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين ، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم ؛ فمن قهر هواه عزَّ وساد ، ومن قهره هواه ذلَّ وهان وهلك وباد » (٣) .

٨ - نماذج من الجادِّين :

٨ - ١ شيخ المفسرين والمحدثين والمؤرخين :

قال القاضي أبو بكر بن كامل - أحمد بن كامل الشجري - تلميذُ ابن جرير وصاحبُه ، يصف انتظام أوقات ابن جرير وأعماله - رحمه الله تعالى - : « كان إذا أكل نام في الخيْش - ثياب في نَسْجها رِقَّة ، وخيوطها غلاظ ، تُتَّخَذُ من مُشَاقِة الكتَّان ، تُلبسُ في الحرِّ عند النوم لبرودتها على الجسم - في قميص قصير الأكمام ، مصبوغ بالصَّنْدل وماءِ الورد ، ثم يقوم فيصلي الظهر في بيته ، ويكتُبُ في تصنيفه

(١) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب : صنع الطعام ، والتكلف للضيف ، برقم : ٦١٣٩ ، والحديث أوردناه مختصرًا .
(٢) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب ، برقم : ٦١١٤ ، ورواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ، وبأيِّ شيءٍ يذهب الغضب ، برقم : ٢٦٠٩ .
(٣) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، محمد السفاريني : ص (٣٥٨ - ٣٥٩) .

إلى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصر ، ويجلس للناس يُقرئُ ويُقرَأُ عليه إلى المغرب ، ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه إلى العشاء الآخرة ، ثم يدخل منزله ، وقد قَسَّم ليلَهُ ونهارَه في مصلحة نفسه ، ودينه ، والخَلْق ، كما وفقه الله - عزَّ وجلَّ - » أ . هـ .

وقال الأستاذ محمد كرد علي في كتابه « كنوز الأجداد » ، ص ١٢٣ ، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري : « وما أُثِرَ عنه أنه أضاع دقيقةً من حياته من غير الإفادة والاستفادة . رَوَىَ المُعافَي بنُ زكريا عن بعض الثقات ، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري - رحمه الله تعالى - قبل موته ، وتُوفي بعدَ ساعةٍ أو أَقَلَّ منها ، فذُكِرَ له هذا الدعاءُ عن جعفر بن محمد ، فاستَدعَى مَحْبرةً وصحيفةً فكتبه ، فقيل له : أفي هذه الحال ؟! فقال : ينبغي للإنسان ألا يَدعَ اقتباس العلم حتى الممات » . فرحمَهُ الله ، وجزاه عن العلم والدين والإسلام وأهله خير الجزاء [1] .

٨ - ٢ : صاحب أكبر كتاب في الدنيا ! :

ويحتل الذروة في مقام المحافظة على الزمن ، ومعرفة نفاسته وغلاء قيمته ، والحرص على ملْءِ الأوقات بالأعمال الزاكيات ، والاستفادة من الخطرات واللحظات ؛ تأليفًا وتفكيرًا ، وتذكرًا وتذكيرًا : الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي - رحمه الله - الذي كان يقول : « إني لا يَحلُّ لي أن أُضيعَ ساعة من عمري ، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرة أو مناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملتُ فكري في حال راحتي ، وأنا منطرح ؛ فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطِّره ، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في الثمانين أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة .

وأنا أُقصِّر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتى أختار سَفَّ الكعك وحسيه بالماء على الخبز ، لأجل ما بينهما من تفاوت المَضْغ ؛ توفرًا على مطالعة ، أو تسطيرِ فائدة لم أدركها فيه ، وإنَّ أجلَّ تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت ، فهو غنيمة تنتهز فيها الفُرَص ، فالتكاليف كثيرة » .

وقد ألّف كتابه الفنون ، فيه فوائد كثيرة جليلة .

قال الحافظ الذهبي : لم يُصنَّف في الدنيا أكبرُ من هذا الكتاب ، حدَّثني من رأى منه المجلَّد الفلانيَّ بعدَ الأربع مائة ، قال ابن رجب : وقال بعضهم : هو ثماني مائة مجلَّدة .

فانظر أيها القارئ الكريم - رعاك الله وإياي - كيف يُثمر إعمال الخاطر وحفظُ الوقت ودأبُ النفس في الخير والعلم .. إنه ليُثمر ثمراتٍ لا تكاد تُصدَّق ، وإنها لصِدْق ، تُثمر (ثماني مائة مجلّدة) أكبر كتاب في الدنيا ، يؤلفه فرْدٌ واحد من الناس : أبو

---

(١) قيمة الزمن عند المسلمين ، عبد الفتاح أبو غدة : ص (٢٠ - ٢١) .

الوفاء بن عقيل ، إلى جانب تآليف كثيرةٍ غيره ألّفها ، تبلغ نحو العشرين مؤلّفًا ، وبعضُها في عشر مجلدات .

وما أصدقَ وأجملَ ما قاله الإمام بهاء الدين بن النحاس الحلبي النحوي (محمد بن إبراهيم) ، المتوفى سنة ٦٩٨ - رحمه الله تعالى - إذ يشير بقوله الآتي إلى أن ضم القليل إلى القليل مع الدوام عليه ، يتكوَّنُ منه الكثيرُ الهائل العجيب ، كما حَصلَ لأبي الوفاء بن عقيل (ثماني مائة مجلدة) . يقول بهاء الدين بن النحاس الحلبي كما في ترجمته في « بغية الوعاة » للسيوطي ، ص ٦ :

اليومَ شيءٌ وغدًا مِثلُه ... من نُخَبِ العلم التي تُلتَقَطْ

يُحصِّلُ المرءُ بها حِكمةً ... وإنما السَّيْل اجتماعُ النّقَطْ (١)

٩ - قواعد يسير عليها الجادُّون :

٩ - ١ : اتقِ اللهَ حيثما كنت :

- ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾ (٢) .
- ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ (٣) .

٩ - ٢ : لا تؤجل عمل اليوم إلى غدٍ :

- ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا**﴾ (٤) .
- ﴿**وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ (٥) .

٩ - ٣ : أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقه :

- ((إن لربك عليك حقًّا ، وإن لنفسك عليك حقًّا ، وإن لزوجك عليك حقًّا ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍ حقَّه)) (٦) .

٩ - ٤ : اعمل .. فإن لم تستطع فأعن غيرك .. فإن لم تستطع فكفّ شرّ

---

(١) قيمة الزمن عند المسلمين : ص (٢٦ - ٢٩) ، باختصار مع تصرف يسير .
(٢) سورة الطلاق [٢ - ٣] .
(٣) سورة البقرة [٢٨٢] .
(٤) سورة المؤمنون [٩٩ - ١٠٠] .
(٥) سورة المنافقون [١٠] .
(٦) سبق تخريجه ، وهو من رواية البخاري في صحيحه .

نفسِك :

قال رسول الله ﷺ : ((**على كلِّ مسلم صدقةٌ**)) . **قيل** : أرأيت إن لم يَجِدْ ؟ **قال** : ((**يعتمل بيديهِ فينفع نفسه ويتصدق**)) . **قيل** : أرأيت إن لم يستطع ؟ **قال** : ((**يُعينُ ذا الحاجة الملهوف**)) . **قيل** : أرأيتَ إن لم يستطع ؟ **قال** : ((**يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر**)) . **قال** : أرايتَ إن لم يفعل ؟ **قال** : ((**يُمْسِكُ عن الشر . فإنَّها صدقة**)) [1] .

٩ ـ ٥ : هناك نية وهدف لكلِّ عمل :

قال رسول الله ﷺ : ((**إنما الأعمال بالنيات**)) [2] ، فخطواته مرسومة ، وبرامجه معلومة ، فلا مجال للارتجالية ولا للعشوائية عنده .

٩ ـ ٦ : الأهم ثم المهم [ترتيب الأوليات] :

قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى في الحديث القدسي : ((**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبُّ إليَّ مما افترضتُه عليه ، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ..**)) [3] . فالفرائض مقدمة على النوافل ، والواجبات مقدمة على المستحبات فضلاً على المباحات والفرض العيني مقدم على الكفائي ، والواجب المضيق على الواجب الموسع ..

١٠ ـ مسائل في الجدِّية :

١٠ ـ ١ : هل اللهو يتناقض مع الجدية ؟ :

الجواب : إن من الجدِّية أن يكون للمرء ، وقت يروّح فيه عن نفسه وأهله ورفقائه باللهو المباح ؛ لأن النفوس تمل وتكل . قال عليٌّ رضي الله عنه : ((روّحوا القلوب ساعةً بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عَمِي)) .

وقد سابق رسول الله ﷺ عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرتين ، وأذن لها أن تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم ، وكان يمازح أصحابه ولا يقول إلا حقًّا .

وإنما يتناقض اللهو مع الجدِّية عندما يتعدى المسلم بلهوه على الحقوق المناطة به ؛ فيقصر في حق ربه ، أو في رعاية أهله ، أو في تربية نفسه ، ونحوها .. أو يغلب عليه فيلهو في مواضع الجد .

١٠ ـ ٢ : يلاحظ على بعض الجادِّين العبوس .. فما رأيكم ؟

---

[1] رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ، برقم : ١٠٠٨ .
[2] رواه البخاري ، بدء الوحي ، برقم : ١ ، ورواه مسلم ، الإمارة ، برقم : ١٩٠٧ .
[3] رواه البخاري ، كتاب الرقائق ، باب التواضع ، برقم : ٦٥٠٢ .

لا نعني بالجدية أن يكون المسلم عابس الوجه ، مقطّب الجبين ؛ فالعبوس ليس من سنَّة سيد المرسلين ﷺ إذا كان الْبِشْر يعلو محياه الشريف ، وقال جرير ﷺ : ((ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسَّم في وجهي)) [١] . فالجادُّ ودودٌ لطيفٌ ، هين لين ، هاش باش ، ليكون قدوةً للناس في جديته وفي أخلاقه وحسن عشرته [٢] .

خامسًا : بعض التطبيقات العلمية لتأكيد معاني الدرس :

١- الالتزام بحضور اللقاءات والمناشط الهادفة في الوقت المحدد دون تأخُّر .

٢- وجود مفكرة للمواعيد والواجبات ، للاستعانة بها على تنظيم الوقت وحسن استثماره .

٣- القراءة اليومية لكتاب الله أولاً ، ثم كتب العلوم الشرعية والثقافية الإسلامية ، وذلك حسب الجدول الشخصي المعدّ لهذا الغرض .

٤- تخصيص مبلغ من الراتب لنصرة دين الله ولمساعدة المحتاجين وغيرها من سبل الخير وأبوابه .

٥- القيام بمناقشات هادفة أو قراءة مفيدة أو مسابقات تربوية لأفراد الأسرة ، وحث الجميع على الإفادة منها ، والمشاركة فيها ، والتجاوب معها بالجوائز وكلمات الإشادة .

التطبيقات العملية كثيرة لهذا الدرس في العبادات : كقيام الليل ، والصيام ؛ أو في العلمية : كالقراءة ، وحضور الدروس ، والاستماع للأشرطة ؛ أو الدعوية : كالاتصال بالشباب ، ومحاولة هدايتهم .. إلخ . والأخ المربي يجتهد في تحديد ما يناسب كل شخص في كل ميدان .

سادسًا : بعض مراجع البحث :

١- مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي ، أحمد قبش ، دار الرشيد ، ط٢ .

٢- ديوان الإمام الشافعي ، الإمام الشافعي ، دار الكتب العلمية ، ط١ .

٣- صفحات مضيئة من عبادة السلف ، إبراهيم العلي ، مكتبة المنار ، ط١ .

٤- كنز العمال ، الهندي ، مؤسسة الرسالة .

٥- صحيح الكلم الطيب لشيخ الإسلام ابن تيمية ، الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط٧ .

٦- قيمة الزمن عند المسلمين ، عبد الفتاح أبو غدة ، دار القلم ، ط٣ .

---

[١] رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب التبسُّم والضحك ، برقم : ٦٠٨٩ ، ولفظه في الصحيح ((ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت ، ولا رآني إلا تبسَّمَ في وجهي)) .

[٢] انظر للتوسع الخطة البراقة ، للخالدي : ص (٦٢ - ٦٣) .

٧- فيض القدير ، المناوي ، دار المعرفة .
٨- في بناء الشخصية الإسلامية ، زيد الزيد ، دار العاصمة ، ط١ .
٩- الجواب الكافي ، ابن القيم ، مكتبة دار التراث ، ط٣ ، تحقيق يوسف بديوي .
١٠- واحات الإيمان ، البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .
١١- الوقت عمار أو دمار ، جاسم المطوع ، دار الدعوة ، ط٦ .
١٢- اقتضاء العلم العمل ، الخطيب البغدادي ، المكتب الإسلامي ، ط٥ ، تحقيق الألباني .
١٣- صيد الخاطر ، ابن الجوزي ، دار اليقين ، ط١ ، تحقيق عبد الرحمن البر .
١٤- تحذير الداني والقاصي من عقوبات الذنوب والمعاصي ، أحمد فريد ، مكتبة الصحابة ، ط١ .
١٥- مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ، دار الفكر .
١٦- الأحاديث القدسية ، لجنة البحث في دار الكتاب العربي .
١٧- الذريعة إلى مكارم الشريعة ، الأصفهاني ، دار الكتب العلمية .
١٨- المصفى من صفات الدعاة ، البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .
١٩- الوقت في حياة المسلم ، القرضاوي ، دار الصحوة ، ط٢ .
٢٠- ظاهرة ضعف الإيمان ، المنجد ، دار الوطن ، ط١ .
٢١- الفوضوية في حياتنا ، عادل آل عبد العالي ، الهداية ، ط٢ .
٢٢- اللهو المباح في العصر الحديث ، إبراهيم بن محمد ، دار الصحابة للتراث ، ط٢ .
٢٣- المزاح بين المشروع والممنوع ، عبد العزيز الجطيلي ، دار الكتاب والسنّة ، ط١ .
٢٤- الشباب والمزاح ، عادل آل عبد العالي ، دار المنار ، ط٢ .
٢٥- الحلال والحرام في الإسلام ، القرضاوي ، المكتب الإسلامي ، ط١٣ .
٢٦- تربية الأولاد في الإسلام ، عبد الله علوان ، دار السلام ، ط٣ .
٢٧- غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، السَّفاريني ، دار الكتب العلمية ، ط١ .
٢٨- موسوعة نضرة النعيم ، مجموعة من الباحثين ، دار الوسيلة ، ط١ .
٢٩- حتى لا تكون كَلاًّ ، عوض القرني ، دار الأندلس الخضراء ، ط١ .
٣٠- الخطوات الذكية ، سام ديب وسوسمان ، المؤتمن للنشر ، ترجمة سامي تيسير .
٣١- الخطة البرَّاقة لذي النفس التَّوَّاقة ، صلاح الخالدي ، دار القلم ، ط١ .
٣٢- المشوق لذكر الله تعالى ، محمد الرملي ، دار ابن القيم ، ط١ .
٣٣- العمل في الإسلام ، عز الدين الخطيب ، دار عمار .

٣٤- صحيح الوابل الصيب ، لابن القيم ، سليم الهلالي ، دار ابن الجوزي ، ط٢ .
٣٥- مع قصص السابقين في القرآن ، صلاح الخالدي ، دار القلم ، ط١ .
بالإضافة إلى مراجع التفسير ، والحديث ، والسير والتراجم ، ومعاجم اللغة ، وغيرها ..

جماعية

الجماعيــة

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغـة :

قـال ابن فـارس - رحمـه الله - : ((الجيم والميم والعين أصل واحد ، يدل علـى تَضَـــــامِّ الشَّيء)) (1) .

وقــال ابـن منظـور - رحمــه الله - : ((الجَمْـعُ : اسـمٌ لجماعـة النــاس . والجَمْـعُ والمَجْمَعةُ : كالجمع ، وقد استعملوا ذلك في غير الناس حتى قالوا : جماعةُ الشجر ، وجماعة النبات)) .

((أمر جامع : يجمع الناس .. والمسجد الجامع : الذي يجمع أهلَه .. والجمعة ، وهو يوم العَرُبَةِ ، سُمِّي بذلك لاجتماع الناس فيه)) (2) .

قال الراغب الأصفهاني : ((الجمع : ضم الشـيء بتقريب بعضـه مـن بعض .. قـال تعـالى : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾(3) ، وقـال : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾(4). ويقال أجمع المسلمون على كذا : ((اجتمعت آراؤهم عليه)) (5).

(الجماعة) : طائفةٌ من الناس يجمعها غرضٌ واحد (6) .

ب - اصطـلاحـًا :

نقصد بالجماعية حب المسلم للاجتماع مع إخوانه المؤمنين ، والدعاة الصـالحين ، للتواصي معهم بالحق والتواصي بالصبر ، والتعاون على البر والتقوى ، مثل :

- اجتماع المسلم مع جماعة المسجد للدعوة والتناصح بينهم ، وتفقد المحتاجين ، والقيام على الأرامل والمعوزين .
- اجتماع المسلم بالعلماء العاملين والمشايخ المخلصين في حلق العلم ؛ للأخذ عنهم ، والتتلمذ عليهم .
- اجتمـاع المسلم بالدعاة العـاملين فـي هيئـات الإغاثـة والمؤسسـات الخيريـة ،

---

(1) معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس : ج١ ، ص١٣٤ .
(2) لسان العرب ، لابن منظور : ج١ ، ص (٦٧٨ - ٦٨٣) ، (باختصار) .
(3) سورة القيامة [٩] .
(4) سورة سبأ [٢٦] .
(5) المفردات ، الراغب الأصفهاني : ص (٢٠١ - ٢٠٢) .
(6) المعجم الوجيز ، معجم اللغة العربية : ص (١١٦ - ١١٧) .

وضمُ جهدهِ إلى جهودهم في إغاثة الملهوفين وإنقاذ المتضررين ومساعدة الضعفاء والمساكين من المسلمين .

- اجتماع المسلم بإخوانه الدعاة الموثوقين ؛ لهداية الضال ، وتعليم الجاهل ، وتذكير الغافل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتناصح بينهم في الأسلوب الأقوم في ذلك .. وغيرها من الاجتماعات النافعة ، البعيدة عن الغلو والشطط والتعصب والابتداع .

ج - المصطلحات المقاربة :

- التعاون (سبق الحديث عنه) .
- الأخوة (سبق الحديث عنه) .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف في هذا الدرس إلى :

١- التأكيد على مبدأ الجماعية في الدعوة ؛ لأنَّه أكبر تأثيرًا وأشدُّ قوةً ، وأكثر نفعًا ، وأبعد عن الشطط ((**الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ..**)) .

٢- تنمية حب المسلم لإخوانه المسلمين ، ونبذ الأنانية والانطوائية ، وإيثار المصلحة الجماعية على المصلحة الذاتية أو المنفعة : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ** ﴾[1] .

٣- تكوين الوعي عند المسلم للمنافع الكثيرة والمصالح العظيمة التي يجنيها الفرد من التعاون مع إخوانه ، والتِفَافِه حولَهم ، مع بيان المخاطر والآفات التي تتكالب عليه حال انعزاله عنهم .

٤- التحذير من بعض الآفات والعوائق التي تعترض المسلم حال اجتماعه بإخوانه ومجالسته لهم وتعاونه معهم .

٥- الموازنة بين المسؤولية الفردية في تربية النفس والارتقاء بها وتهذيبها ، والمسؤولية الجماعية في دعوة الآخرين ، ومجاهدة المنافقين ، فيقوم بمقتضيات قوله تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ﴾[3] بتوازن وانسجام .

---

(1) سورة الحشر [٩] .
(2) سورة الشمس [٩] .
(3) سورة آل عمران [١٠٤] .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- مفهوم الجماعية .
٢- مشروعيتها .
٣- أهمية الجماعية للفرد والمجتمع وفوائدها .
٤- كيف غرس الإسلام الجماعية في قلوب أتباعه ؟
٥- صيانة الإسلام لحِمى الجماعة من التفكك والفرقة .
٦- مظاهر قوة الجماعية عند الداعية .
٧- عوائق في طريق الجماعية .
٨- صور من الجماعية .
٩- الموازنة بين الجماعية والفردية .
١٠- مسائل حول الجماعية .

رابعًا : العرض :

١- مفهوم الجماعية (انظر دلالة المصطلح) .

٢- مشروعيتها :

لقد جاءت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة تدعو المسلمين للاجتماع على البِرِّ والتكاتف على الخير ، وإليك بعض هذه النصوص وما ذكره أهل العلم في تأويلها :

٢ - ١ : قال تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا** ﴾[1]. قال القرطبي - رحمه الله - في حبل الله : وقال ابن مسعود : حبل الله القرآن . ورواه علي وأبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ ، وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك ... وروي عن عبد الله بن مسعود ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا** ﴾ ، قال : الجماعة ؛ روي عنه وعن غيره من وجوه ، والمعنى كله متقارب مُتداخل ؛ فإن الله تعالى يأمر بالألفة ، وينهى عن الفُرْقة ، فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة . ورحم الله ابن المبارك حيث يقول :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا
منه بعُرْوته الوثقى لمن دانا [2]

---

(1) سورة آل عمران [١٠٣] .
(2) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ج٤ ، ص ١٥٩ ، (باختصار) .

٢ ـ ٢ : قال الله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (١) . قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ : ((يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات ؛ وهو البر وترك المنكرات ، وهوالتقوى ، وينهاكم عن التناصر على الباطل ، والتعاون على المآثم والمحارم)) (٢) .

وقال بعض أهل العلم في تفسير الآية السابقة : ((وليعن بعضكم بعضًا أيُّها المؤمنون على البر ؛ وهو العمل بما أمر الله ، والتقوى : هو اتقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه ، وعلى هذا فقد أمر الله بالتعاون على أمر دينه ، والأمر للوجوب))(٣).

٢ ـ ٣ : ولقد أكدت أحاديث المصطفى ﷺ مشروعية الجماعية في تأدية جُلِّ شعائر الإسلام وكثيرٍ من فرائضه ـ كما سيأتي الحديث عنه إن شاء الله ـ وبيّن عليه أفضل الصلاة والسلام أهمية اجتماع المسلم بإخوانه المسلمين ، واختلاطه معهم في ثباته على الحق ، وعدم استحواذ الشيطان عليه فقال ﷺ : ((**ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية**))(٤)، والقاصية هي الشاة المنفردة عن القطيع .

٢ ـ ٤ : ودَعا ﷺ إلى حماية المجتمع المسلم من معاول الهدم والتشتت : فحياة التفرق والتمزق هي حياة الفوضى التي يأباها الإسلام ، ويربي أتباعه على البعد عنها ومحاربتها .

((**من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحدٍ يريد أن يشق عصاكم ويفرّق جماعتكم فاقتلوه بالسيف كائنًا من كان**)) (٥) .

٢ ـ ٥ : وكَدَر الجماعة خير من صفو الفردية : ونقصد بالكدر ذلك الأذى الذي يصيب المؤمن من اختلاطه بإخوانه المسلمين ، في ماله أو عرضه أو في غيرها من حقوقه فيصبر عل ذلك مُؤْثرًا الاجتماع بهم وخلطتهم ؛ لما فيها من أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، ودعوة إلى الخير ، وغيرها من المنافع العظيمة والمصالح الجسيمة ، فإن منزلته خير من منزلة من اعتزلهم ولم يصبر على أذاهم ، وأعظم

---

(١) سورة المائدة [٢] .
(٢) تيسير العلي القدير لاختصار ابن كثير ، للرفاعي : ج١ ، ص ٤٨٤ .
(٣) انظر أيضًا تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ص ١٨٢ .
(٤) رواه أحمد : ج٥ ، ص ١٩٨ : ج٦ ، ص ٤٤٦ ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب ٤٧ ، والنسائي : ج٢ ، ص ١٠٦ ، وهو في صحيح الجامع ، برقم : ٥٧٠١ ، : حسن للتوسع في شرح الحديث انظر المرقاة شرح المشكاة .
(٥) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ، برقم : ١٨٥٢ .

أجرًا . قال ﷺ : ((**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**)) [١] .

٢ - ٦ : وعلى هذا سار السلف الذين بيَّن معتقدهم صاحب الطحاوية فقال : ((ونرى الجماعة حقًّا وصوابًا ، والفرقة زيغًا وعذابًا)) [٢].

٣- أهمية صفة ((**الجماعية**)) وفوائدها :

لابد من تنشئة الفرد المسلم على حب الجماعية ، وتبصيره بما يترتب عليها من مصالح عظيمة وفوائد جسيمة في الدنيا والآخرة ، وتبدو أهمية صفة الجماعية من خلال أمور كثيرة منها :

٣ - ١ : الجماعية مطلب شرعي في تأدية شعائر الإسلام والكثير من فرائضه ، وقد جاءت نصوص كثيرة لتأكيدها ، وحث النفوس عليها ؛ لما للجماعية من آثار حميدة ، وفوائد جليلة .

٣ - ٢ : الجماعية دافع لِتَحلِّي المسلم بكثير من الفضائل التي دعا إليها الإسلام : كالإيثار ، والأخوة ، والعفو ، والإحسان إلى الناس .. إلى آخره من صفات المتقين التي بيّنها ربُ العالمين في كتابه المبين ؛ فلا سبيل للاتصاف بها ، واختبار النفس فيها إلا من خلال وسط جماعي .

٣ - ٣ : إن جلائل الأعمال ، وعظائم الأهداف لا يمكن تحقيقها - عادة - إلا من خلال العمل الجماعي الذي تتكاتف فيه الجهود ، بخلاف العمل الفردي ، فإنه لا يثمر في الغالب إلا أعمالاً تتناسب مع مستوى طاقات الأفراد شدةً وضعفًا ؛ ولهذا نرى إبراهيم - عليه السلام - يستعين بإسماعيل - عليه السلام - في بناء البيت ، وموسى - عليه السلام - يدعو ربَّه أن يَشُدَّ عَضُدَهُ بأخيه ..

٣ - ٤ : إن كثيرًا من مطالب الإنسان الحياتية ، وحاجاته المادية ، بل والمعنوية ، تحتاج إلى جهود جماعية : كالتماس النصرة ، وتبادل المنفعة ، والإفادة من التجارب .. بل حتى عالم الحيوان نرى فيه هذا التكاتف الجماعي : كالنحل ، والنمل ، وغيرها ، على حد قول القائل:

---

(١) رواه ابن ماجة : ج٢ ، ص٤٩٣ ، غير أن سياقه ((أعظم أجرًا)) بدل ((خير)) ، وكذلك رواه الترمذي : ج٣ ، ص ٣١٩ ، والبخاري في الأدب المفرد ٣٨٨ واللفظ له ، وأحمد في المسند : ج٥ ، ص٣٦٥ ، وهو في الصحيحة للألباني ، برقم :(٩٣٩) .

(٢) العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز : ص ٥١٢ .

النمل تبني قراها في تماسكها   والنحل تجني رحيق الشهد أعوانًا

وقد بوَّب صاحب الذريعة إلى مكارم الشريعة بابًا فقال : ((**الباب الأول في حاجة** الناس إلى اجتماعهم للتظاهر .

اعلم أنَّه لما صعب على كل أحد أن يحصِّل لنفسه أدنى ما يحتاج إليه إلا بمعاونة عدة رجال له ؛ فلقمة طعامه لو عددنا تعب محصليها من الزرَّاع والطحَّان والخبَّاز وصنَّاع آلاتها لصعب حصره ؛ ولهذا احتاج الناس أن يجتمعوا فرقة فرقة فيتظاهروا ؛ ولأجل ذلك قيل : الإنسان مدني بالطبع ، أي لا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه ، بل يفتقر بعضهم إلى بعض في مصالح الدين والدنيا ، وعلى ذلك نبَّه ﷺ بقوله : ((**المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضًا**)) ، وقال : ((**مثل المؤمنين في توادِّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا تألّم بعضه تداعى سائرُه**))، وقيل : الناس كجسدٍ واحدٍ ؛ متى عاون بعضُه بعضًا استقل ، ومتى خَذَل بعضُه بعضًا اختل)) [1] .

٣ - ٥ : الجماعية دافع للحركة ، وتوظيف الداعية لملكاته وجهوده وطاقاته في خدمة دعوته ونشر عقيدته ، بعكس الفردية والانعزالية ، فإن المرء يشعر غالبًا معها بالفتور والكسل والدعة والملل .

٣ - ٦ : الجماعية في العمل تعطي الدعوة قوة تستعصي معها على الاستئصال أو الاحتواء ، فلا يستطيع الأعداء الظفر بها أو التغلب عليها .

٣ - ٧ : الجماعية تحقق مبدأ التكامل في الدعوة ؛ إذ تتكاتف فيها الجهود والطاقات ، وتتضافر فيها المواهب والملكات ، فَتسْتوفي بالاجتماع شروط نجاح العمل وإتمامه وإتقانه . قال الله عن نبيه موسى - عليه السلام - وهو يسأل ربه : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ** ﴾ [2] ، فقد سأل موسى - عليه السلام - ربه أن يجعل معه أخاه هارون مساعدًا ومعاونًا له في الدعوة [3] ، وذكر أسباب هذا الدعاء ؛ وهي أنه يخشى أن يُقتَل ، فتنقطع بمقتله الدعوة ، وكذلك من عدم الإبانة في الحجج والدلائل على صدق دعوته ورسالته بسبب عقدة لسانه ؛ فيريد أن يعينه هارون في هذه المهمة ، فهو أفصح منه لسانًا ، وأحسنُ بيانًا ؛ فتتكامل الطاقات أو

---

(١) الذريعة للأصفهاني : ص ٢٦٢ ، وانظر للتوسع : الإحياء ، للغزالي ، حيث ذكر الفوائد السبعية للخلطة

(٢) سورة القصص [٣٣ - ٣٤] .

(٣) الردء : العون والمساعدة .

الجهود في الوصول إلى الهدف المنشود .

٣ ـ ٨ : الجماعية من أهم عوامل ثبات الداعية على الحق الذي يؤمن به ويدعو إليه ؛ إذ من خلالها يتواصى مع إخوانه بالحق ويتناصحون بالصبر على عقبات الطريق ، لاسيما في زماننا هذا الذي كثرت فيه الشهوات والفتن والشبهات والمحن : ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾[1] ..

٣ ـ ٩ : الجماعية وسيلة للتعرف على الحق والوصول إليه ، والبعد عن الباطل والنفور منه ؛ فمن خلال تشاور المرء مع إخوانه وتداول الآراء والأفكار ، يستنير الطريق ، وتتضح الرؤية ، وقد قال ﷺ : ((**الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد**))[2] .

٣ ـ١٠: ((الجماعية مجال واسع لأعمال البر ، وميدان رحب لاكتساب الأجر والثواب . فالمسلم يزور إخوانه في الله مبتغيًا محبة الله ، ففي الحديث القدسي : ((**حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي ، وقد حقت محبتي للذين يتبادلون من أجلي**))[3] ، وتتفتح أمامه أبواب الخير فهو يسلم على المؤمنين ، وينصح لهم ، ويلبي دعوتهم ، ويشمّت عاطسهم ، ويعود مريضهم ، ويُشيّع ميتهم ، ويتفقد غائبهم ، ويودِّع مسافرهم ، ويستقبل قادمهم ، ويقرض محتاجهم ، ويفرج عن مكروبهم ، ويهدي لهم ، ويقبل هديتهم ، ويشير عليهم ، ويعلم جاهلهم ، ويتعلم من عالمهم))[4] .. خير عظيم وثواب كبير لا يجده المرء عندما يكون وحده .

٣ ـ ١١ : الجماعية صفة ترفعُ منزلةَ صاحبها في الآخرة ، وتعلي درجته ..

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف تقول في رجلٍ أحبَّ قومًا ولم يلحق بهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((**المرء مع من أحب**))[5]، بل ربما دخل النار فيشفع له إخوانه الذين كان معهم فيُشَفِّعهم اللهُ - عزَّ وجلَّ - فيه .

---

(1) سورة العصر [١ - ٣] .
(2) رواه ابن ماجة : ج٢ ، ص ٦٤ ، وابن حبان ، برقم : ٢٢٨٢ ، وأحمد : ج١ ، ص ١٧٧ ، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ، برقم : (٤٣١) .
(3) قال الهيثمي في المجمع (ج١٠ ، ص ١٧٩) : رواه الطبرابي في الثلاثة ، وأحمد بنحوه ، ورجال أحمد ثقات ، قال ابن حجر في الفتح (ج١٠ ، ص ٥٠٠) : وعند مالك ، وصححه ابنُ حبان من حديث معاذ مرفوعًا ((**وحقت محبتي للمتزاورين فيّ**)) الحديث ، وأخرجه أحمد بسند صحيح من حديث عتبان بن مالك .
(4) شخصية المسلم بين الفردية والجماعية ، السيد محمد نوح : ص (٣٦ - ٣٧) .
(5) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب علامة الحب في الله ، ورواه مسلم في البر والصلة ، باب المرء مع من أحب ، برقم : ٢٦٤٠.

٤- كيف غرس الإسلام الجماعية في قلوب أتباعه ؟ :

حرص الإسلام على تمجيد اجتماع المسلمين على الحق والتعاون فيما بينهم على البر والتقوى ، وحث على الألفة بين المؤمنين ، ورغّب في التكاتف والتلاحم بينهم ، ودعا إلى نبذ كل عوامل الشقاق والافتراق بين أفراد المجتمع المسلم عامةً ، والدعاة إلىالله خاصةً ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[1] . ومن خلال استقراء بعض النصوص الواردة في الحث على « الجماعية » يتبين لنا بعض الأساليب والوسائل التي دعا إليها الشارع لغرس الجماعية في قلوب المؤمنين ، والتي منها :

٤ - ١ : الدعوة إلى الاجتماع ونبذ الفرقة والنزاع :

- قال الله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا** ﴾[2] .
- قال الله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى** ﴾[3] .
- وقال ﷺ : « **عليكم بالجماعة ، وإيّاكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، ومن أراد بحبوحةَ الجنّةِ فليلزم الجماعة** »[4] .

٤ - ٢ : وصف المؤمنين بالتلاحم والترابط :

لقد وصف الرسول ﷺ المؤمنين بالترابط والتلاحم ، وشبههم بالبنيان المتماسك فقال - عليه أفضل الصلاة والسلام - : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا** »[5]، وشبّك بين أصابعه ، ففي هذا الحديث دعوة إلى الوحدة الجماعية بين الأفراد المسلمين ، وفيه بيان للفائدة العظيمة التي تجنيها الجماعة من وحدتها وتماسكها ، إنها القوة التي تظفر بها الجماعة ، حينما يترابط أفرادها ويشد بعضهم أزر بعض ، إنهم بذلك يكوّنون شيئًا يشبه البنيان ، ألسنا نرى القصر العظيم وما فيه من أبراج عالية ، مؤلفًا من حجارة صغيرة جُمع بعضها إلى بعض ، وعُقدت وفق نظامٍ خاص يمنحها

---

(١) سورة آل عمران [١٠٤ - ١٠٥] .
(٢) سورة آل عمران [١٠٣] .
(٣) سورة المائدة [٢] .
(٤) سبق تخريجه في مبحث (٣ - ٩) .
(٥) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا ، برقم : ٦٠٢٦ ، ورواه مسلم ، في البر وصلة الرحم ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ، برقم : ٢٥٨٥ .

مجتمعة قوةً عجيبة ترتقي حتى تنط السحاب ؟! [١].

ومن أوصافه ﷺ لجماعة المؤمنين قوله عليه أفضل الصلاة والسلام : ((**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**)) [٢] ، وفي رواية لمسلم : ((**المسلمون كرجلٍ واحد ، إن اشتكى رأسه اشتكى كلُّه ، وإن اشتكى عينهُ اشتكى كلُّه**)) .

ففكرة وحدة جماعة المؤمنين وتماسك بنائهم قد وضعها الرسول ﷺ في صورة رجلٍ واحد ، فالرجل الواحد جسد ذو أعضاء مترابطة يجمعها عصبٌ واحد ، ويديرها فكر واحد ، وتحرُّكها عواطف واحدة ، وانفعالات واحدة ، ويغذيها دمٌ واحد ، وتسير جميعًا إلى غاية واحدة ، فإذا نزل الألم بالبعض فقد نزل الألم بالكلّ على سبيل المشاركة ، وإذا تمتّع البعض بلذَّة من اللذَّات ، اشترك معه فيها الجميع ، بحكم الصلة الوثيقة التي تؤلف وحدة الأحاسيس والمشاعر .

إنَّ الصورة التي شبَّهت الجماعة المؤمنة بالبنيان الذي يشدّ بعضه بعضا قد أعطت معاني القوة القابلة لبناء مجد رفيع ، وعز منيع . أمَّا الصورة الثانية التي شبهت وحدة المؤمنين برجل واحد ، فقد أدخلت عنصر الحياة في البناء الجماعي للمؤمنين ، وعنصر الحياة يلازمه الإحساس بالآلام واللذّات ، وسائر المشاعر الوجدانية والمشاعر الظاهرة .

ومن خلال هاتين الصورتين الحسيتين نستطيع أن نصور معاني الوحدة الجماعية التي دعا إليها الإسلام ، فهي بناء قابل للارتقاء العظيم ، وهي مع ذلك بناء ذو أحاسيس ومشاعر ذات آلام وآمال ولذّات وأكدار مشتركة)) [٣] .

٤ ـ ٣ : إقامة بعض الشعائر التعبدية جماعة :

((ولتغذية روح الجماعة في المسلمين أقام الإسلام مناسبات دينية كثيرة قائمة على الجماعة ، وحث المسلمين على شهودها ، وشدد النكير على من يتخلف عنها ، من أهمها : الصلاة)) [٤] . قال ﷺ : ((**ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة (**

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ، للميداني : ج٢ ، ص ١٧٤ .
(٢) رواه البخاري في الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم ، برقم : ٦٠١١ ، ورواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، برقم : ٢٥٨٦ .
(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ، للميداني : ج٢ ، ص ١٧٥ .
(٤) المرجع السابق : ج٢ ، ص ١٧٧ .

أي صلاة الجماعة) **إلا استحوذ عليهم الشيطان ؛ فعليكم بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية**)) (١) ، بل قد تبطل صلاة من صلى منفردًا عن الجماعة من غير عذر ، كما روى ((**لا صلاة لفرد خلف الصف**)) (٢). ورفع قدر صلاة الجماعة بالأجر والثواب فقال ﷺ : ((**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**)) (٣) .

٤ - ٤ : حث الإسلام علىالجماعية في حالات كثيرة :

أ – **الجماعية في الأكل** : لقد حث ﷺ على الاجتماع عند أكل الطعام ، وبيّن لأصحابه حين قالوا له : يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع . قال ﷺ : ((**فلعلكم تفترقون**)) . قالوا : نعم . قال : ((**فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه**)) (٤) . وأما قوله تعالى : ﴿ **لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا** ﴾ (٥) فمحمول على الرخصة أو دفعًا للحرج على الشخص إذا كان وحده (٦) .

ب – **الجماعية في السفر** : فعلى الرغم من كون السفر طارئًا وغالبًا ما يكون لأيّامٍ معدودات فإن الإسلام حث على الجماعية فيه ، ونهى عن الوحدة ، كما روى ذلك عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : ((**الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب**)) (٧) . ((الراكب)) يطلق على كل من ركب دابة ، و ((الراكب شيطان)) يعني مشي الواحد منفردًا منهي ، وكذلك مشي الاثنين ، ومن ارتكب منهيًّا فقد أطاع الشيطان ، ومن أطاعه فكأنه هو ؛ ولذا أطلق اسمه عليه (٨) .

---

(١) سبق تخريجه في المبحث (٢ - ٣) .
(٢) رواه أحمد : ج٤ ، ص ٢٣ والبيهقي في السن الكبرى : ج٣ ، ص ١٠٥ .
(٣) رواه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل صلاة الجماعة ، برقم : ٦٥٠ .
(٤) رواه أبو داود ، باب في الاجتماع على طعام ، برقم : ٣٧٦٤ ، ورواه ابن ماجة ، كتاب الأطعمة ، باب الاجتماع على الطعام ، برقم : ٣٢٨٦ ، وأخرجه أحمد في مسنده ، برقم : ١٦٠٧٨ ، قال الأرناؤوط في الأذكار للنووي(٢٠٠) : وهو حديث حسن بشواهده .
(٥) سورة النور [٦١] .
(٦) مرقاة المفاتيح ، للقاري : ج٨ ، ص (٨١ - ٨٢) .
(٧) رواه مالك في الموطأ ، برقم : ٢٦٠٧ ، والترمذي كتاب الجهاد ، باب ما جاء في كراهية أن يسافر الرجل وحده ، برقم : ١٦٧٤ ، ورواه أبو داود ، برقم : ٢٦٠٧ ، وأحمد : ج٢ ، ص ١٨٦ ، وغيرهم .. قال ابن حجر : حديث حسن الإسناد وصححه ابن خزيمة ، ذكره المناوي في الفيض : ج٤ ، ص ٤٤ .
(٨) ملخصًا من مرقاة المصابيح : ج٧ ، ص ٤٥٥ ، انظر للتوسع فيض القدير للمناوي : ج٤ ، ص (٤٣ - ٤٤) .

ج – **النهي عن المبيت منفردًا** : لحديث ابن عمر أن النبي ﷺ نهى عن الوحدة : ((**أن يبيت الرجلُ وحده ، أو يسافر وحده**)) [1] . فهذا النهي عن الوحدة في النوم ؛ فكيف بالوحدة في أمور الدعوة ومجاهدة الفسقة وأهل الأهواء ؟ ! .

٤ ـ ٥ : الأفضلية والخيرية لمن اجتمع بالناس ونفعهم وأَلِفهُم وألفوه :

خير الناس أنفعهم للناس ، وهذا النفع إنما يكون بمخالطتهم ، وبذل الجهد لإرشادهم وتوجيههم ، ومساعدتهم وخدمتهم ، والتودد إليهم والحرص عليهم ، وهذا هو ديدن الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - ، وقد وصف الله رسوله ﷺ فقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [2] ، وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن فقال : ((**المؤمن يَألف ويُؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس**)) [3] .

وحين يعتذر بعض الانعزاليين بأنهم يريدون أن يَسْلَموا من أذى الناس الذي قد يتعرضون له عند مخالطتهم ، يأتيهم البيان النبوي فيثبت لهم أن الذي يصبر على أذى الناس خيرٌ من الذي يرغب بالسلامة فيعتزل عنهم ؛ لأنَّ الإسلام يريد من المسلمين أن يكونوا كتلة جماعية ذات قوّة ، ويريد من الفرد المسلم أن يكون على مستوى من الأخلاق رفيع ، يستطيع به أن يصبر على أذى الناس ، ويحسن معاملتهم مع مخالطتهم ، ويكف أذاه عنهم وهو مندمج فيهم ، روى الترمذي وابن ماجة بإسناد صحيح عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : ((**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**)) [4][5] .

---

(1) رواه الإمام أحمد : ج٣ ، ص ٩١ ، برقم : ٥٦٥٠ ، قال الهيثمي في المجمع : ج٨ ، ص ١٠٤ : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . وهو في الصحيحة للألباني برقم : ٦٠ . وأصل الحديث في صحيح الإمام البخاري عن ابن عمر بلفظ : ((**لو يعلم الناس ما في الوحدة ..**)) الحديث .

(2) سورة التوبة [١٢٨] .

(3) رواه الدارقطني في الأفراد ، والضياء في المختارة عن جابر بن عبد الله ، ورمز له السيوطي بالصحة وسكت عليه المناوي في الفيض : ج٦ ، ص ٢٥٣ ، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني : ج١ ، ص ١٦٨ ـ ١٧٠ ، برقم : ٤٢٧ . وقد حسّنه .

(4) رواه الترمذي : ج٣ ، ص٣١٩ ، وابن ماجة : ج٢ ، ص ٤٩٣ ، ورواه أحمد : ج٢ ، ص ٤٣ ، والبخاري في الأدب المفرد برقم : ٣٨٨ ، وهو في الصحيحة للألباني برقم : ٩٣٩ وصححه ، وقد حسَّنه الحافظ بن حجر في بلوغ المرام وفي الفتح : ج١٠ ، ص ٥١٢ .

(5) الأخلاق الإسلامية وأسسها ، للميداني : ج٢ ، ص ١٧٨ .

٤ - ٦ : التذكير بأن الجماعية منهج أعداء الله في مقاومة الحق [1] :

« قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾[2] ، وقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ** ﴾[3] ، فأهل الكفر والنفاق يجتمعون ويتعاونون فيما بينهم لحرب الإسلام والمسلمين ؛ ولهذا فإن الحق - عزَّ وجلَّ - يأمرنا أن نقاتلهم مجتمعين متكاتفين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾[4] . قال القرطبي : أي محيطين بهم ومجتمعين .. وقال ابن عطية : وإنما معنى هذه الآية الحضّ على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة ، ثم قيّدها بقوله : ﴿ **كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾[5] . فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم . والله أعلم » [6] .

٤ - ٧ : شرع التآخي بين المؤمنين :

« قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[7] فجعل الأخوَّةَ بين المؤمنين ، يحب أحدُهم لأخيه ما يحبه لنفسه في الخير : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » [8] ، وهو مرآة له ينصحه ويسدده ، ويرشده ويوجهه كما قال ﷺ : « **المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكفُّ عليه ضيعته ، ويحُوطه من ورائه** » [9] . وقوله ﷺ : « **يكف عليه ضيعته** » ، أي يجمع عليه معيشته ويضمُّها له ، وضيعة الرجل : ما منه معاشه ، « **ويحوطه من ورائه** » ، أي يحفظه ويصونه ويذب عنه ويدفع عنه من يغتابه أو يلحق به ضررًا ويعامله بالإحسان بقدر الطاقة والشفقة والنصيحة وغير ذلك » [10]، ونهى

---

(1) شخصية المسلم بين الفردية والجماعية ، السيد محمد نوح : ص ٦٣ .
(2) سورة الأنفال [٧٣] .
(3) سورة التوبة [٦٧] .
(4) سورة التوبة [٣٦] .
(5) سورة التوبة [٣٦] .
(6) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ج٨ ، ص١٣٦ ، وأهل الكفر اليوم يجتمعون على شكل أحلاف عسكرية(حلف وارسو ، وحلف الأطلنطي ..) ، وعلى شكل أسواق تجارية (السوق الأوربية المشتركة) ، وعلى شكل برلمانات ، وهيئات سياسية (البرلمان الأوروبي) ، وعلى شكل ولايات كالولايات المتحدة الأمريكية ؛ فما أحرى المسلمون بالتجمع والتعاضد والتكاتف أمام هذه التجمعات الكفرية .
(7) سورة الحجرات [١٠] .
(8) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، رقم : ١٣ ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه في الخير ، رقم : ٤٥ .
(9) رواه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في النصيحة ، ورواه البخاري في الأدب المفرد ، باب المسلم مرآة أخيه ، برقم : ٢٣٩ ، وقد حسّنه الزين العراقي ، كما في الفيض : ج٦ ، ص ٢٥٢ .
(10) فيض القدير : ج٦ ، ص ٢٥٢ .

الإسلام عن كل ما يضعف هذه الأخوة ويهدمها أو يكدر صفوها ؛ لكي تبقى قوية متينة ، فنهى عن التنابز بالألقاب والسخرية والاستهزاء ، وغيرها من الآفات التي تزرع الضغينة والحقد في القلوب ، فيظهر بينها التنافر والتنازع : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [1] .

٥- صيانة الإسلام لحمى « **الجماعية** » من الفُرقة والتفكك :

لقد حرص الإسلام من خلال تشريعاته على تحقيق الترابط بين المؤمنين ، وحصول وحدتهم وانتظام عقدهم ، وتآلف قلوبهم ، حتى كأنهم جسد واحد في تعاونهم وتآزرهم ومشاعرهم وآمالهم ؛ ومنع كل سبب يؤدي إلى اختلافهم وتنابذهم ، وتباغضهم وتدابرهم ؛ حفاظًا على جماعتهم من عوامل التفكك والتشتت .. وإليك طرفًا من هذه التشريعات :

٥ - ١ : نهى عن العصبية الجاهلية :

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [2] .. « فميزان التفاضل بين أفراد المجتمع المسلم ليس للَّون أو الجنس أو القبلية ؛ وإنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، الكريم حقًّا هو الكريم عند الله ..

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وعلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

---

(1) سورة الحجرات [١١ - ١٣] .
(2) سورة الحجرات [١٣] .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض ، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس ، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت ، وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء وتسمى بشتى الأسماء ، وكلها جاهلية عارية من الإسلام ! .

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ؛ ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة : راية الله .. لا راية الوطنية ، ولا راية القومية ، ولا راية البيت ، ولا راية الجنس ؛ فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام » [1] .

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية « **دعوها فإنها منتنة** » [2] .

وقال ﷺ : « **لينتهين أقوامٌ يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ؛ إنما هم فحم جَهنّم . أو ليكوننَّ أَهونَ على الله من الجُعَلِ الذي يُدَهدِهُ الخراءَ بأنفه . إنَّ اللهَ أذهبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليةِ وفَخْرَها بالآباء . إنما هو مؤمنٌ تقيٌّ ، أو فاجرٌ شقيٌّ . النَّاسُ كلُّهم بنو آدم ، وآدمُ من التُّراب** » [3] .

ورُوي أن رجلاً قال لنبي الله عيسى - عليه السلام - : أي الناس أفضل ؟ فأخذ قبضتين من تراب وقال : أي هاتين أفضل ؟! الناس خلقوا من تراب ، فأكرمهم أتقاهم [4] .

٥ - ٢ : دعوة الإسلام للتغافر ونهيه عن التهاجر :

حث الإسلام المسلمين على التغافر فيما بينهم ، ونهاهم عن التدابر والتهاجر ؛ حفاظًا على وحدتهم وتآلف قلوبهم ، فقال ﷺ : « **لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام** » [5] . قال ابن عبد البر :

---

(١) الظلال : ج٦ ، ص ٣٣٤٩ ، مختصرًا .
(٢) رواه البخاري ، كتاب التفسير ، باب : ﴿**يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ..**﴾ الآية ، برقم : ٤٩٠٧ .
(٣) صحيح سنن الترمذي : ج٣ ، ص ٢٥٤ ، وهو حسن .
(٤) انظر للتوسع في هذا المعنى : نظرات في سورة الحجرات ، للصوّاف : ص (١٤٣ - ١٥٥) .
(٥) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب الهجر وقوله ﷺ : ((**لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث**)) ، برقم : ٦٠٧٧ ، ورواه مسلم في البر والصلة ، باب ٨ .

« أجمعوا على أنه لا يجوز الهجران فوق ثلاث إلا لمن خاف من مكالمته ما يُفسد عليه دينه أو يدخل منه على نفسه أو دنياه مَضرّة ، فإن كان كذلك جاز »[1] ، مثل : أهل البدع ممن يَخشى المرءُ من مخالطتهم فساد دينه ، ونحوهم من أهل الضلال والفُجَّار ، وكذلك أهل المعاصي إن كان في هجرهم إصلاحًا لهم ؛ ولهذا بوَّبَ الإمام البخاري بابًا قال فيه : (باب ما يجوز من الهجران لمن عصى)[2] .

٥ - ٣ : التثبت من أخبار الفاسقين :

كم من الحبال تقطعت وكانت متينة بسبب نمامٍ فاسق أو منافق حاقد يريد تفريق المؤمنين ، وتمزيق صفهم ؛ ولذا أمر الله المؤمنين بالتثبت من الأخبار فقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾[3] ، وأخطر من أولئك الفاسقين ؛ أهل الشبهات والأغراض السيئة ، الذين يخططون بالليل والنهار لتفريق الشمل ، وتشتيت الصف ، وتمزيق وحدة المسلمين ؛ ليعيش المسلم بعيدًا عن أخيه ، لا يفكر إلا في نفسه .

٥ - ٤ : نبذ الإسلام للأنانية :

دعا الإسلام إلى الإيثار ، وحذّر من شح النفس وأثرتها ، فقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[4] ، وأقل مرتبة يقبلها الإسلام من المؤمن تجاه إخوانه هو أن يحبَّ لهم ما يحبه لنفسه ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « **لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيهِ ما يحبَّ لنفسه** »[5] ، وبهذه المحبة تتآلف القلوب وتجتمع .

٥ - ٥ : نهيه عن الجدال والمراء والتنازع :

المراء يقسي القلوب ، ويولد الضغائن ، ويورث البغضاء والقطيعة ، ويؤدي إلى التنازع الذي يفرّق الجماعة ويشتت قوتها ؛ فيحصل الفشل .. ولهذا قال الله تعالى : ﴿**وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[6] ، وقال ﷺ : « **أنا زعيم ببيت في ربض الجنّة لمن ترك المراءَ وإن كان محقًّا ، وببيتٍ في وسط الجنّة لمن ترك الكذبَ وإن كان مازحًا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خلقُه** »[7] ، وقال : « **ما ضل قوم بعد هدًى كانوا عليه إلا أُتوا الجدل**

---

(1) الفتح : ج١٠ ، ص ٤٩٦ .
(2) البخاري ، كتاب الأدب : ٦٣ ، وانظر أنواع الهجر وصفته ، الفتح : ج١٠ ، ص ٤٩٧ .
(3) سورة الحجرات [٦] .
(4) سورة الحشر [٩] .
(5) سبق تخريجه في هذا المبحث : (٤ - ٧) .
(6) سورة الأنفال [٤٦] .
(7) رواه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في حسن الخلق ، برقم : ٤٨٠٠ ، وحسّنه الألباني في الصحيحة ، برقم : ٢٧٣ .

)) ، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [1] [2][3].

٥ - ٦ : رعاية حقوق المسلـم :

ومن أجل أن تتوطد روابط المحبة وتقوى دواعي الألفة بين المؤمنين ويَشْعر كلُّ واحدٍ منهم بقيمته عند إخوانه فيزيد من تمسّكه بهم وانتمائه إليهم وقربه منهم ، جعل الإسلام له حقوقًا يؤديها له إخوانُه ليشعر باهتمامهم به وحرصهم عليه ، ومنها :

- قال رسول الله ﷺ : ((**حق المسلم على المسلم ستٌّ**)) ، قيل : ما هنَّ يا رسول الله ؟! قال : ((**إذا لَقِيتهُ فسلِّم عليه ، وإذا دعاك فأجِبْه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فشمته**)) [4]، **وإذا مرِض فَعُدْه ، وإذا مات فاتَّبِعْهُ**)) [5] ، أي اتبع جنازته للصلاة عليه ودفنه .
- وفي حديث البراء ؓ قال : ((أمرنا النبي ﷺ بسبع : أمرنا بعيادة المريض ، واتِّباع الجنازة ، وتشميت العاطس ، وإجابة الداعي ، ورد السلام ، ونصر المظلوم ، وإبرار المقسم)) [6] .

٦- من مظاهر قوة ((الجماعية)) عند الداعية :

هناك مظاهر تبرز عند الداعية تدل على قوة روح الجماعية التي تسري في كيانه ، واعتزازه بإخوانه ، ومن هذه المظاهر :

٦ - ١ : الاستشارة :

وهي استنباط المرء رأي غيره فيما يعرض له من الأمور المشكلات [7] .

وقد كان الرسول ﷺ مع كونه معصومًا ويأتيه الوحي من السماء ، كان ﷺ من أكثر الناس استشارة لأصحابه قيامًا بأمر الله له : ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ [8] .. روى عن

---

(١) سورة الزخرف [٥٨] .
(٢) رواه الترمذي ، كتاب التفسير ، باب ٤٤ سورة الزخرف ، برقم : ٣٢٥٣ ، وابن ماجة في المقدمة : باب اجتناب البدع والجدل ، برقم : ٤٨ . وقد حسّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ، برقم : ٢٥٩٣ .
(٣) للتوسع انظر آفات على الطريق ، السيد محمد نوح : ج٤ ، ص ٩ - ٣٣ ، إحياء علوم الدين للغزالي : ج٣ ، ص ١١٤ وما بعدها .
(٤) (فسمِّته) : تشميت العاطس أن يقول له : يرحمك الله ، ويقال بالسين والشين ، لغتان مشهورتان ، صحيح مسلم : ج٤ ، ص ١٧٠٥ ، في الحاشية .
() رواه مسلم ، كتاب السلام ، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام ، برقم : ٢١٦٢ .
() رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب تشميت العاطس إذا حمد الله ، برقم : ٦٢٢٢ ، ورواه مسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم استعمال إناء الذهب .. ، برقم : ٢٠٦٦ .
() الذريعة إلى مكارم الشريعة ، للراغب الأصفهاني : ص ١٩٢ .
() سورة آل عمران [١٥٩] .

الحسن البصري والضحاك قالا : ((ما أمر الله تعالى نبيَّه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم ؛ وإنما أراد أن يعلِّمهم ما في المشاورة من الفضل ، ولتقتدي به أمته من بعده)) (1) . ولهذا فإن الداعية ينبغي أن يشاور إخوانه الدعاة فيما يعرض له من أمور الدعوة وقضاياها خاصة ، وفي أمور الأخرى عامة ؛ فلربما نبهوه على أمر قد غفل عنه ، أو رأي لم يلتفت له . وقد قيل : ما ندم من استشار ، وما خاب من استخار ، ومن أُعجب برأيه ضل . قال عبد الملك بن مروان : لأن أخطئ وقد استشرت أحب إلي من أن أصيب من غير مشورة .

٦ ـ ٢ : إيثاره رأي إخوانه :

الإعجاب بالرأي مهلكة من المهالك التي يوقع الشيطان فيها النفوس المغرورة المزهوة ، والتي لا تعرف حقيقة ضعفها ، وحاجتها لغيرها مهما بلغت من العلم والخبرة . وقد قال ﷺ : ((**ثلاث مهلكات وثلاث منجيات .. فأما المهلكات : فشحٌ مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وأما المنجيات : فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله تعالى في السرِّ والعلانية**)) (2) ، وإن من علامة فقه الداعية ونضوجه ، وثقته بإخوانه الدعاة ، إيثاره لرأيهم على رأيه في القضايا التي يدور فيها الرأي بين الصواب والأصوب والفاضل والأفضل .

٦ ـ ٣ : التناصر والتناصح والتعاون :

التناصر والتناصح والتعاون حقوق يراها الأخ في عنقه لإخوانه لابدَّ من أدائها بقدر استطاعته ؛ لأنه يستشعر أنه جزء منهم ، وأن مصابهم مصابه وحاجتهم حاجته ؛ فهو عضو من جسدٍ واحدٍ يجمعهم ؛ ولهذا يبادر إلى خدمتهم وعونهم ونصرتهم وتنفيس كربتهم ، وإن لم يُطلَب منه ، يدفعه إلى ذلك استشعاره للمسؤولية وإحساسه بواجب الأخوة الإسلامية ، مستحضرًا قول رسوله ﷺ : ((**المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يُسْلِمُهُ ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرّج اللهُ عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**)) (3) . وقوله ﷺ : ((**خير الأصحاب خيرهم لصاحبه**)) (4) . كما أنه يدرك أن المتخاذل عن نصرة

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، وانظر للتوسع رسالة : الاستشارة والاستخارة : جمع قسم التحقيق في دار الصحابة .
(2) صحيح الجامع ، برقم : ٣٠٤٥ ، وقد حسّنه المؤلف .
(3) رواه البخاري ، كتاب المظالم ، باب لا يظلمُ المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه ، برقم : ٢٤٤٢ .
(4) رواه الترمذي ، في البر والصلة ، باب ما جاء في حق الجوار ، رقم : ٢٠٢٦ ، قال الألباني في المشكاة : وإسناده صحيح : ج٣ ، ص١٣٩٠ ، حديث رقم : ٤٩٨٧ .

إخوانه - وهو قادر عليها - سيجني جزاء تخاذله ، وسيتجرّع كأس تقصيره وتكاسله في الدنيا قبل الآخرة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال : ((**ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا في موطن تُنتهك فيه حرمتُه ، ويُنقص فيه من عِرضه وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله – عزَّ وجلَّ – في موطن يحب فيه نُصرته ، وما من امرئ ينصر امرءًا مسلمًا في موطن يُنْتَقَصُ فيه من عرضه ، ويُنتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته**))[1] . فكن نصرًا لإخوانك عونًا لهم ، مُسخِّرًا كل مواهبك ومَلَكَاتك في خدمتهم ، فإنك إن فعلت إنما تخدم نفسك وتعين شخصك .

صور للتناصر والتناصح :

- بالمال : كما فعل عثمان رضي الله عنه حين جهّز جيش العسرة ، وشراؤه للبئر التي يستسقي منها المسلمون ماءهم .
- بالرأي والمشورة : كما فعل الحباب بن المنذر في بدر ، وسلمان الفارسي يوم الخندق ، وأم سلمة يوم الحديبية .
- بالحنكة والخبرة والتخطيط : كما فعل خالد في جهاده وفتوحاته .
- بالدعوة ونشر العلم وتعليم الناس : كما فعل مصعب ومعاذ - رضي الله عنهما .

فَسِرْ أخي الكريم على نهجهم ، وتشبه بهم : ((إن التشبه بالكرام فلاح)) .

٦ - ٤ : صبره على إخوانه :

ونعني بهذا صبره على ما يلقاه من بعض إخوانه من تقصير في حقه أو أذى لشخصه من جفاء لقاء ، أو سوء فهم ، أو عبارة نابية ، أو كلمة خشنة ، أو ما يراه من بعضهم من قصور في الدعوة أو تقصير في بعض أمور دينهم ، ويتذكر أنهم بشر يصيبون ويخطئون ، وليسوا ملائكة معصومين ، وأن المرء يوزن بحسناته وسيئاته . وقد قال الله لرسوله ﷺ وهو أمر لجميع أتباعه : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾[2] .

وعلى الداعية أن يعالج الخطأ بحلم وروية وحكمة ورفق ، مستهديًا بسنة رسوله

---

(1) رواه أحمد : ج٤ ، ص ٣٠ ، وحسنه الألباني في الصحيح الجامع ، برقم : ٥٦٩٠ ، وانظر للتوسع ((هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا)) للخزندار : ص (٥٧ - ٦٢) .
(2) سورة الكهف [٢٨] .

ﷺ في معالجة الأخطاء ، كما فعل النبي ﷺ مع حاطب ﷺ حينما عَلِمَ أنه أرسل إلى كفار قريش يخبرهم بنيَّة المسلمين في التوجه إلى مكة لفتحها ، فإنه قال له : ((**ما حَمَلَكَ يا حاطب على ما صنعت**)) . قال : ما بي إلا أن أكون مؤمنًا بالله ورسوله ، وما غيَّرت ولا بدَّلت .. أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس من أصحابك هناك إلا وله من يدفع الله به عن أهله وماله . قال : ((**صدق فلا تقولوا له إلا خيرًا**)) ، قال : فقال عمر بن الخطاب : ((إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فأضرب عنقه)) قال : فقال : ((**يا عمر ، وما يدريك لعل اللهَ اطلع على أهل بدر فقال** : **اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة**)) . قال : فَدَمَعَتْ عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم [1] .

وفي هذه القصة عدد من الفوائد التربوية العظيمة :

١- معاتبة النبي ﷺ للصحابي المخطئ خطأً بالغًا بقوله له : ((**ما حملك على ما صنعت**)) .
٢- الاستعلام عن السبب الذي دفع بالمخطئ إلى الخطأ ، وهذا لا شك سيؤثر في الموقف الذي سيُتخذ منه .
٣- أن أصحاب الفضل والسابقة ليسوا معصومين من الذنب الكبير .
٤- أن على المربي أن يكون واسع الصدر في تحمل أخطاء أصحابه ليدوموا معه على المنهج السوي ، فالغرض إصلاحهم لا إبعادهم .
٥- أن على المربي أن يقدّر لحظة الضعف البشري التي قد تمر ببعض من معه ، وألا يؤاخذ بسقطة قوية وخطأ فظيع قد يقع من بعض القدامى .
٦- المدافعة عمن يستحق الدفاع عنه من المخطئين .
٧- أن المخطئ إذا كانت له حسنات عظيمة سابقة فلابد أن تؤخذ بالاعتبار عند تقويم خطئه واتخاذ موقف منه [2] .

وليتذكر الداعية - عندما يُؤذَى في شخصه - مقالة نبينا ﷺ : ((**رحم الله موسى فقد**

---

[1] رواه البخاري كتاب الاستئذان ، باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره ، برقم : ٦٢٥٩ .
[2] الأساليب النبوية في التعامل مع أخطاء الناس ، للمنجد ، ص (٨١ - ٨٢) ، راجع للتوسع في فوائد حادثة حاطب ، مواقف تربوية من السيرة النبوية ، للبلالي .

أوذي بأكثر من ذلك فصبر »[1] ، فليصبر وليحتسب .

٧ - عوائق في طريق « الجماعية » :

٧ - ١ : اجتماع الشهوة وتضييع الأوقات :

مع أهمية اجتماع الداعية بإخوانه للتناصح معهم والتعاون وإياهم على البر والتقوى ، فإن بعض هذه اللقاءات قد تتحوَّل مع الأيام إلى مجالس لغو ومؤانسة طبع تذهب بالأوقات وتشغل المرء عن الواجبات ، ويوضح الإمام ابن القيم هذا العائق بعبارة جزلة فيقول :
« الاجتماع بالإخوان قسمان :

أحدهما : اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت ، فهذا مضرّته أرجح من منفعته ، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت .

الثاني : الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر ، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها ، ولكن فيه ثلاث آفات : إحداها : تزيين بعضهم لبعض . الثانية : الكلام والخلطة أكثر من الحاجة . الثالثة : أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود ، وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمارة وإما للقلب والنفس المطمئنة ، والنتيجة مستفادة من اللقاح ؛ فمن طاب لقاحه طابت ثمرته ، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملَكِ ، والخبيثة لقاحها من الشيطان ، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيّبات للطيّبين والطيّبين للطيّبات ، وعكس ذلك »[2] .

٧ - ٢ : الطاعة غير المبصرة (أو الاتباع الأعمى) :

طاعة الداعية لإخوانه أمر مهم في الدعوة والتربية ، ولكن مع أهميتها فإنها ليست مطلقة ، بل هي محدودة بضوابط الشرع وهدي الإسلام ، كما قال رسول الله ﷺ : « **إنما الطاعة بالمعروف** »[3] ، كما أنها طاعة مبصرة : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾[4] .. فسير الداعية إخوانه الدعاة سير العميان ، واتباعهم الاتّباع الأعمى مرفوض في الإسلام ؛ ولهذا

---

(1) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الطائف في شوالٍ سنة ثمان ، برقم : ٤٣٣٦ .
(2) الفوائد : ص ٦٨ .
(3) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي ، وعلقمة بنُ محرز المدلجي ، برقم : ٤٣٤٠ ، ورواه مسلم ، في الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، وتحريمها في المعصية ، برقم : ١٨٤٠ .
(4) سورة يوسف [١٠٨] .

عندما « بعث رسول الله ﷺ سرية ، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأغضبوه في شيء . فقال : اجمعوا لي حطبًا . فجمعوا له . ثم قال : أوقدوا نارًا . فأوقدوا . ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا ؟ قالوا : بلى . قال : فادخلوها . قال فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار ؛ فكانوا كذلك ، وسكن غضبُهُ ، وطُفئت النارُ . فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال : **لو دخلوها ما خرجوا منها . إنما الطاعة في المعروف** » (١).

٧ - ٣ : العصبية المذمومة :

وهذا مرض قد يسري في قلوب بعض الدعاة ، فيجعلون من انتمائهم لبلد أو قوم أو غيرها من الموازين الأرضية الترابية سببًا يمنعهم من التعاون مع إخوانهم الدعاة ممن ليسوا من ذلك البلد أو هذه القبيلة ، وقد يحملهم تعصبهم إلى احتقار من سواهم وسوء الظن بهم ، بل واتهامهم في عقائدهم ونياتهم . وقد سمعت أحاديث في ذلك مزرية ، ورأيتُ مواقف مخزية لا تليق بمسلم فضلاً عن داعية أو مربٍّ .

٧ - ٤ : الريــاء :

وقد ذكر هذا العائق الإمام الغزالي (١) في حديثه عن آفات الخلطة بالناس والاجتماع بهم ، وهو من الأدواء التي يصعب الاحتراز عنها أو السلامة منها ، لاسيما في أزماننا هذه ، والموفَّق من وفَّقه الله فهداه للإخلاص ، وطهَّر قلبه من مراءاة الناس ، وأيقن أن الخلق لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، فهم ضعفاء وفقراء إلى الله مثله .. قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** ﴾ (٢) .

٧ - ٥ : التعلق العاطفي بالأشخاص :

ونقصد به ارتباط الشخص بأحد إخوانه الدعاة ارتباطًا شخصيًّا ، وتعلقه به تعلقًا ذاتيًّا وليس نابعًا من إيمانه بفكرة ، أو يقينه بدعوة ، وهو ناشئ من ضعف التربية الإيمانية ، وكثرة حديث المربي عن نفسه وقلة اهتمامه بربط تلامذته بالله - عزَّ وجلَّ - .

وقد أشار إلى هذه الآفة الحق - عزَّ وجلَّ - في كتابه فقال : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن**

---

(١) سبق تخريجه .
(١) انظر للتوسع ، الإحياء : ج٢ ، ص (٢٢٨ - ٢٢٩) .
(٢) سورة الأعراف [١٩٤] .

يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ﴾ (1) . وقال أبو بكر رضي الله عنه : ((من كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت)) (2) . والعلاج لهذه الآفة التركيز على الأصول الإيمانية ومعاني الشرك ، وخاصة في المحبة مع الله ، والحث على التعلق بالله وحده (3) .

٧ – ٦ : الخلاف :

إن من شرِّ ما يُبتلَى به الدعاة إلى الله الاختلافَ المذموم ، الذي يُضعِف قوتَهم ، ويفرّق صفهم ، ويوهن أُخوّتهم ؛ فيجعلهم فرقًا شتى ، كل فرقة تُضلّل أُختَها وتتبع عوارها ؛ وهو ما يضعف عند الناس أثرهم ، ويُقلِّل تأثيرهم (4) . ولقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :
((الخلاف شر)) ، فاحذره - أخي الحبيب - وبادر إلى سَدِّ أبوابه والبعد عن أسبابه .

٨ - صور من الجماعية :

هذه طائفة من المواقف الفذة التي نرى فيها بوضوح استعانة الصالحين بإخوانهم في دعوتهم ، وتربيتهم لأنفسهم ، وحرصهم عل الجماعية في الكثير من شؤون حياتهم .

٨ - ١ : ذو القرنين وحاجته للجماعيــة :

لقد مكّن الله لذي القرنين في الأرض كما أخبر بذلك - عزَّ وجلَّ - فقال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ (5) . قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : ((أي أعطيناه ملكًا عظيمًا ، مُمكَّنًا فيه من جميع ما يؤتَى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات ؛ ولهذا مَلَكَ المشارقَ والمغاربَ من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم)) (6) .

وعلى الرغم من هذا التمكين فإنه لم يستغن عن الجماعية عند عمل السد فقال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (7) .. أعينوني من المعاونة ، وهي المظاهرة والمساعدة ، فهو يطلب أن يساعدوه ويمدوه بالقوة العضلية والمادية ، لعمل

(1) سورة آل عمران [١٤٤] .
(2) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب مرض النبيّ ﷺ ووفاته ، برقم : ٤٤٥٤ .
(3) انظر للتوسع : مشكلات وحلول ، في حقل الدعوة ، للبلالي : ص (٧ - ٩) .
(4) راجع للتوسع ، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ، لعبد الكريم زيدان : ص (١٣٥ - ١٣٦) .
(5) سورة الكهف [٨٤] .
(6) مختصر تفسير ابن كثير ، للصابوني : ج٢ ، ص ٤٣٣ .
(7) سورة الكهف [٩٥] .

السد ، وكأنه يقول : عليَّ القوة المالية ، وعليَّ القوة الفكرية ، وعليكم أنتم القوةُ المادية العملية ، فيجتمع ما عندي مع ما عندكم ، وبذلك يتم إنجاز العمل . وتُعتبر هذه العبارة القرآنية الموجزة : ﴿ أَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ ، مَعْلَمًا قرآنيًا بارزًا في تضافر الجهود وتوحيد الطاقات والقدرات والقوى ، كما تُقدِّم لنا قاعدة قرآنية مطردة في إنجاز الأعمال والقيام بالمطلوب .

إن المجتمع المتكامل الناجح ، هو الذي تجتمع كافة القوى والطاقات فيه ، لتحقيق الخير فيه . وإن القيادة الناجحة الواعية هي التي تستقطب كافة الإمكانيات والقدرات لتحقيق الغايات المنشودة .

هناك فئات في المجتمع تملك القوة الفكرية ؛ فتستطيع أن تُفكِّر ، وأن تُبرمج ، وأن تُنظِّرَ ، ولو تُركت هذه الفئات وحدها ، فإنها قد لا تحقق ما خططته وفكرتْ فيه .. وهناك فئات في المجتمع تملك المال والاقتصاد الكافي للعمل ؛ لكنها قد لا تملك الفكر والتخطيط ، كما أنها قد لا تملك الجهد المناسب للعمل . وهناك فئاتٌ لا تملك مالاً ولا تقدر على تخطيط ؛ ولكنها تملك الوقت والجهد ، وتقدر على العمل بالسعي والكسب والبدن .

فلابد من التنسيق والتعاون بين هذه الفئات ، وجمْعِ ما تملكه من قوى وطاقات وقدرات ، والتوجه به نحو خير الأمة ورفعتها .. لابد من اجتماع صاحب الفكر ، ومالك المال ، والقادر على العمل والكسب ، وتوجُّه الجميع نحو الخير .

والقيادة الواعية في الأمة ، هي تلك التي تقدر على الربط بين كل الخيوط والخطوط ، والتنسيق بين المواهب والطاقات ؛ فهل أمتُنا في واقعها المعاصر تجمع بين القوى والطاقات أم تُفرِّق بينها ؟ وهل تلتقي كلُّ المواهب والقدرات على خير الأمة ، أم هي ممزقة متفرقة ؟

كم من مواهب ضائعة في الأمة ! وكم من طاقات معطَّلة ! وكم من أموال مهدورة ! وكم من أوقات مبدَّدة ! وكم من شباب حيارى ! ... لابد أن تأخذ الأمة قاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ، ولابد أن يكون شعارها بكافة فئاتها وطاقاتها وقواها : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ [1] .

٨ ـ ٢ : الجماعية في التخطيط للهجرة :

لقد تضافرت الجهود الجماعية في تسهيل هجرة النبي ﷺ ، ووزعت المهمات على الأشخاص كل حسب قدراته ومواهبه ومناسبته للعمل الذي يقوم به :

---

(1) مع قصص السابقين في القرآن ، للخالدي : ج٢ ، ص (٣٤١ ـ ٣٤٢) .

- علي ﷺ ينام على فراش النبي ﷺ للتمويه والتعمية على العدو .
- أبو بكر مُعينًا ومرافقًا للنبي ﷺ في هجرته .
- عبد الله بن أبي بكر يتسمع ما يقول الناس في النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ في النهار ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر .
- وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .
- وأمر أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليه [1] .

٨ - ٣ : الجماعية في غزوة الخندق :

- سلمان الفارسي ﷺ يقترح حفر الخندق .
- الرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار يحفرون الخندق في جوٍّ بارد خلال أربعة أيام بلياليهن .
- جابر بن عبد الله يُعد طعامًا للنبي ﷺ ولرجل أو رجلين معه ، فيدعو النبي ﷺ المهاجرين والأنصار ، فيأكل ألف من المجاهدين في بيت جابر ، ويكفيهم طعام ثلاثة ! وهي معجزة من معجزات رسولنا ﷺ .
- علي بن أبي طالب والزبير - رضي الله عنهما - يقاتلان بعض المشركين الذين حاولوا اقتحام الخندق .
- زيد بن حارثة ، ومعه ثلاثمائة رجل ، يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير لِيُرْهبوا بني قريظة ؛ لئلا يُسوِّل لهم الغدرُ نقضَ عهدِ رسول الله ﷺ ، فيهجموا على المدينة ، وفيها النساء والأطفال والعجزة .
- سعد بن عبادة وسعد بن معاذ يذهبان ليتعرفا حال بني قريظة ، وهل نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ أم لا .
- حذيفة بن اليمان يبعثه الرسول ﷺ إلى الأحزاب ليأتي بأخبارهم[2] .

٨ - ٤ : الجماعية في المدارسة والمذاكرة :

---

(1) انظر سيرة ابن هشام : ج٢ ، ص ١٣٠ ، والرحيق المختوم للمباركفوري : ص (١٨٠ - ١٩٠) ، المنهج الحركي للسيرة النبوية ، لمنير الغضبان : ص ١٨٨ [السنة السابعة عشرة : ((عبقرية التخطيط في الهجرة] .

(2) انظر محمد رسول الله ﷺ ، لمحمد الصادق عرجون : ج٤ ، ص (١٣١ - ٢٠٢) .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((**إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله – عزَّ وجلَّ – تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم – وهو أعلم – : ما يقول عبادي ؟ قال : يقولون : يُسَبِّحونَكَ ، ويُكَبِّرونَكَ ، ويُحَمِّدُونَكَ ، ويُمَجِّدُونك . فيقول : هل رأَوْنِي ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك . فيقول : كيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشدَ لك عبادة ، وأشدَّ لك تمجيدًا ، وأكثر لك تسبيحًا . فيقول : فماذا يسألون ؟ قال : يقولون : يسألونك الجنة . قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ، وما رأوها . قال يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حِرْصًا ، وأشد لها طلبًا ، وأعظم فيها رغبة . قال : فمم يتعوَّذون ؟ قال : يقولون : يتعوَّذون من النار . قال : فيقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله ، وما رأوها . فيقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا ، وأشد لها مخافة . قال : فيقول : فأُشْهِدُكُم أني قد غَفَرْتُ لهم . قال : يقول مَلَكٌ من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ؛ إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يَشْقى بهم جَلِيسُهُم**)) (١) .

قال ابن حجر : ((وفي الحديث فضل مجالس الذكر والذاكرين ، وفضل الاجتماع على ذلك ، وأن جَلِيسَهم يتدرج معهم في جميع ما يَتَفَضَّل اللهُ تعالى به عليهم ؛ إكرامًا لهم ، ولو لم يشاركهم في أصل الذكر)) (٢) .

قال عمر بن الخطاب ﷺ : ((كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوبُ النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يومًا وأنزل يومًا ، فإذا نزلت جئتُهُ بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك)) (٣) .

وعن فضالة بن عبيد أنه كان إذا أتاه أصحابه قال : ((تدارسوا وأبشروا وزيدوا زادكم الله خيرًا ، وأُحبُّكم وأُحِبُّ من يُحبُّكم ، رُدّوا علينا المسائل ، فإن أجر آخرها كأجر أولها ، واخلطوا حديثكم بالاستغفار)) (٤) .

---

(١) رواه البخاري ، في الدعوات ، باب : فضل ذكر الله عز وجل ، برقم : ٦٤٠٨ ، ورواه مسلم ، في كتاب الذكر والدعاء التوبة والاستغفار ، باب فضل مجالس الذكر ، برقم : ٢٦٨٩ .
(٢) الفتح : ج١١ : ص ٢١٣ .
(٣) رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب التناوب في العلم ، برقم : ٨٩ .
(٤) قال الهيثمي في المجمع : ج١ ، ص ١٦١ ، رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون .

٨ ـ ٥ : الجماعية في دعوة الناس إلى الخير :

قال أنس ﷺ : ((جاء ناسٌ إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أن ابعث معنا رجالاً يُعلِّمونا القرآن والسنَّة ، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار ، يُقال لهمُ القُرَّاءُ ؛ يَقرؤُنَ القرآن ، ويَتدارسون بالليل يتعلَّمون ، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ، ويحتطبون فيبيعونه ، ويشترون به الطعام لأهلِ الصُّفَّة وللفقراء ، فبعثهم النبيُّ ﷺ إليهم [أي لدعوتهم ولتعليمهم القرآن والسنة] ، فعرضوا لهم ، فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان [أي عرض المشركون لهؤلاء الدعاة وهم في طريقهم لأولئك القوم من أجل دعوتهم وتعليمهم فقتلوهم قبل أن يصلوا إلى المكان الذي يريدون الدعوة فيه] ، فقالوا [أي هؤلاء الدعاة] : اللهم بلِّغْ عنَّا نبيَّنَا أنَّا قد لقيناك فَرضِينا عنك وَرضِيت عنا)) (١) .

ومن فوائد الجماعية في الدعوة :

- **التكامل في التخصص واستثمار المواهب والملكات :**

قال رسول الله ﷺ : ((**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشهدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياءً عثمان ، وأقرؤهم لكتاب الله أبيُّ بن كعب ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأعلمهُم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ألا وإن لكل أمةٍ أمينًا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**)) (٢)، فانظر كيف استثمر رسول الله ﷺ قدرات أصحابه ووظّفها في خدمة الإسلام **!.**

٨ ـ ٦ : الجماعية في الشورى :

لقد كان من الصفات البارزة عند السلف الإفادة من خبرات الأفراد وتجاربهم في الإقدام على عمل أو الإحجام عنه .

عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بِسَرْغ لَقِيَه أهلُ الأجنادِ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابُهُ ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . قال ابن عباس : قال عمر : ادْعُ لِيَ المهاجرين ؛ فدعوتهم ، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا . فقال بعضهم : قد خرجت لأمرٍ ولا نرى أن ترجع عنه ، وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تُقْدِمَهم على هذا الوباء . فقال : ارتفعوا عني . ثم قال : ادع لي الأنصار ، فدعوتهم له ، فاستشارهم ، فسلكوا سبيل

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، برقم : ٦٧٧ .
(٢) رواه الترمذي : ج٢ ، ص ٣٠٩ ، وابن ماجة ، برقم : ١٥٤ ، وابن حبان ، برقم : ٢٢١٨ ، وغيرهم ، وهو في الصحيحة للألباني ، برقم : ١٢٢٤ .

المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عني . ثم قال : ادعُ لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تُقْدِمُهم على هذا الوباء ، فنادى عمر في الناس : إني مُصْبِحٌ على ظهر فأصْبحُوا عليه ، فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفرارًا من قدر الله ؟ قال عمر : لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة (وكان عمر يكره خلافه) .. نعم ، نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديًا له عُدْوَتَان : إحْدَاهما خِصْبَةٌ ، والأخرى جَدْبَةٌ ؛ أليس إن رَعَيْتَ الخِصبْةَ رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف ، وكان مُتغيِّبًا في بعض حاجته ، فقال : إن عندي من هذا علمًا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**إذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه**)) . قال : ((فحمِدَ اللهَ عمرُ بنُ الخطّابِ ، ثمَّ انصرف)) [1] .

٩ ـ الموازنة بين الفردية والجماعية :

٩ ـ ١ : الجماعية لا تعني ذوبان الشخصية الفردية المميزة [2] :

إن الدعوة إلى الجماعية والاهتمام بها والحرص عليها لا يعني ذوبان شخصية المسلم في دائرتها وإلغاء فرديته في محيطها ؛ لأن ذلك ينشئ إنسانًا خنوعًا إمَّعةً ، يعرف الحق بالرجال ، ولا يميّز الرجال بالحق ، يسير سير العميان أو سير الشاة في القطيع ؛ والإسلام يرفض هذه التبعية العمياء : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ** ﴾ [3] .

إن الإسلام يربي المسلم ليكون ذا شخصية مستقلة تعرف الحق وتصطفيه ، وتميز الباطل وتجافيه ، بل تنكره وتعمل جاهدة على إزالته ، ومع حبها وحرصها على الوحدة والائتلاف فتسمع وتطيع ، إلا أنها طاعة مضبوطة بهدي الإسلام : ((**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**)) [4] .. وهو منهج متميز يجعل من المسلم صاحب شخصية واعية مبصرة مميَّزة . قال عبد الله بن مسعود : ((لا تكونوا إمَّعة ، تقولون إن أحسن الناس أحسنّا ،

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الطب ، باب ما يُذكر في الطاعون ، برقم : ٥٧٢٩ ، ورواه مسلم ، كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها ، برقم : ٢٢١٩ .

(2) انظر للتوسع ، منهج التربية الإسلامية ، محمد قطب : ص ١٦٢ ـ ١٦٨ .

(3) سورة البقرة [١٧٠] .

(4) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ، برقم : ١٨٣٩ .

وإن ظلموا ظلمنا ؛ ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا »(١).

٩ - ٢ : الموازنة بين حق الذات وحق إخوانــه :

في زحمة الأعمال والواجبات يكثر الشطط ، ويختل الميزان ، ويحصل التطفيف ، ويقع التقصير في الحقوق عند البعض ؛ فمنهم من يظلم نفسه ، فيبخسها حقها في التربية والتزكية ؛ فليس هناك ورد يُهذِّبها ، وليس لها معه خلوة يتفقدها فيها ويحاسبها .. ! ، ومنهم من يهضم حق إخوانه ودعوته ، فيضن عليهم بماله ولا يعطيهم إلا بعض فضول فراغه : تأخر عن اللقاءات ، وإخلال بالمسؤوليات ، وتقصير في الواجبات ؛ ولهذا لابد من الموازنة والعدل في رعاية الحقوق وإيتاء كل ذي حقٍّ حقَّه ، وإنها لمهمة عسيرة إلا لمن وفَّقه اللهُ لليسرى وبارك في أوقاته وجهوده ..

وإليك بعض الإرشادات التي تقرّبك من الموازنة :

- « **إن لربك عليك حقًّا** ، **وإن لنفسك عليك حقًّا** ، **وإن لزوجك عليك حقًّا** ، **وإن لضيفك عليك حقًّا فأعطِ كل ذي حقٍّ حقه** » .
- أعط كل واجب ما يستحقه من الوقت دون زيادة .
- لا تغْرق في المباحات فتنشغل عن الواجبات .
- رتب واجباتك بحسب الأهمية ، وراعِ تقدم الواجب الموقوت (المضيَّق) على الواجب الموسَّع ، وما هو فرض عيني على الكفائي ، وما تعلَّق بمصلحة جماعية كبرى على ما تعلّق بمصلحة خاصة صغرى ..
- الكثير من اللقاءات والمجالس يمكن اختصار وقتها مع تحقيق النتائج نفسها .

١٠ - مسائل حول الجماعية :

١٠ - ١ : أيهما أفضل : الاجتماع بالناس ، أم العزلة عنهم ؟

« أما الاجتماع بالصالحين وعباد الله المتقين والدعاة العاملين المخلصين فإن ذلك من أعظم الغنيمة ، كما ذكرنا ذلك في أكثر من موضع في هذا المبحث . وأما

(١) رواه الترمذي مرفوعًا ولا يصح ، وقد صححه الألباني موقوفًا على ابن مسعود ، وانظر المشكاة : ج٣ ، ص ١٤١٨ ، برقم : ٥١٢٩ .

الاختلاط بعامة الناس من أجل دعوتهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليمهم الخير ؛ فهو أفضل من اعتزالهم بنص حديث رسول الله ﷺ ، ولكن أحيانًا تحدث أمور تكون العزلة فيها خيرًا من الاختلاط بالناس ؛ من ذلك : إذا خاف الإنسان على نفسه فتنة ، مثل أن يكون في بلد يُطالبُ فيه بأن ينحرف عن دينه ، أو يدعو إلى بدعة ، أو يرى الفسوق الكثير فيه ، أو يخشى على نفسه من الفواحش ؛ فهنا تكون العزلة خيرًا له » (١) .

قال الراغب الأصفهاني - رحمه الله - : « والأصل أن اجتماع الناس بعضهم مع بعض أمر ضروري لتعلق بعضهم ببعض ؛ ولهذا لما سمع عمر رضي الله عنه قائلاً يقول : اللهم أغنني عن الناس . قال : يا رجل أراك تسأل الموت ، قل : اللهم أغنني عن شرار الناس ، فالناس لا يستغني بعضهم عن بعض . وقيل : التفرد مكروه إلا لثلاثة : سلطان لإنشاء تدبير المملكة ، وحكيم لاستنباط الحكمة ، ومتنسك لمناجاة ربِّ العزة ؛ فإن التفرُّد يبطل الإنسانية ، ولا يظهر من صاحبه فضيلة ، ومن ظن التفرُّدَ خيرًا فلأجل أن ليس يظهر منه سر ، وذلك يشاركه فيه الموتى ، وفضيلة الإنسان أن يكون خيِّرًا لا أن يكون شرِّيرًا » (٢) . قلت : **وأكثر العلماء أن الاختلاط أفضل بشرط السلامة من الفتن ، وقد بيّن الجمهور أن الأحاديث التي وردت في فضل العزلة محمولة على الاعتزال في زمن الفتنة ، أو أنها فيمن لا يسلم الناس منه ولا يصبر عليهم** .

١٠ - ٢ : هل يجوز الهجر بين الدعاة إلى الله بسبب اختلافهم في أساليب الدعوة ؟

قال الشيخ ابن عثيمين : « أقول : لا يجوز الهجر بين المؤمنين ؛ لأن النبي ﷺ قال : « **لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث** » ، حتى لو ارتكب معصية ، فإن هجره لا يجوز إلا إذا كان في هجره مصلحة ، كأن ينتهي عن معصيته ؛ ولهذا هجر النبي ﷺ ، كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم حين تخلَّفوا عن غزوة تبوك . فإذا كان هجر الفسَّاق مصلحة راجحة فإنهم يُهجَرون وإلا فلا يُهجَرون ، هذا بالنسبة لعموم الفسَّاق ، أمَّا الدعاة إلىالله فإنه لا ينبغي لهم ، بل لا يجوز لهم أن يتهاجروا فيما بينهم ، بسبب اختلاف أساليب الدعوة ؛ ولكن على كل واحدٍ منهم أن ينتفع بأسلوب الآخر إذا كان أجدى وأنفع » (٣) .

---

(١) شرح رياض الصالحين ، لابن عثيمين : ج٦ ، ص ١٩٨ .
(٢) الذريعة : ص ٢٥٨ ، وانظر أيضًا تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد ، لسعيد عبد العظيم : ص ٤٧ .
(٣) الصحوة الإسلامية : ضوابط وتوجيهات ، لابن عثيمين ، إعداد أبو اللوز : ص ١٠٥ - ١٠٦ .

- **قبس من مشكاة النبوة قال ﷺ** : ((**من هجر أخاه سنة ، فهو كسفك دمه**)) [1] .

خامسًا : التطبيقات العلمية المقترحة لتأكيد معاني الدرس :

١- الاجتماع بالدعاة الموثوقين في الحي ، والتنسيق معهم في شؤون دعوة أهل الحي للخير (توزيع أشرطة ، فتاوى أهل العلم ، زيارات خاصة) .

٢- تكوين مجموعة من الدعاة لاستقطاب شباب الحي وتربيتهم على المبادئ الإسلامية والأخلاق الإيمانية .

٣- تفعيل دور جماعة المسجد في نشر الخير بين الناس .

٤- توثيق الصلة بأهل الخبرة من الدعاة واستشارتهم ، ومدارسة أحوال الدعوة والدعاة معهم .

٥- الاهتمام برباط الأخوة ، ومحاولة توثيقه وتمتينه ، وذلك عن طريق :

- تبادل الهدايا .
- الزيارات الموجَّهة والتناصح الأخوي .

إلى آخره من وسائل زيادة المحبة [2] .

٦- إقامة حلقات مدارسة للعلوم الشرعية عامة والأمور الدعوية خاصة بين الدعاة إلى الله .

٧- المشاركة في المؤسسات الخيرية ، ومساعدة القائمين عليها في أعمالهم ومسؤولياتهم .

سادسًا : مراجع البحـث :

١- معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، دار الجيل .
٢- مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، دار القلم ، ط٢ .
٣- لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف .
٤- المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية .
٥- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، دار إحياء التراث العربي .
٦- تيسير العلي القدير تفسير ابن كثير ، الرفاعي ، مكتبة المعارف ، ط ١٤١٠هـ .

(١) البخاري في الأدب المفرد ، برقم : ٤٠٤ ، والحاكم : ج٤٠ : ص ١٦٣ ، أحمد : ج٤ ، ص ٣٢٠ ، وقد صححه العراقي في تخريج الإحياء : ج٢ ، ص ١٩٩ ، السلسلة الصحيحة ، للألباني ، برقم : ٩٢٨ .

(٢) يراجع مصطلح الأخوة .

٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السعدي ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ .
٨- فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ، الجيلاني ، المكتبة السلفية ، ط٣ .
٩- الذريعة إلى مكارم الشريعة ، الراغب الأصفهاني ، دار الكتب العلمية ، ط١ .
١٠- الإحياء ، الغزالي .
١١- شخصية المسلم بين الفردية والجماعية ، السيد محمد نوح ، دار الوفاء ، ط٣ .
١٢- الأخلاق الإسلامية وأسسها ، الميداني ، دار القلم ، ط٤ .
١٣- الأذكار ، النووي ، دار الورّاق ، ت : الأرناؤوط ، ط ١٤١٣هـ .
١٤- فيض القدير ، المناوي ، دار المعرفة .
١٥- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط٧ .
١٦- نظرات في سورة الحجرات ، محمد محمود الصوّاف ، مؤسسة الرسالة ، ط٥ .
١٧- آفات على الطريق ، السيد محمد نوح ، دار الوفاء ، ط١ .
١٨- الاستشارة والاستخارة ، قسم التحقيق في دار الصحابة ، دار الصحابة ، ط١ .
١٩- الطريق إلى جماعة المسلمين ، حسين محسن ، دار الدعوة ، ط١ .
٢٠- حكم العمل في جماعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عبد الله عزام ، دار ((ابن حزم)) .
٢١- الجماعة والإمارة والسمع والطاعة ، أبو إبراهيم المصري ، مكتب خدمات المجاهدين .
٢٢- هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًّا ، الخازندار ، دار طيبة ، ط١ .
٢٣- الأساليب النبوية في التعامل مع أخطاء الناس ، المنجد ، دار الوطن ، ط١ .
٢٤- مواقف تربوية من السيرة النبوية ، البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .
٢٥- الفوائد ، ابن القيم ، دار النفائس ، ط٧ .
٢٦- مشكلات وحلول في حقل الدعوة ، البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .
٢٧- مع قصص السابقين في القرآن ، الخالدي ، دار القلم ، ط١ .
٢٨- سيرة ابن هشام .
٢٩- الرحيق المختوم ، المباركفوري ، دار ابن تيمية .
٣٠- المنهج الحركي للسيرة النبوية ، منير الغضبان ، مكتبة المنار ، ط١ .
٣١- محمد رسول الله ﷺ ، محمد الصادق عرجون ، دار القلم ، ط١ .

٣٢- شرح رياض الصالحين ، ابن عثيمين ، دار الوطن ، ط١ .
٣٣- توجيهات نبوية ، السيد محمد نوح ، دار الوفاء ، ط١ .
٣٤- هموم المسلم المعاصر ، يوسف القرضاوي ، مكتبة التراث الإسلامي .
٣٥- منهج التربية الإسلامية ، محمد قطب ، دار الشروق ، ط٥ .
٣٦- العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، المكتب الإسلامي ، ط٨ .
٣٧- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ، عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ .
٣٨- نصيحة ذهبية إلى الجماعات الإسلامية ، مشهور حسن سلمان ، دار الراية ، ط١ .
٣٩- السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ، دار الندوة الحديثة ، ط٤ .
٤٠- ضوابط رئيسة في تقويم الجماعات الإسلامية ، زيد الزيد ، دار العاصمة ، ط١ .
٤١- جماعة المسلمين ، مفهومها وكيفية لزومها في واقعنا المعاصر ، صلاح الصاوي ، الدار السُّنِّية ، ط١ .
٤٢- مشروعية العمل الجماعي ، عبد الرحمن عبد الخالق ، دار الهجرة ، ط٢ .
٤٣- شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي ، عبد الرحمن عبد الخالق ، جمعية إحياء التراث ، ط١ .
٤٤- أهل السنة والجماعة (معالم الانطلاق الكبرى) محمد عبد الهادي ، دار طيبة ، ط٤ .
٤٥- تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد ، سعيد عبد العظيم ، مكتبة الإيمان ، ط ١٩٩٠ .
[بالإضافة إلى مراجع أُخرى في الفقه والحديث والدعوة ..] .

جهاد

الجهـاد

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغـة :

الجهاد مشتق من مادة جهد ، قال ابن فارس : ((الجيم والهاء والدال أصلُهُ المشقَّةُ ، ثم يُحمل عليه ما يقاربُه .

يُقالُ جَهَدْتُ نفسي وأجْهَدَت ، والجُهْدُ : الطاقة . قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ** ﴾ [1])) [2] ، أي بذلوا ما في وسعهم وطاقتهم .

ويستعمل الجَهْدُ (بالفتح) بمعنى الغاية . قال تعالى : ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** ﴾ [3] ، أي بالغوا في توكيد الأيمان وتغليظها إلى أقصى غايتها [4] .

والجهاد :

بذلُ أقصى الوسع والطاقة لنيل محبوب أو لدفع مكروه[5] .

ب - اصطلاحًا :

للجهاد في الشرع معنيان : أحدهما عام ، والآخر خاص :

أ - المعنى العام للجهاد :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : ((الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان ، والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان))[6].

وقال الشيخ السعدي - يرحمه الله - : ((اسم جامع لسلوك كل سبب ووسيلة في إعلاء كلمة الدين ، وفي مقاومة الأعداء ، والحذر والتحرُّز منهم)) [7] .

وقال الجرجاني : ((هو الدعاء إلى الدِّين الحق)) [8].

---

(1) سورة التوبة [٧٩] .
(2) معجم مقاييس اللغة : ج١ ، ص ٤٨٦ ، وانظر أيضًا لسان العرب : ج١ ، ص ٧١٠ ، مختار الصحاح : ص ١١٤ .
(3) سورة ، الأنعام [١٠٩] .
(4) انظر التفسير المنير ، للزحيلي : ج١٨ : ص ٢٧٥ و ٢٧٧ ، مفردات ألفاظ القرآن ، للأصفهاني : ص ٢٠٨ .
(5) انظر عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر ، عبد الله عزام ، ص٣ ، نقلاً عن القاموس المحيط .
(6) العبودية ، لابن تيمية : ص ١٠٤ ، نقلاً عن الجهاد ، لمحمد نعيم ياسين ، ص٦ .
(7) جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين ، عبد الرحمن السعدي : ص ١٩ .
(8) التعريفات ، الجرجاني : ص ١٠٧ .

فالجهاد بهذا المعنى يتضمن جهاد النفس وجهاد الشيطان ، كما يتضمن أيضًا جهاد الكفار باللسان والسِّنان ، وكذلك ينتظم من أعان على الغزو برأيه ومشورته وعلمه ، وكذلك من خَلَفَ الغزاة في أهليهم فقام على حاجاتهم ، وسعى في رعاية ذراريهم ، بل ويتناول أيضًا المسلم الذي استحضر نية الجهاد والغزو وصَدَقَ اللهَ في نيَّته ، فسعى لتحقيقها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فإن له أجر الجهاد بنيَّته وإن مات على فراشه .

والدليل على المعنى العام للجهاد آيات كثيرة وأحاديث عديدة منها :

- قال الله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [1]، أي جاهدوا الكفار فينا ، أي في طلب مرضاتنا .
- وقال السُّديُّ وغيره : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال .
- قال ابن عطية : فهي قبل الجهاد العرفي ؛ وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته .
- قال الحسن بن أبي الحسن : الآية في العبَّاد .
- قال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم : هي في الذين يعملون بما يعلمون .
- قال أبو سليمان الدارانيُّ : « ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله ؛ وهو الجهاد الأكبر » [2] .
- وقال تعالى : ﴿ **فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾[3] . قال القرطبي : « ﴿ **فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ** ﴾ ، أي فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم ، ﴿ **وَجَاهِدْهُمْ بِهِ** ﴾ قال ابن عباس : بالقرآن . ابن زيد : بالإسلام ، وقيل : بالسيف . وهذا فيه بُعد ؛ لأن السورة مكية ، نزلت قبل الأمر بالقتال : ﴿ **جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ لا يخالطه فتور » [4] .

وأما الأحاديث فمنها قوله ﷺ :« **المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله – عزَّ وجلَّ –**

---

(1) سورة العنكبوت [٦٩] .
(2) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ج١٣ ، ص (٣٦٤ - ٣٦٥) ، وانظر أيضًا فتح القدير ، للشوكاني : ج٤ ، ص ٢٠٥
(3) سورة الفرقان [٥٢] .
(4) المرجع السابق : ج١٣ ، ص ٥٨ .

))[1]، وقـولـه ﷺ : ((**مَنْ جهّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا ، ومَنْ خلفه في أهله بخير فقد غزا**))[2]، وقـولـه ﷺ : ((**مَنْ سَألَ اللهَ الشهادةَ بصدقٍ ، بلَّغَهُ اللهُ منازلَ الشهداء ، وإن ماتَ على فراشِه**))[3] .

ب - المعنى الخاص للجهـاد :

وهو بذل الوسع في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله - عزَّ وجلَّ - حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ كلُّه لله ، ((قال رجل : يا رسول الله ، وما الجهاد ؟ **قال** ﷺ : **أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم**))[4] . وهو أعظم صور الجهاد وأفضلها عند الله - عزَّ وجلَّ - لما وَعد اللهُ صاحبَها من الأجور العظيمة والمنازل الرفيعة .

والجهاد إذا أضيف له ((في سبيل الله)) فيُراد به عادةً القتال ، أي على المعنى الخاص . وكذلك عبارة ((في سبيل الله)) إذا أطلقت أفادت الجهاد غالبًا ؛ ولذلك ترى المصنفين يوردون حديث رسول الله ﷺ ، الذي يقول فيه : ((**مَنْ صام يومًا في سبيل الله باعد اللهُ بينه وبين النار سبعين خريفًا**))[5] ، يوردونه في أبواب الجهاد . قال ابن حجر : والمتبادر إلى الفهم من لفظهم في سبيل الله ((الجهاد))[6] .

ج - الألفاظ المقاربة :

التضحية - الدعوة .

ثانيًا : الأهـداف :

نـهدف في عرض هذا الموضـوع إلى تحقيق الأمور التالية :

١- التأكيد على عِظَمِ شعيرة الجهاد في الإسلام ، وغرسها في نفوس الناشئة ، والتحريض عليها ، والترغيب فيها ، وبيان فضلها ، وعلو منزلة أصحابها في

---

(١) رواه الترمذي في الزهد : ج٤ ، ص ١٦٥ ، وفي الجهاد ، برقم : ١٦٢١ ، وقال : حسن صحيح ؛ وأخرجه أبو داود في الجهاد ، برقم : ٢٥٠ ، وأحمد في المسند : ج٦ ، ص ٢٢ ، وصححه ابن حبان ، ٢٥ ، والحاكم : ج١ ، ص١١ ، ووافقه الذهبي ، قال الأرناؤوط في تحقيق الزاد : ج٣ ، ص ٦ ، سنده جيد .

(٢) رواه البخاري ، في الجهاد ، باب فضل مَنْ جهَّز غازيًا أو خلفه بخير ، ومسلم في الإمارة ، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله ، برقم : ١٨٩٥ .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله - سبحانه وتعالى - ، برقم : ١٩٠٩ .

(٤) رواه أحمد : ج٤ ، ص ١١٤ ، برقم : ١٧٠٦٨ ، بإسناد رجاله رجال الصحيح .

(٥) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب فضل الصوم في سبيل الله ، ورواه مسلم ، كتاب الصيام ، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه ، برقم : ١١٥٣ .

(٦) فتح الباري ، ابن حجر : ج٦ ، ص ٢٩ ، وانظر أيضًا الثمرات الجياد في مسائل الجهاد ، أحمد المصري : ص (١٠ - ١١).

الدنيا والآخرة .

٢- الحث على استصحاب نية الغزو للشهادة ، والبذل والتضحية لنصرة دين الله ، والذب عن مقدسات الأمة : ((**من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه ، مات على شعبة من النفاق**)) [1] .

٣- تعويد المسلم على إعداد نفسه للجهاد بجميع صوره وأشكاله ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [2] .

٤- تكوين الوعي بمخططات الأعداء في طمس معالم هذه الفريضة ، وتشويه معانيها
(وحشية / إرهاب / تطرُّف / غلو / ..) .

٥- الترهيب من ترك الجهاد ، والتحذير من عواقب التخلي عنه على الفرد والأمة .

٦- بيان معاني الجهاد وصوره في الشرع ، وأنه لا يقتصر على جهاد السِّنان ، بل هناك جهاد النفس والشيطان .. الخ .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- دلالة المصطلح (انظر مقدمة المبحث) .
٢- أهمية الموضوع .
٣- لماذا نجاهد ؟
٤- مراتب الجهاد (أنواعه ، أقسامه) [ست مراتب رئيسة] .
٥- هل الجهاد فرض عينيٌّ أم كفائيٌّ ؟
٦- مراحل الجهاد .
٧- فضل الجهاد وما وعَدَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - به المجاهدين في سبيله .
٨- الترهيب من ترك الجهاد والتقاعس عنه .
٩- الاستعداد للجهاد (الإعداد الإيماني ، الإعداد القتالي ، جمع الكلمة والتأليف ، الإعداد المالي والتبصر بمخططات الأعداء ، الإعداد النفسي) .
١٠- من أخلاق المجاهدين وآدابهم .
١١- نماذج مجاهدة .
١٢- مسائل في الجهاد .

---

(1) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى ، برقم : ١٩٠٩ .
(2) الأنفال [٦٠] .

رابعًا : العــرض :

١ - مفهوم الجهاد (انظر دلالة المصطلح) .

٢ - أهمية الموضوع :

تعود أهمية الحديث عن الجهاد إلى أسباب كثيرة منها :

٢ - ١ : أهميته في الإسلام ومكانته فيه ، فالجهاد ذروة سنام الإسلام ، به ترد عاديات الطغيان ، وتكسر شوكة جنود الشيطان ، ويعلو الحق ويصان ، ويندحر الباطل ويهان ، ((وبالجهاد يجمع الله قلوب المسلمين ويؤلف بينهم ، ويجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم ، وبتركه تقع الفرقة بينهم ، فيكونوا شيعًا ، ويذيق بعضهم بأس بعض)) (١) .

٢ - ٢ : يكتسب الحديث عن الجهاد أهمية بالغة - لا سيما في زماننا هذا - للمسخ الفكري الذي يمارسه أعداء الأمة في تشويه حقيقة الجهاد ووصف المجاهدين بأبشع الألقاب ، وذلك عبر الوسائل الإعلامية ، والمنظمات الدولية ؛ لذا لابد من تجلية المعالم الحقة لهذه الشعيرة التي أرهبت الأعداء وأقضت مضاجعهم .

٢ - ٣ : الغفلة عن استصحاب نية الجهاد عند فئات كثيرة من الدعاة ، فضلاً عن عامة الناس ؛ وهو ما أقعد الكثير عن الاستعداد له وتحديث النفس به ، فأدى إلى التثاقل إلى الأرض ، والتكالب على الدنيا ومتاعها الزائل .

٢ - ٤ : غياب معنى الجهاد بمفهومه الشامل ، الذي ينتظم كل الأعمال الصالحة ، التي منها : مجاهدة العبد لنفسه ، وسعيه لإصلاح مجتمعه ، واستعداده لمقارعة عدوِّه ؛ واقتصار مفهومه عند البعض بمجالدة الكفار بالسيوف .. وهل يستطيع أنْ يجاهد الأعداء من هزمتْهُ نفسُه التي بين جنبيه ؟ ! أم كيف يمكن أن يقوم جهاد لعدوٍ خارجي والمجتمع يعج بالمنكرات ، والكثير من أفراده اتبعوا الشهوات وضيّعوا الصلوات ؟

٢ - ٥ : وضع الأمة المتردي ، وحالها المبكي ، في جميع شؤون حياتها ، ويظهر هذا جليًّا في تسلّط أعدائها ونهب ثرواتها ، بل وسلب مقدساتها . ولقد صدق رسول الله ﷺ : ((**يوشك الأمم أن تداعى كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**)) ، فقال قائل : ومِنْ قلةٍ نحن يومئذ ؟ قال : ((**بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السَّيل ، ولينزعنَّ اللهُ من صدور**

---

(١) انظر الفتاوى ، ابن تيمية : ج١٥ : ص ٤٤ .

عدوّكم المهابةَ منكم ولَيَقْذِفَنَّ اللهُ في قلوبكم الوهن » ، فقال : قائل : يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال : « **حب الدنيا وكراهية الموت** » (١) ، فلا سبيل للحياة الكريمة إلا بالجهاد ولا سبيل للعزة والتمكُّن إلا عندما يكون الموت في سبيل الله أسمى أمانينا .

٢ - ٦ : ذِكرُ فضائل الجهاد ، واستنفار الهمم إليه ، وتحريض المؤمنين عليه - سنّة نبويّة ، امتثل فيها رسول الله ﷺ أمر ربه له بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ** ﴾ (٢) .. فعسى أن يكون عرض هذا الموضوع تحريضًا لنا وترغيبًا ، وتشويقًا وتحبيبًا بأفضل قربة بعد الإيمان بالله - عزَّ وجلَّ - ، كما جاء في الحديث الذي سئُل فيه المصطفى ﷺ : **أي الأعمال أفضل ؟ فقال** : « **إيمان بالله ورسوله** » . **قيل** : **ثم ماذا ؟ قال** : « **الجهاد في سبيل الله** » . **قيل** : **ثم ماذا ؟ قال** : «**حج مبرور** » (٣) .. ثم عسى أن نكون ممن عناهم الإمام العزُّ بن عبد السلام - يرحمه الله - حين قال : « منْ قاتل في سبيل الله بنفسه ، وحثَّ على ذلك فقد باشر الجهاد بنفسه ، وتسبَّبَ إلى تحصيله بحثِّه ؛ فحاز أشرف التّسبُّب والمباشرة ، وكان حثُّهُ على ذلك أمرًا بالمعروف الذي هو تلو الإيمان . وإذا كان هذا لمن تسبَّب بقوله ؛ فما الظنُّ بمَنْ تَسبَّب إلى ذلك بقوله وفعله ؛ فجنَّدَ الأجناد ، وباشر الجهاد ؟! » (٤) .

٣ - لماذا نجاهـد ؟ :

لابد أن نذكر بعض الحِكم وراء تشريع الجهاد ، والإشارة إلى بعض غاياته وأهدافه ؛ وذلك ليتضح للمؤمن أهدافه في الجهاد ، فيسعى لتحقيقها ، ويبذل جهده للوصول إليها . وقد شرع الله الجهاد لحِكم عظيمة كثيرة لا يحيط بها إلا هو ، ومن هذه الحكم :

٣ - ١ : إزالة العوائق ، وإخماد الفتن التي تحول دون انتشار الدعوة بين العالمين ،

---

(١) رواه أبو داود : ٤٢٩٧ ، وأحمد : ج٥ ، ص ٢٧٨ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ، برقم : ٩٥٨ .
(٢) سورة الأنفال [٦٥] .
(٣) رواه البخاري ، كتاب الحج ، باب فضل الحج المبرور ، رقم : ١٥١٩ ، ورواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ، برقم : ٨٣ ، وانظر للتوسع في شرح الحديث قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام : ص (٨٩ - ٩١) .
(٤) أحكام الجهاد وفضائله ، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام : ص ٥٥ .

وظهورها على كل دين ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ ﴾ [1] .

٣ - ٢ : دفع الظلم ، وإحقاق الحق ، والحيلولة دون الإفساد والدمار لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [3] .

٣ - ٣ : الحفاظ على كيان وعز المسلمين ونصرة المستضعفين لقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [4] .

٣ - ٤ : إذلال أعداء الله وإرهابهم وكف بأسهم لقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [5] ، وقوله : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [6] ، وقوله : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾ [7] .

٣ - ٥ : تمحيص المؤمنين ، ومحق الكافرين ، واصطفاء الشهداء .. يقول الله تعالى :

---

(1) سور البقرة [١٩٣] .
(2) سورة البقرة [٢٥١] .
(3) سورة الحج [٣٩ - ٤٠] .
(4) سورة النساء [٧٥] .
(5) سورة التوبة [٢٩] .
(6) سورة الأنفال [٦٠] .
(7) سورة النساء [٨٤] .

﴿ إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [1] ، ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [2] .

٣ - ٦ : التمكين في الأرض لإقامة شريعة العدل وضرورة الحياة في ظل منهج الله .. يقول تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[3] . وفي الحديث : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . فإن فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله** » [4][5] .

وقد ذكر الإمام عز الدين بن عبد السلام - رحمه الله - بعض فوائده والحكم من تشريعه فقال : « وفوائدهُ ضربان : أحدهما مَصَالحُه ، وهي منقسمة إلى العاجل والآجل .

فأما مصالحه العاجلة :

فإعزاز الدين ، ومحق الكافرين ، وشفاء صدور المؤمنين ، وكذلك ما يحصل بالمؤمنين من اغتنام أموالهم وتخميسها ، وإرقاق نسائهم وأطفالهم .

وأما مصالحه الآجلة :

فالأجر العظيم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ

---

(1) سورة آل عمران [١٤٠ - ١٤١] .
(2) سورة آل عمران [١٥٤] .
(3) سورة الحج [٣٩ - ٤٠] .
(4) رواه البخاري ومسلم .
(5) الثمرات الجياد في مسائل فقه الجهاد ، أحمد المصري : ص (١٢ - ١٣) .

نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) ، فجعل الأجر العظيم للقتلى والغالبين ، والغالب أفضل من القتيل حصّل مقاصد الجهاد ، وليس القتيل مثابًا على القتل ؛ لأنه ليس من فعله ، وإنما يُثاب على تعرّضه للقتل في نصرة الدين .

الضرب الثاني من فوائد الجهاد : دَرْؤُه لمفاسدَ عاجلة وآجلة .

أما الآجلة :

فلأنه سبب لغفران الذنوب ، والغفران دافع لمفاسد العقاب .

وأما العاجلة :

فإنه يدرأ الكفر في صدور الكافرين إن قتلوا أو أسلموا خوفًا من القتل ، وكذلك يَدْرَأُ استيلاء الكفار على قتل المسلمين ، وأخذ أموالهم ، وإرقاق حُرَمِهم وأطفالهم ، وانتهاك حرمة الدِّين » (٢) .

٤ - مراتب الجهاد (أنواعه / أقسامه) :

قسَّم الإمام ابن القيم الجهاد إلى أربع مراتب ، وكل مرتبة منها تضمَّنتْ عددًا من المراتب التي تندرج تحتها ، وهو تقسيم بديع ، يجلّي الجهاد بمعناه العام ، ولا يقصره على مجالدة الكفار فقط . قال - رحمه الله تعالى - : « فالجهاد أربع مراتب : جهادُ النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين » ، وقد أضاف إليها جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات ، ونضيف إليها مرتبة أخرى ؛ ولهذا سنجعلها ست مراتب ، وهي على النحو التالي :

٤ - ١ : جهاد النفس :

وهو على أربع مراتب أيضًا :

إحداها : أنْ يُجاهدَها على تعلُّم الهُدى ودين الحق ، الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فاتها عِلمُه ، شقيت في الدَّارين .

الثانية : أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه ، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرّها لم ينفعْها .

---

(١) سورة النساء [٧٤] .
(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، العز بن عبد السلام : ص (٨٩ - ٩٠) .

الثالثة : أن يُجاهدها على الدعوة إليه ، وتعليمه مَنْ لا يعلمهُ ، وإلا كان من الذين يكتُمون ما أنزل اللهُ مِن الهُدى والبينات ، ولا ينفعُهُ علمُهُ ، ولا يُنجِيه مِن عذاب الله .

الرابعة : أن يُجاهدها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله وأذى الخلق ، ويتحمَّل ذلك كلَّه لله ؛ فإذا استكمل هذه المراتب الأربع ، صار من الرَّبَّانيينَ ، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمَّى ربانيًّا حتى يعرِفَ الحقَّ ، ويعملَ به ، ويُعَلِّمَهُ ؛ فمن عَلِمَ وَعَمِلَ وعلَّمَ فذلكَ يُدعى عظيمًا في ملكوتِ السماوات .

٤ - ٢ : جهاد الشيطان :

وهو مرتبتان :

إحداهما : جهادُه على دفع ما يُلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية : جِهادهُ على دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات ؛ فالجهادُ الأول يكون بعده اليقين ، والثاني يكون بعدهَ الصبر . قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ (١) ، فأخبر أن إمامة الدِّين إنما تُنال بالصبر واليقين ؛ فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة ، واليقينُ يدفع الشكوكَ والشبهات .

٤ - ٣ ، ٤ : جهاد الكفار والمنافقين :

وهو على أربع مراتب : بالقلب ، واللِّسان ، والمال ، والنفس ؛ وجهادُ الكفار أخصُّ باليد ، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان .

٤ - ٥ : جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات :

وقد ألحقه الإمام ابن القيم - رحمه الله - بالذي قبله - فيما يبدو لي - فقال : وأما جهادُ أرباب الظلم والبدع والمنكرات ، فثلاث مراتب : الأولى باليد إذا قَدرَ ؛ فإن عجز ، انتقل إلى اللسان ؛ فإن عجز ، جاهد بقلبه ؛ فهذه ثلاثةَ عشرَ مرتبةً (٢) من الجهاد ،

---

(١) سورة السجدة [٢٤] .
(٢) قلت : هكذا هي في الطبعة التي بين يدي (ط١٤) ، وهو خطأ وصوابه أن يقول : ثلاثَ عشرةَ مرتبةً .

و ((**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفسَهُ بِالغزو ، ماتَ على شعبةٍ من النفاقِ**)) [1] [2] .

٤ ـ ٦ : جهاد المسلمين لإصلاحهم في عقائدهم وعباداتهم وجميع شؤون دينهم :

قال السعدي ـ يرحمه الله ـ : ((والجهاد نوعان : جهاد يقصد به صلاح المسلمين وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية ، وفي تربيتهم العلمية والعملية ؛ وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوَامُه ، وعليه يتأسس النوع الثاني ؛ وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم . وهذا نوعان : جهاد بالحجة والبرهان واللسان ، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان)) [3] .

٥ ـ هل الجهاد فرضٌ عينيّ أم فرضٌ كفائيّ ؟

يختلف حكم الجهاد باختلاف مراتبه وأسبابه الداعية إليه ، وإليك زبدة ما ذكره أهل العلم في هذه القضية :

٥ ـ ١ : جهاد النفس والشيطان :

((أن يُجاهدَ العبد نفسه ليُسلِم قلبه ولسانه وجوارحه لله ؛ فيكون كُلُّه لله وبالله ، لا لنفسِه ولا بنفسه ، ويُجاهدَ شيطانه بتكذيب وعدِهِ ، ومعصية أمره ، وارتكاب نهيه ، فإنه يَعِدُ الأمانيَّ ، ويُمَنِّي الغُرورَ ، ويَعِدُ الفقرَ ، ويأمرُ بالفحشاء ، وينهى عن التُّقى والهُدى ، والعفة والصبر ، وأخلاق الإيمان كُلِّهَا ؛ فجاهده بتكذيب وعده ، ومعصيةِ أمره ؛ فينشأُ له من هذين الجهادين قوةٌ وسلطان ، وعُدَّةٌ يُجاهد بها أعداءَ الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله ؛ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا)) [4] .

وقد فرض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على العبد جهاد نفسه في ذات الله ، وجهاد شيطانه ؛ فهذا كلُّه فرضُ عينٍ لا ينوب فيه أحدٌ عن أحد [5] .

٥ ـ ٢ : جهاد الكفار والمنافقين ومَنْ في حكمهم :

جهاد الكفار فرض كفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين . وهذا هو قول عامة أهل العلم [6]. قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [7]

---

(1) رواه مسلم في الإمارة ، باب ذم من مات ولم يحدث نفسه بالغزو ، برقم : ١٩١٠ .
(2) زاد المعاد ، ابن القيم : ج٣ ، ص (٩ ـ ١١) ، بتصرف يسير .
(3) جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين ، السعدي : ص ٩ ، قلت : وقد أورده ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في جهاد النفس في المرتبة الثالثة إلا أنه لأهميته جعلناه مرتبة مستقلة فليتنبه .
(4) زاد المعاد : ج٣ ، ص ٨ .
(5) المرجع السابق : ج٣ ، ص١٢ .
(6) المغني والشرح الكبير : ج١٠ ، ص ٢٦٤ ، ويسمى هذا بجهاد الطلب والابتداء : وهو تطلب الكفار في عقر

.

ويتعين الجهاد ، أي يصبح فرض عين ، في ثلاثة مواضع :

أحدها : إذا التقى الزحفان ، وتقابل الصفان ، حَرُمَ على من حضر الانصراف وتعين عليه المقام لقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ [3] .

الثاني : إذا نزل الكفار ببلد (من بلاد المسلمين) تعين على أهله قتالهم ودفعهم [4] .

الثالث : إذا استنفر الإمام قومًا لزمهم النفير معه لقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ** ﴾ الآية[5]، والتي بعدها . وقال النبي ﷺ : ((**إذا استنفرتم فانفروا**)) [6] [7] .

تنبيه هام :

أحكام الجهاد (جهاد الكفار) المتقدمة هي إذا كان للمسلمين منعة ، وكان بهم قوة على الجهاد . أما إذا لم يكن الأمر كذلك ؛ فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ، ويجب عليهم – والحال هذه – أن يعملوا على توحيد صفهم وإعداد قوتهم للجهاد ؛ لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، حتى إذا أصبحوا في حال قوة وجب عليهم قتال الكفار . هذا يعني أن

دارهم ، ودعوتهم إلى الإسلام وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام ، فهذا النوع فرض كفاية على مجموع المسلمين إذا قام به البعض سقط الوجوب عن الباقين [تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد ، سعيد عبد العظيم : ص (١٨ – ١٩)] .

(1) سورة التوبة [٧٣] .

(2) سورة الأنفال [٤٥] .

(3) سورة الأنفال [١٥ - ١٦] .

(4) ويسمى هذا النوع من الجهاد بجهاد الدفع ، وحكمه فرض عين على المسلمين عمومًا حتى يندفع الأعداء ، وهذا بإجماع علماء الإسلام (انظر : تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد ، ص ٢٢) .

(5) سورة التوبة [٣٨] .

(6) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب فضل الجهاد والسير ، برقم : ٢٧٨٣ ، عن ابن عباس ، ورواه مسلم ، الإمارة ، باب ٢٠ ، برقم : ١٨٦٤ ، عن عائشة .

(7) المغني والشرح الكبير : ج١٠ ، ص (٣٦٥ - ٣٦٦) .

الجهاد على مراحل ، وليس هو مرحلة القتال فقط ؛ ولهذا نحتاج لبيان مراحله وما ذكره أهل العلم فيها .

٦ - مراحل الجهاد :

مما امتازت به شريعة الإسلام مراعاة حال الإنسان قوة وضعفًا ؛ ولهذا فإنه تدرجت في أحكامها ، وكان فيها الرخصة والعزيمة ، ولم يكن الجهاد بمعزلٍ عن سنّة التدرج هذه ؛ إذ مرّ بعدة مراحل يمكن تلخيصها فيما يلي :

٦ - ١ : مرحلة الدعوة والإنذار :

وقد بدأ الرسول ﷺ هذه المرحلة بالدعوة السرّية ، حفاظًا على حملة الدين من الاستئصال وهم قلة ، ثم كُلِّف بعدها بأن يصدع بما أُمر به ، ويعرِض عن المشركين ، ويبدأ بإنذار عشيرته الأقربين . وقد أُمر خلالها بالصفح والكف عن القتال . قال القرطبي - يرحمه الله - : « ولا خلاف في أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة[1] ، قال الله تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً**﴾ »[2][3] .

٦ - ٢ : مرحلة الإذن بالقتال :

وهي المرحلة التي تلت هجرة النبي ﷺ للمدينة ، حيث كثر فيها أتباعه وقويت شوكتهم، واشتد جناحهم ، فكان الإذن لهم بالقتال ، ولم يفرض عليهم فرضًا . قال الله تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾[4]. قال القرطبي - يرحمه الله - : « وهذا ناسخ لكل ما في القرآن من إعراض وترك صفح »[5] .

٦ - ٣ : مرحلة فرض قتال الدفع :

وفي هذه المرحلة أُمروا بردِّ الاعتداء فقط والدفاع عن الأنفس والأرض والعرض ، ونُهوا عن ابتداء المشركين بقتال .

قال الله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾[6] .

---

(1) الجامع لأحكام القرآن : ج٢ ، ٣٤٧ .
(2) سورة النساء [٧٧] .
(3) للتوسع راجع الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج٥ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .
(4) سورة الحج [٣٩] .
(5) المرجع السابق : ج١٢ ، ص (٦٧ - ٦٨) ، راجع للتوسع زاد المعاد : ج٣ ، ص (٧٠ - ٧١) .
(6) سورة البقرة [١٩٠] .

٦ - ٤ : مرحلة قتال الطلب والابتداء :

وفي هذه المرحلة كُتبَ عليهم القتال فرضًا عامًّا على المشركين كافة ؛ بدءوا القتال ، أم لم يبدءوا ، حتى لا تكون فتنةٌ ، ويكون الدينُ كلُّه لله . وعلى هذه المرحلة استقر أمر الجهاد إلى يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ** ﴾ (١) .

- وقد لخص الإمام ابن القيم هذه المراحل في كلمات موجزة فقال : ((وكان حرامًا [أي قتال المشركين] ، ثم مأذونًا به ، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورًا به لجميع المشركين ؛ إما فرض عين على أحد القولين ، أو فرض كفاية على المشهور)) (٢).

بأي هذه المراحل نعمل ؟ :

- إذا كان المسلمون في عزة وقوة ومنعة ، وجماعة عديدة ، وشدّة شديدة فلا يسعهم إلا أن يعملوا بآية السيف ؛ وهي المرحلة الرابعة التي استقرت عليها أحكام الشريعة في الجهاد .
- وأما إن كان المسلمون في حالة ضعف وفرقة واختلاف - كحال زماننا - هذا فلهم أن يأخذوا ما يوافق حالهم . قال شيخ الإسلام ابن تيمية - يرحمه الله - : ((فمن كان من المؤمنين بأرضٍ هو مستضعف ، أو في وقت هو فيه مستضعف ، فليعمل بآية الصبر والعفو عمن يؤذي الله ورسوله [أي المرحلة الأولى] ، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية القتال)) (٤) . (وإلى هذا القول ذهب الشيخ بن باز) (٥) .

قال سيد - يرحمه الله - : ((إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة. ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد - عن طريق الاجتهاد المطلق - أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من

(١) راجع الاختلاف في تأويل الآية ، الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ج٢ ، ص (٣٤٩ - ٣٥٠) .
(٢) سورة التوبة [٥] .
(٣) زاد المعاد : ج٣ ، ص ٧ ، راجع للتوسع ، الظلال : ج٣ ، ص ١٤٣١ وما بعدها .
(٤) الصارم المسلول ، ابن تيمية ، ص٢٢١ ، وانظر للتوسع : جامع البيان للطبري : ج١٠ ، ص ٣٤ ، والجامع لأحكام القرآن : ج٨ ، ص (٣٩ - ٤١) ، وتفسير ابن كثير : ج٢ ، ص ٣٢٢ ، نقلاً عن الثمرات الجياد في مسائل فقه الجهاد ، لأحمد نصر الله المصري ، ص ١٨ .
(٥) فضل الجهاد والمجاهدين ، العلامة عبد العزيز بن باز : ص (٢٦ - ٢٧) .

الظروف ، في زمان من الأزمنة ، في مكان من الأمكنة ! مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها ، متى أصبحت الأمة المسلمة في الحال التي تمكّنها من تنفيذ هذه الأحكام » (١) .

٧ - فضل الجهاد وما وعد الله به المجاهدين في سبيله :

لقد خصَّ الله - عزَّ وجلَّ - الجهاد في سبيله بأجور عظيمة وهبات جسيمة ، وجعل المجاهدين في أعلى المنازل ، وأكرمهم بأعظم النوائل ، وجعل الشهداء منهم أحياءً ، ولسبعين من أهلهم شفعاء ؛ فطوبى لمن حصل على هذا الأجر الجزيل في جوار الرب الجليل ..

وإليك بعض ما ذكر في القرآن الكريم ، وفي سنّة سيد المرسلين ﷺ عن فضل المرابطة والمرابطين ، ودرجة الجهاد والمجاهدين . نسأل الله أن يجعلنا منهم ، ويحشرنا معهم ، ويدخلنا مدخلهم .

٧ - ١ : لا يستوون عند الله :

﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢) . وقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ﴾ (٣).

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دُلَّني على عمل يَعْدِل الجهاد . قال : « **لا أجدُهُ** » **قال** : **هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدَكَ فتقومَ ولا تفْتُرَ وتصومَ ولا تُفطِرَ ؟.. قال** : **ومن يستطيع ذلك ؟** » (٤) .

قال ابن حجر - يرحمه الله - : « وهذه فضيلة ظاهرة للمجاهد في سبيل الله تقتضي ألا يعدل الجهاد بشيء من الأعمال .. وقال ابن دقيق العيد : « القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل ؛ لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ج٣ ، ص ١٥٨٠ .
(٢) سورة النساء [٩٥ - ٩٦] .
(٣) سورة التوبة [١٩] .
(٤) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب فضل الجهاد والسير ، برقم : ٢٧٨٥ .

ونشره ، وإخماد الكفر ودحضه ، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك ، والله أعلم)) [١] .

٧ ـ ٢ : تجارة رابحـة :

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] .

وقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [٣] . وقال رسول الله ﷺ : ((**تضَمَّنَ الله [وفي رواية : تكفَّلَ الله] لِمَنْ خرج في سبيله ، لا يُخرجه إلا جهادًا في سبيلي ، وإيمانًا بي ، وتصديقًا برسُلي . فهو عليَّ ضَامِن أن أُدْخله الجنّةَ أو أرْجِعَهُ إلى مسكنِه الذي خرج منه ، نائلاً ما نال من الأجر أو غنيمة**)) [٤] .

٧ ـ ٣ : الجهاد في سبيل الله أُمنيَّته ﷺ :

● قال ﷺ : ((**والذي نفسُ محمدٍ بيده ! ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيلِ الله ، إلا جاء يَوْمَ القيامةِ كهيئتهِ حين كُلِمَ ، لونه لون دَمٍ ، وريحُهُ مِسْك . والذي نفسُ محمدٍ بيده ! لولا أن يَشُقَّ على المسلمين ، ما قعدت خلال سرية تغزو في سبيل الله أبدًا ، ولكن لا أجدُ سعةً فأحملهم . ولا يجدُون سعةً ، ويشقُّ عليهم أن يتخلَّفوا عنّي . والذي نفسُ محمدٍ بيده ! لوددتُ أنّي أغزو في سبيل الله فأقتلُ ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل**)) [٥] .

● وقال ﷺ : ((**ما من نفس تموت ، لها عند الله خير ، يَسُرُّها أنها ترجِعُ إلى الدنيا ،ولا أنَّ لها الدنيا وما فيها ، إلا الشهيد ، فإنه يتمنَّى أن يرجع فيُقتلَ في الدنيا ؛ لما يرى من فضل**

---

(١) الفتح : ج٦ ، ص ٥ .
(٢) سورة الصف [١٠ - ١٣] .
(٣) سورة التوبة [١١١] .
(٤) رواه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب قول النبي ﷺ : ((**أحلت لكم الغنائم**)) ، برقم : ٣١٢٣ ، ورواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ، برقم : ١٨٧٦ .
(٥) هو تكملة الحديث السابق .

الشهادة)) . وفي رواية : **فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتل عشر مراتٍ ؛ لما يرى من الكرامة**)) [1] .

٧ – ٤ : رافعُ الدرجات ومُكفِّرُ السيئات :

● عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ قال : ((**يا أبا سعيد ! من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًّا ، وجبتْ له الجنّة**)) ، فعجب لها أبو سعيد ، فقال : أعِدْهَا عليّ يا رسول الله ! ففعل . ثم قال : ((**وأخرى يُرْفَعُ بها العبدُ مائةَ درجةٍ في الجنة ، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض**)) . قال : وما هي يا رسول الله ؟ ! قال : ((**الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله**)) [2] .

عن عبد الله بن أبي قتادة ، عن أبي قتادة ، أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ ، أنه قام فيهم فذكر لهم ((**أن الجهادَ في سبيل الله والإيمانَ بالله أفضلُ الأعمال**)) ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أرأيتَ إن قُتِلْتُ في سبيل الله تُكَفَّرُ عنِّي خَطَايايَ ؟ فقال له رسول الله ﷺ : ((**نعم ، إن قُتِلْتَ في سبيل الله ، وأنت صابر محتسب ، مقْبل غيرُ مدبرٍ**)) ، ثم قال رسول الله ﷺ : ((**كيف قُلْت ؟**)) . قال : أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله أتُكَفَّرُ عنِّي خطَاياي ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((**نعم ، وأنت صابر محتسب ، مُقبلٌ غير مدبرٍ إلا الدَّيْنَ ، فإن جبريلَ – عليه السلام – قال لي ذلك**)) [3] . قلت : وهذا في الشهيد .

٧ ـ ٥ : فضل الجهاد المالي :

الجهاد ليس مقصورًا على النفس ، بل ربما احتاج المسلمون في الجهاد إلى المال أكثر من حاجتهم للرجال في بعض الأحيان . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ((ومن عجز عن الجهاد ببدنه ، وقدر على الجهاد بماله ، وجب عليه الجهاد بماله)) [4] ، وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ وهو يذكر الفوائد المستقاة من غزوة تبوك : ((ومنها : وجوبُ الجهاد بالمال ، كما يجبُ بالنفس ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، وهي الصوابُ الذي لا ريب فيه ، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيق الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن وقرينُه ، بل جاء مقدَّمًا على الجهاد بالنفس ، ولا ريب أنه أحدُ

---

[1] رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الشهادة في سبيل الله ، برقم : ١٨٧٧ .
[2] رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهدين في الجنة من الدرجات ، ١٨٨٤ .
[3] رواه مسلم ، كتاب الإمارة باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه ، إلا الدين ، برقم : ١٨٨٥ .
[4] الاختيارات ، للبعلي : ص ٢٥٦ .

الجهادين ، كما قال النبي ﷺ : ((**من جهز غازيًا فقد غزا**)) ، فيجب على القادر عليه ، كما يجب على القادر بالبدن ، ولا يتم الجهاد بالبدن إلا ببذله ، ولا ينتصر إلا بالعدد والعُدد ، فإن لم يقدر أن يكثر العدد ، وجب عليه أن يمد بالمال والعُدة ، وإذا وجب الحجُّ بالمال على العاجز بالبدن ، فوجوب الجهاد بالمال أولى وأحرى)) (1) .

وقد ذهب المجاهدون بأموالهم في غزوة تبوك أو غزوة العسرة بالأجور العظيمة حتى قال رسول الله ﷺ عن عثمان ﷺ ، وقد بذل ماله في سبيل الله : ((**ما ضَّر عثمان ما عمل بعد اليوم**)) (2) . قال القاري : ((والمعنى لم يضر عثمان الذي عمل ، أي : من الذنب سابقًا ولاحقًا)) (3) . وقد حال بين قوم وبين الجهاد عَوَزُهم وفقرُهم : ﴿**وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ**﴾ (4) ؛ ولهذا رفع رسول الله ﷺ من شأن الإنفاق المالي ، وعدَّ صاحبه من المجاهدين فقال : ((**من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا**)) (5) .

وقال ابن حجر - رحمه الله - : ((قال ابن حبان : معناه أنه مثله في الأجر وإن لم يغز حقيقة)) (6) . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ((من أعطى مجاهدًا مالاً مساعدة في الغزو فإنه يكون مجاهدًا مثله ، وأجر كل واحد منهما على الله)) (7) .

قال الإمام النووي - يرحمه الله - في قوله ﷺ : ((**فقد غزا**)) : ((أي : حصل له أجر بسبب الغزو ، وهذا الأجر يحصل بكل جهاد ؛ وسواء قليله وكثيره ، ولكل خالفٍ له في أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو مساعدتهم في أمرهم ،

(1) زاد المعاد : ج٣ ، ص (٥٥٨ - ٥٥٩) .
(2) رواه الترمذي : ج٢ ، ص ٣٩٥ ، برقم : ٣٧٠١ ، والحاكم : ج٣ ، ص ١٠٢ ، وأحمد : ج٥ ، ص ٦٣ ، وقد حسنه الترمذي ، والألباني ، مشكاة المصابيح ، برقم : ٦٠٦٤ .
(3) مرقاة المفاتيح ، القاري : ج١٠ ، ص ٤٥٣ .
(4) سورة التوبة [٩٢] .
(5) رواه البخاري ، باب فضل من جهّز غازيًا أو خلفه ، برقم : ٢٨٤٣ ، ورواه مسلم في الإمارة ، فضل إعانة الغازي في سبيل الله بركوب وغيره .. ، برقم : ١٨٩٥ .
(6) الفتح : ج٦ ، ص ٥٠ ، وفيه بحث في الجمع بين الروايات والأحاديث الواردة في أجر من جهَّز غازيًا أو خلفه في أهله بخير ، فليراجع لمن أراد التوسع .
(7) موسوعة فقه ابن تيمية : ج٢ ، ص ٦٤٥ .

ويختلف قدر الثواب بقلة ذلك وكثرته . وفي هذا الحديث الحث على الإحسان إلى من فعل مصلحة للمسلمين أو قام بأمر من مهماتهم)) (١) ، بل جعل الدلالة على أهل الإنفاق مشاركة تستحق المثوبة والأجر ، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني أُبْدِعَ بي [أي هلكت دابتي] فاحملني [يريد دابة يجاهد عليها] ، فقال : ((**ما عندي**)) ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أدُلّه على منْ يَحمِلُهُ ، فقال رسول الله ﷺ : ((**من دلَّ على خير فله مثلُ أجر فاعله**)) (٢) .

وإليك بعض النصوص المرغِّبة في الإنفاق في سبيل الله :

أ - قال الله تعالى : ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَّشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (٣) . قال ابن القيم - يرحمه الله - : ((شبَّه الله سبحانه نفقة المنفق في سبيله - سواء كان المراد به الجهاد أو جميع سبل الخير - بمن بذر بذرًا ، فأنبتت كل حبةٍ منه سبع سنابل ، اشتملت كل سنبلة على مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك ، بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ، ونفع نفقته وقدرها ، ووقوعها موقعها)) (٤) .

ب - قال رسول الله ﷺ : ((**من احتبس فرسًا في سبيل الله ، إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده ، فإن شبعَهُ وريَّهُ ورَوْثَهُ وبوله في ميزانه يوم القيامة**)) (٥) . قال ابن حجر - رحمه الله - : ((ويستنبط منه [من الحديث] جواز وقف غير الخيل من المنقولات وغير المنقولات من باب أولى)) (٦) .

ج - عن أبي مسعود الأنصاريِّ قال : جاء رجلٌ بناقةٍ مخْطُومَة ، فقال : هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : ((**لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقةٍ ، كلها مخطومة**)) (٧) . مخطومة : أي فيها خطام ، وهو قريب من الزمام .

٧ - ٦ : في فضل الشهيد :

قال رسول الله ﷺ : ((**للشهيد عند الله ست خصال : يُغفر له في أولِ دفعةٍ [من**

---

(١) صحيح مسلم ، بشرح النووي : ج١٣ ، ص٤٠ .
(٢) رواه مسلم ، الإمارة ، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله .. ، برقم : ١٨٩٣ .
(٣) سورة البقرة [٢٦١] .
(٤) التفسير القيم ، لابن القيم : ص ١٥٠ .
(٥) رواه البخاري ، في الجهاد ، باب من احتبس فرسًا في سبيل الله ، برقم : ٢٨٥٣ .
(٦) الفتح : ج٦ ، ص ٥٧ .
(٧) رواه مسلم ، الإمارة ، باب فضل الصدقة في سبيل الله ، وتضعيفها ، برقم : ١٨٩٢ .

دمه] ، ويرى مقعَدهُ من الجنةِ ، ويُجَار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة خير من الدنيا وما فيها ، ويُزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنسان من أقاربه)) [١] .

٧ - ٧ : فضل السعي والحركة في سبيل الله والرباط في الثغور :

قال رسول الله ﷺ : ((**رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها ، وموضِعُ سَوْط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها ، والرَّوْحةُ يروحُها العبدُ في سبيل الله أو الغَدوةُ خير من الدنيا وما عليها**)) [٢] .

٨ - الترهيب مِنْ ترك الجهاد والتقاعس عنه :

لقد ذم الله - عزَّ وجلَّ - التاركين للجهاد ، المتقاعسين عنه ، المتثاقلين إلى الأرض ، المؤثرين للدنيا ومتاعها على الجهاد في سبيله وإعلاء كلمته ، وذلك في نصوصٍ كثيرة نورد بعضها :

٨ - ١ : فتربصوا حتى يأتي اللهُ بأمره :

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [٣] . قال شيخ الإسلام ابن تيمية - يرحمه الله - : ((فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهاد في سبيله ، أحبَّ إلى العبد من الأهل والمال - على اختلاف أنواعه - فإنه داخل تحت هذا الوعيد)) .

٨ - ٢ : ويستبدِلْ قومًا غيركم :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [٤] . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ((استنفر رسول الله ﷺ حيًّا من العرب فتثاقلوا

---

(١) رواه الترمذي ، ١٦٦٣ ، وابن ماجة ، ٢٧٩٩ ، وأحمد : ج٤ ، ص ١٣١ ، من حديث المقدام بن معدي كرب ، وأحمد : ج٤ ، ص ٢٠٠ من حديث قيس الجذامي ، وهو صحيح ، وانظر صحيح سنن الترمذي ، للألباني ، برقم : ١٣٥٨ .
(٢) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب فضل الرباط في سبيل الله .. ، برقم : ٢٨٩٢ .
(٣) سورة التوبة [٢٤] .
(٤) سورة التوبة [٣٨ - ٣٩] .

عنه ، فأمسك الله عنهم القطر ، فكان عذابهم ›› [1] ، والكثير من آيات سورة التوبة فيها توبيخ للمتخلفين عن الجهاد وتحقير لهم .

٨ - ٣ : أصابه الله بقارعة :

عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال : ‹‹ **من لم يغزُ ، أو يُجهِّز ، غازيًا ، أو يَخْلُفْ غازيًا في أهله بخيرٍ أصابه الله بقارعة** ›› . قال يزيد بن عبد ربه في حديثه : ‹‹ **قبل يوم القيامة** ››[2]، وقريبًا من هذا المعنى حديث أبي بكر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ‹‹ **ما ترك قوم الجهاد إلا عمَّهُمُ الله بالعذاب** ›› [3] .

٨ - ٤ : شعبة من النفاق :

قال رسول الله ﷺ : ‹‹ **من مات ولم يَغزُ ، ولم يُحدِّث به نفسَه مات على شعبة من نفاق** ››[4] ، ‹‹ والمراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف ، فإنَّ ترْكَ الجهاد أحد شعب النفاق ›› [5] .

٨ - ٥ : يورث الذُلَّ والهوان :

قال رسول الله ﷺ : ‹‹ **إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سَلَّطَ اللهُ عليكم ذُلاًّ ، لا ينزَعُه حتى ترجعوا إلى دينكم** ›› [6].

٨ - ٦ : ومن مضار التخلف عن الجهاد :

١- أنَّ السعي في إبطال الجهاد والتخلف عنه سبب لشمول اللعنة من الله - عزَّ وجلَّ - وفي التقاعس عنه تفويت لكثير من الخير .

٢- القعود عن الجهاد يسبب كثيرًا من المفاسد العاجلة والآجلة : فأما العاجلة فإنه يستعدي الكفار على المسلمين ، ويُطْمعهم في بلادهم ؛ وأما الآجلة فإنه سببٌ لتراكم الذنوب والمعاصي [7] .

٩ - الاستعداد للجهاد :

---

(1) الحاكم في المستدرك : ج٢ ، ص ١٠٤ ، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .
(2) رواه أبو داود ، برقم : ٢٥٠٣ ، وقال الألباني : ج٢ ، ص ٤٧٥ : حسن .
(3) قال المنذري في الترغيب : ج٢ ، ص ٣٣١ : رواه الطبراني بإسناد حسن .
(4) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بالغزو ، برقم : ١٩١٠ .
(5) قاله الإمام النووي - يرحمه الله - انظر : شرح صحيح مسلم : ج١٣ ، ص ٥٦ .
(6) رواه أبو داود ، برقم : ٣٤٦٢ ، وهو في السلسلة الصحيحة ، للألباني ، برقم : ١١ ، وقال : ((وهو حديث صحيح لمجموع طرقه)).
(7) موسوعة نضرة النعيم : ج٩ ، ص ٤١٥٨ .

لقد فرض الله - عزَّ وجلَّ - على الأمة الاستعداد للجهاد ، وإعداد العُدة الحسية والمعنوية ؛ لقتال أعداء الملة ، ولنشر دعوته ، وإعلاء كلمته ، فقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

ووسائل الاستعداد والإعداد لإرهاب الأعداء منها ما هو واجب على الدولة المسلمة والحاكم المسلم : كتهيئة الآلات الحربية ، وبناء قوة عسكرية تحفظ الدماء وترهب الأعداء ، ومنها ما هو واجب على الأفراد ، ومنها ما هو مشترك ، وسنكتفي ببيان ما يتعلق بالأفراد ؛ إذ هو مجال اهتمامنا وبحثنا ، أما ما هو واجب على الدولة المسلمة فيراجع فيه كتب السياسة الشرعية والجهاد في كتب الفقه وغيرها (٢) .

٩ - ١ : الإعداد الإيماني :

وهو من أعظم ما يعد للجهاد ، وقد مرَّ بنا أن جهاد النفس لترويضها وتهذيبها وتزكيتها أساس الجهاد وقاعدته ؛ لأن المهزوم أمام أهوائه لا يصمد أمام أعدائه . ولله ما أعظم فقه طالوت يوم أراد أن يُمحِّص جنودهَ بالنهر قبل أن يخوض المعركة ؛ لأن ضِعافَ الإيمان قد يكونوا سببًا في هزيمة الجيش كله ، والشواهد على هذا لا تخفى [كما حصل للمسلمين في غزوة حنين] ، وإعداد الجيل للجهاد لابد أن يسبقه ويواكبه تربية على العقيدة الإسلامية ، والأخلاق الإيمانية ، وإلا فهو جيل مخذول مهزوم مهما امتلك من آلة الحرب . وما هزيمتنا يوم ١٩٤٨م ، ١٩٦٧م ، من قلة عدد ولا عُدة ، ولكننا هزمنا من قبل أنفسنا : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣) . قال الشيخ ابن باز : ((ولو أن أحدًا يَسلَم من شرِّ المعاصي وعواقبها الوخيمة لسلم رسول الله ﷺ وأصحابُه الكرام يوم أحد ، وهم خير الأرض ويقاتلون في سبيل الله ، ومع ذلك جرى عليهم ما جرى بسبب معصية الرماة التي كانت من تأويل لا عن قصدِ المخالفة لرسول الله ﷺ والتهاون بأمره ..)) ، إلى أن قال : ((ولا سبيل إلى استعادة المسلمين مجدهم السالف ، واستحقاقهم النصر على عدوهم ، إلا بالرجوع إلى دينهم والاستقامة عليه ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه ، وتحكيمهم شرع الله - سبحانه - في

---

(١) سورة الأنفال [٦٠] .
(٢) للتوسع : راجع السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وغياث الأمم في التياث الظلم لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، والأحكام السلطانية للماوردي ، والمجلد الثامن والعشرون من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية .
(٣) سورة آل عمران [١٦٥] .

أمورهم كلِّها ، واتحاد كلمتهم على الحق ، وتعاونهم على البر والتقوى ..))[1]. وسيأتي - إن شاء الله - في مبحث المسائل ما ذكره ابن سعدي - رحمه الله - حول ضرورة تربية الشباب في قضية الجهاد .

٩ - ٢ : الإعداد القتالي (الفروسية) :

وهو تعلم فنون الرماية والقتال والمحافظة على اللياقة البدنية ونحوها ، وقد قال رسول الله ﷺ : ((**كل ما يلهو به المرء المسلم باطل إلا رميه بقوسه ، وتأديبَه فرسَه ، وملاعبته أهله ؛ فإنه من الحق**)) [2] .

وهذا الصحابي الجليل عقبة بن عامر - على كبر سنّه - يتدرب على الرمي ، فقيل له : تختلف بين هذين الغرضين ، وأنت كبير يشق عليك . قال عقبة : ((لولا كلام سمعتُه من رسول الله ﷺ ، لم أعانيه)) [3] ، والذي سمعه من رسول الله ﷺ هو : ((**منْ علِمَ الرَّمي ثمَّ تركه ، فليس منا ، أو قد عصى**)) [4] . وقال ﷺ عندما خرج على قوم ينتضلون [يترامون ، والتناضل : الترامي للسبق] : ((**ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راميًا**)) [5] تشجيعًا لهم على ما هم فيه وتحريضًا لهم على الاستمرار [6] .

٩ - ٣ : جمع الكلمة والتآلف والتعاون :

﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [7]. وهذا الأمر من أساسيات الجهاد ، ومن أهم أسباب النصر . وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [8]، فالله - عزَّ وجلَّ - بيَّن أن التنازع والاختلاف من أكبر أسباب الهزيمة والفشل ؛ ولهذا فلابد من السعي لتآلف القلوب واجتماعها وترابطها

---

(1) فضل الجهاد والمجاهدين ، الشيخ عبد العزيز بن باز : ص (٣٥ - ٣٦) .
(2) رواه الترمذي : ج١ ، ص ٣٠٨ ، وابن ماجة ، برقم : ٢٨١١ ، وأحمد : ج٤ ، ص (١٤٤ - ١٤٨) ، وانظر السلسلة الصحيحة ، برقم : ٣١٥ .
(3) معاناة الشيء : مقاساته وملابسته .
(4) رواه مسلم ، في الإمارة ، باب فضل الرمي والحث عليه ، وذم من علمه ثم نسيه ، برقم : ١٩١٩ .
(5) رواه البخاري ، في الجهاد ، باب التحريض على الرمي ، برقم : ٢٨٩٩ .
(6) راجع كتاب الفروسية ، لابن القيم ، ففيه الكثير من الفنون التي تُعِينُ على إعداد النفس للجهاد .
(7) سورة الصف [٤] .
(8) سورة الأنفال [٤٦] .

واتحادها ، فإنَّ ذلك من الجهاد . قال الشيخ السعدي - يرحمه الله - :((وذلك أن حقيقة الجهاد هو الجد والاجتهاد في كل أمر يقوي المسلمين ويصلحهم ، ويلم شعثهم ، ويضم متفرقهم ، ويدفع عنهم عدوان الأعداء ، أو يخففه بكل طريق ووسيلة)) [1].

٩ - ٤ : الإعداد المالي :

المال مهم في دعم الجهاد بجميع أشكاله وصوره ؛ ولهذا نجد أن الجهاد بالمال قرين الجهاد بالنفس في كثير من الآيات ، وآية الأمر بالإعداد ختمت بالجهاد المالي : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ** ﴾ [2] ، وفي هذا إشارة إلى أن الإعداد لابد له من مال . (وقد سبق في المبحث بيان وجوب الجهاد المالي ، فلا داعي لإعادته هنا) [3] .

٩ - ٥ : التبصر بمخططات الأعداء :

من الأمور المهمة في الجهاد والاستعداد له ، معرفة مخططات الأعداء والعمل على إبطالها وتفادي أضرارها . وقد كان ﷺ يبعث العيون ليتعرف على حجم العدو ومقدار عُدته ، وربما بعث السرايا لمعرفة أخبار الأعداء ، ومن ذلك بعثه لسريَّة عبد الله بن جحش رضي الله عنه ، وأعطاه كتابًا ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، ولما فتح الكتاب ، وجد فيه : ((**إذا نظرت في كتابي هذا ، فامضِ حتى تنزل نَخْلةً بين مكة والطائف ، فترصدَ بها قريشًا ، وتعلمَ لنا من أخبارهم**)) [4] ، وربما بعث رجلاً واحدًا كبعثه لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه يوم الأحزاب ليأتي بخبر الأعداء .

٩ - ٦ : الإعداد النفسي :

وهو تحديث النفس بالجهاد ، والتشويق إليه ، والتحريض عليه وشحذ الهمم ، وتحفيز العزائم إليه ، واستصحاب نية الجهاد كما قال ﷺ : ((**من مات ولم يغز ، ولم يحدث به نفسه ، مات على شُعبة من نفاق**)) [5] .

---

(1) جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين ، عبد الرحمن السعدي : ص ٨ .
(2) سورة الأنفال [٦٠]
(3) انظر أيضًا الفتاوى ، لشيخ الإسلام : ج٢٩ : ص ١٩٥ ، ومختصر الفتاوى المصرية : ص ٢٧٢ .
(4) انظر زاد المعاد : ج٣ ، ص ١٦٧ ، وقال الهيثمي في المجمع [ج٦ ، ص (٦٦ - ٦٧)] عن قصة سرية عبد الله بن جحش : رواها الطبراني بإسناد واحد وهو إسناد حسن ، وانظر أيضًا : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، لمهدي رزق الله أحمد : ص (٣٣٣ - ٣٣٤) .
(5) رواه مسلم ، وقد سبق تخريجه .

١٠ - من أخلاق المجاهد وآدابه :

المجاهد الذي عقد صفقة المبايعة مع الله - عزَّ وجلَّ - فباع نفسه وماله لله ، حريص على التزام آداب هذه المبايعة والتخلق بأخلاقها .

قال سيد - رحمه الله - : « والذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة ، هم صفوة مختارة ، ذات صفات مميزة .. منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر ، ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سواهم » [1] ، فقال الله تعالى في بيان هذه الصفات الإيمانية بعد عقد البيعة مباشرة : ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [2] .

- والمجاهد الحق هو الذي يستشعر معية الله تعالى فيراقبه في كل خطوة ويحاسب نفسه على كل لفظة ونظرة : ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ [3] .
- ويطمئن إلى كفاية الله - عزَّ وجلَّ - ويثق به مهما قل أتباعه وعتاده ، وكثر أعدائه :
﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ** ﴾ [4] ، ﴿ **أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [5].
- قوي لا يضعف ، ثابت لا يزيغ ، لا يخشى إلا الله : ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ [6].
- متضرع لربه ، منكسر بين يديه يدعوه بذل وخضوع : ﴿**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [7].

---

(١) في ظلال القرآن : ج٣ ، ص ١٧١٤ .
(٢) سورة التوبة [١١٢] .
(٣) سورة غافر [١٩] .
(٤) سورة البقرة [٢٤٩] .
(٥) سورة الزمر [٣٦] .
(٦) سورة آل عمران [١١٣] .
(٧) سورة آل عمران [١٤٧] .

- يأمل ويعمل ، ولا ييأس فيكسل : ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١) ، ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢) .
- (ومنها الإخلاص ، والصدق ، والتبيُّن ، والتعاون ، والشجاعة ، والصبر) .

١١ - نماذج مجاهدة :

١١ - ١ : ما على هذا اتبعتك !! :

عن شدَّاد بن الهاد ﷺ أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبيِّ ﷺ فآمن به واتَّبعه ، ثم قال : أُهاجر معك . فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه ، فلمّا كانت غزاةٌ غنم النبي ﷺ فقسم ، وقسم له ، فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يرعى ظهرهم . فلما جاء دفعوه إليه ، فقال : ما هذا ؟ ! قالوا : قَسْمٌ قَسَمه لك النبي ﷺ ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ ، فقال : ما هذا ؟ قال : ((**قسمٌ قَسمْتُهُ لكَ**)) . قال : ما على هذا اتبعتُكَ ، ولكن اتبعتُك على أن أُرمى إلى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخُلَ الجنة ، فقال : ((**إن تَصْدُق الله يصدقك**)) . فلبثوا قليلاً ، ثم نهضوا في قتال العدو ، فأُتيَ به النبيُّ ﷺ يُحْمَلُ قد أصابه سهمٌ حيث أشار ، فقال النبيُّ ﷺ : ((**أهو هو ؟ !**)) . قال : نعم . قال : ((**صَدَقَ الله فَصَدَقَه**)) ، ثم كفَّنه النبي في جُبَّتهِ ﷺ ، ثم قَدَّمه فصلى عليه ، فكان مما ظهر من صلاته : ((**اللهم هذا عبدك ، خرج مهاجرًا في سبيلك ، فقُتل شهيدًا ، أنا شهيدٌ على ذلك**)) (٣) .

١١ - ٢ : رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه :

عن أنس ﷺ قال : ((غاب عمي أنسُ بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئنِ اللهُ أشَهَدَني قتال المشركين ليريَنَّ اللهُ ما

---

(١) سورة النساء [١٠٤] .
(٢) سورة يوسف [٨٧] .
(٣) رواه النسائي : ج٤ ، ص ٦١ ، والحاكم : ج٣ ، ص ٥٩٥ ، وإسناده صحيح .

أصنَعُ ، فلما كان يوم أحُدٍ وانكشف المسلمون ، قال : اللهم إني أَعتذرُ إليك ممَّا صنع هؤلاء - يعني أصحابَه - وأبرأ إليك مما صنعَ هؤلاء - يعني المشركين - ، ثم تَقَدَّم فاستقبَلَه سعدُ بنُ مُعَاذٍ ﷺ فقال : يا سعدُ بنَ معاذٍ الجنة وربِّ النضرِ ، إني أجد ريحها دون أحد . قال سعدُ : فما استطعت يا رسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربةً بالسيف أو طعنةً بِرُمحٍ أو رَمْيَةً بسهم ، ووجدناه قد قُتِلَ ، وقد مَثَّلَ به المشركون ، فما عرفه أحدٌ إلا أختُهُ بِبنانِه ، فقال أنس : كنا نرى أو نظُنُّ أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه من المؤمنين : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾[1] ›› [2] .

قال ابن حجر - يرحمه الله - : ‹‹ وفي قصة أنس بن النضر من الفوائد جواز بذل النفس في الجهاد ، وفضل الوفاء بالعهد ولو شق على النفس ؛ حتى يصل إلى إهلاكها ، وأن طلب الشهادة في الجهاد لا يتناوله النهي عن الإلقاء في التهلكة .. ›› [3] .

١١ - ٣ : علم ودعوة وجهاد :

هكذا اجتمعن في عبد الله بن المبارك : السخي الجواد ، أليف القرآن والحج والجهاد .. هكذا وصفه أبو نعيم في الحلية [4] . ‹‹ نموذج فريد ، علم وورع ، سخاء وإخبات ، أدب وجهاد ، إنه نداء إلى أولي العلم أن يُزيِّنوا علمهم بشرف الجهاد ، وللعباد أن يكملوا عبادتهم بصدق اللقاء في ساحات الوغى ، وفردوس الجهاد ، وإن حياته دعوة صريحة تملأ الآفاق لطلاب المجد ، وخاطبي الحور الحسان ، وإلى عشاق جنة عدن ألا يعدلوا عن التضحية في سبيل الله ؛ فهي أقصر طريق إلى ولوج دار الكرامة والنعيم .

نعم ليس العلم طول الرواية ، وطنين الكلام ؛ إنما هو مزيج من العلم والعمل ، فقد كان ابن المبارك يجاهد في سبيل الله أربعة أشهر ، ويدعو إلى الله أربعة أشهر ، ويعطي للعلم أربعة أشهر ، ويدير فيها أمر تجارته ؛ فهل آن لنا أن نكرم العلم بكريم التضحية ، وننوِّر العبادة بزكاة الأبدان في مواطن البذل والفداء ؟ ! ›› [5] .

‹‹ وروى عبد الله بن محمد قاضي نصيبين ، حدثنا محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة

---

(1) سورة الأحزاب [٢٣] .
(2) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ الآية ، برقم : ٢٨٠٥ ، ورواه مسلم .
(3) الفتح : ج٦ ، ص ٢٣ .
(4) حلية الأولياء ، أبو نعيم الأصبهاني : ج٨ ، ص ١٦٣ .
(5) معالم غائبة عن حياة المسلمين ، ربيع السعودي : ص ٢٥٦ .

قال : أملى عليَّ ابنُ المبارك سنة سبعٍ وسبعين ومائة ، وأنفذها معي إلى الفضل بن عياض من طرْسُوس :

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتَنَا لعلمتَ أنّك في العبادةِ تلعبُ
مَنْ كان يَخْضِبُ جيده بدموعِهِ فنحورنُا بدمائِنا تَتَخضَّبُ
أو كان يُتعِبُ خَيْلَه في باطلٍ فخيولُنا يومَ الصبيحةِ تَتَعبُ
ريحُ العبيرِ لكم ونحن عبيرنا رَهَجُ السنابك والغُبارُ الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبيّنا قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ
لا يستوي غُبارُ خيل الله في أنفِ امرئ ودُخانُ نار تَلْهَبُ
هذا كتابُ الله ينطق بيننا ليس الشهيدُ بميت لا يكذب

فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم ، فقرأه وبكى ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح . (الرَهَجُ : الغُبَار ؛ السنابك : أطرافُ حوافرِ الخيل) »[1] .

قال الإمام ابن كثير - يرحمه الله - : « وكان يربو كسبه في السنة على مائة ألف ينفقها كلَّها على أهل العبادة والعلم والزهد ، وربما أنفق من رأس ماله »[2] .

١١ - ٤ : لا يتأخرون ! :

أما أحدهما فخشيَ أن يُؤَخِّرَهُ الغُسلُ عن إجابة هيعة الجهاد ، وأما الآخر فخشي أن تؤخره تمرات كنَّ في يده أراد أن يأكلها .

قال رسول الله ﷺ : « **قوموا إلى جنّةٍ عرضُها السماوات والأرض** » . قال : عميرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاري : يا رسول الله ، جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بخٍ بخٍ . فقال رسول الله ﷺ : « **ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ ؟** » . قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاءَة أن أكون من أهلها . قال : « **فإنك من أهلِها** » ، فأخرج تمرات من قَرَنِه ، فجعل يأكلُ منهن ، ثم قال : لَئِنْ أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة . فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتِل[3] .

- عندما قتل حنظلة بن أبي عامر قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ صاحبَكم تُغسّلُه**

---

(1) سير أعلام النبلاء : ج٨ ، ص (٤١٢ - ٤١٣) .
(2) البداية والنهاية ، ابن كثير : ج١٠ ، ص ١٧٧ .
(3) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، برقم : ١٩٠١ .

الملائكةُ » ، **فسألوا صاحبتَه** ، **فقالت** : إنه خرج لما سمِعَ الهيعة (صوت المنادي إلى الجهاد) وهو جنب ، فقال رسول الله ﷺ : « **لذلك غسّلته الملائكة** » [1] .

١١ - ٥ : يأخذون أنفسهم بالعزائم ولا يغرقون في الرخص :

كان عمرو بن الجموح أعرج ، شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه ﷺ إلى « أُحُد » أراد عمرو أن يخرج معه ، فقال له بنوه : إنَّ الله جعل لك رخصةً ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد ! .

فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال : إن بنيّ هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك ، ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : « **أما أنت فقد**

وضع الله عنك الجهاد » ، وقال لبنيه : « **وما عليكم أن تدعوه لعل الله – عزَّ وجلَّ – أن يرزقه الشهادة** » ؟ فخرج مع رسول الله ﷺ ، فقُتل يوم أحد شهيدًا [2] .

- عن ابن أبي ليلى أن ابن أمِّ مكتوم قال : أي ربي ، أَنزلْ عذري ؛ فأُنزلت : ﴿ **غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ** ﴾ [3] ، فكان بعدُ يغزو ويقول : ادفعوا إليَّ اللواء ، فإني أعمى ، لا أستطيع أن أفرَّ ، وأقيموني بين الصفين [4] .

١٢ - مسائل في الجهاد :

١٢ - ١ : هل اشتغال الداعية بالردِّ على العلمانيين والحداثيين وسائر أرباب التيارات الفاسدة يُعَدُّ جهادًا ؟

الجواب : هذا من جنس الجهاد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى ، وقدّس روحه - : « ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسُّنة ، أو العبادات المخالفة للكتاب والسُّنة

---

(1) الحاكم في المستدرك : ج٢ ، ص (٢٠٤ - ٢٠٥) ، ووافقه الذهبي .
(2) قال الألباني في فقه السيرة للغزالي ، رواه ابن هشام : ج٢ ، ص ١٣٩ ، عن ابن إسحاق قال : وحدثني أبي إسحاق ابن يسار عن الأشياخ من بني سلمة به ، وهذا سند حسن إن كان الأشياخ من الصحابة ، وإلا فهو مرسل ، وبعضه في المسند : ج٥ ، ص ٢٩٩ ، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه ، وزاد : ((فقتلوا يوم أحد)) ، هو وابن أخيه ومولى لهم ، فمرَّ عليه رسول الله ﷺ فقال : ((**كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة**)) ، وسنده صحيح .
(3) نزهة الفضلاء : ج١ ، ص ٦٥ .
(4) نزهة الفضلاء : ج١ ، ص ٦٥ .

؛ فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين ، حتى قيل لأحمد بن حنبل : الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك ، أو يتكلم في أهل البدع ؟ فقال : إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه ، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين ، هذا أفضل . فبيّن أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله ؛ إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ، ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك ، واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ، ولولا من يقيمه الله لدَفْع ضرر هؤلاء لفسد الدين ، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب ، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا ، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً »(1) .

١٢ - ٢ : هل الاشتغال بدعوة الشباب المسلم واحتضانهم وتربيتهم وتحصينهم من عوامل الفساد وتيارات الضلال يُعَدُّ جهادًا ؟

الجواب : قال الشيخ السعدي - يرحمه الله - تحت عنوان « الاعتناء بالتربية والتعليم من أصول الجهاد » :

« وذلك من أعظم أصول الإصلاح والجهاد والتربية الدينية والاهتمام التام والاعتناء الكامل بشباب الأمة ، فإنهم محل رجائها وموضع أملها ، ومادَّة قوتها وعِزها ، وبإصلاح تربيتهم تصلح الأحوال ، ويكون المستقبل خيرًا مما قبله . فعليهم أن يربوهم تربية عالية ، ويبثوا فيهم روح الدين وأخلاقه الجميلة ، والحزم والعزم ، وجميع مبادئ الرجولة والفتوّة والمروءة ، وأن يدربوهم على الصبر وتحمل المشاق الذي يفضي إلى النجاح والمثابرة في كل عمل نافع ، ويحذروهم من الجبن والكسل ، والسير وراء الطمع والمادة ، والانطلاق في المجون والهزل والدعة ، فإن ذلك مدعاة للتأخر الخطير ؛ وشباب الحاضر هم رجال المستقبل ، وبهم تعقد الآمال وتدرك الأمور المهمة ، فعليهم أن يجتهدوا ؛ ليكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى ، وبأوصاف الحزم والمروَّة والكمال القدوة المثلى »(2) .

١٢ - ٣ : هل على المرأة المسلمة جهاد ؟ وما نوعه ؟ وما هي مجالات خدمة المرأة المسلمة لمجتمعها ؟

الجواب : قد سألت عائشة - رضي الله عنها - الرسول ﷺ فقالت : « هل على

---

(1) الفتاوى : ج٢٨ ، ص (٢٣١ - ٢٣٢) ، وللتوسع : راجع ما بعدها ، كلام مهم في جهاد أهل النفاق في المجتمع المسلم .
(2) جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين ، عبد الرحمن السعدي : ص ٢٨ .

النساء جهاد ؟ فقال ﷺ: ((**نعم ، عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج ، والعمرة**)) [1] . وقالت - رضي الله عنها - : ((**استأذنت النبي ﷺ في الجهاد** ، **فقال** : **جهادُكنَّ الحج**)) [2] . قال ابن حجر - رحمه الله - : ((وقال ابن بطال : دل حديث عائشة على أن الجهاد غير واجب على النساء ، ولكن ليس في قوله : ((**جهادُكن الحج**)) أنه ليس لهنَّ أن يتطوعن بالجهاد ، وإنما لم يكن عليهن واجبًا لما فيه من مغايرة المطلوب منهن من الستر ومجانبة الرجال ؛ فلذلك كان الحج أفضل لهن من الجهاد . قلت - ابن حجر - : وقد لَمَّحَ البخاري بذلك في إيراده الترجمة مجملة وتعقيبها بالتراجم المصرحة بخروج النساء إلى الجهاد)) [3] . مثل قول البخاري : ((باب غزو النساء وقتالهنَّ مع الرجال)) [4] ، وقوله : ((باب حمل النساء القِرب إلى الناس في الغزو)) [5] .. وغيرها من الأبواب التي تدل على خروج المرأة المسلمة مجاهدة في سبيل الله .

وهاك بعض الأحاديث التي تبيِّن دور المرأة المسلمة في الجهاد :

- قال أنس ﷺ : لما كان يومُ أحدٍ انهزَمَ الناسُ عن النبي ﷺ .. قال : ((ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأمَّ سُلَيم ، وإنهما لمشمرتان أرى خَدَمَ سوقهما (خلاخيلهما) تنْقُزانِ القِربَ (وقال غيره تنقلان القرب) على متونهما ، ثم تُفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتُفرغانها في أفواه القوم)) [6] .

- وقال رسول الله ﷺ : ((**ناسٌ من أمّتي يركبون البحر في سبيل الله**)) . فقالت (أم حرام بنت ملحان) : يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلني منهم ، **فقال** : ((**اللهم اجعلها منهم**)). قال أنس : فتزوجت عُبادةَ بنَ الصامت فركبت البحر ، فلما قفلت رَكِبتْ دابتَها ، فسقطت عنها فماتت)) [7] . وهذا الحديث من أعلام النبوة .

- قالت الرُّبيِّع بنت مُعوِّذ : ((كنا مع النبي ﷺ نسقي ، ونداوي الجرحى ونرُدُّ القتلى إلى المدينة)) [8] . قال ابن حجر - رحمه الله - : ((وفيه جواز معالجة المرأة

---

(1) رواه ابن ماجة ، برقم : ٢٩٠١ ، وأحمد : ج٦ ، ص ١٦٥، والدار قطني ، برقم : ٢٨٢، بإسناد صحيح ، وانظر الإرواء رقم : ٩٨١ ، وللتوسع في الأحكام الفقهية المتعلقة بجهاد المرأة ، راجع المغني والشرح الكبير : ج١٠ ، ص ٣٦٦ .
(2) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب : جهاد النساء ، برقم : ٢٨٧٥ .
(3) الفتح : ج٦ ، ص ٧٦ .
(4) البخاري ، كتاب الجهاد ، باب ٦٥ .
(5) البخاري ، كتاب الجهاد ، باب ٦٦ .
(6) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب غزو النساء وقتالهنَّ مع الرجال ، برقم : ٢٨٨٠ .
(7) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب غزو المرأة البحر ، برقم : (٢٨٧٧ - ٢٨٧٨) ، مختصرًا .
(8) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب مداواة النساء الجرحى في الغزو ، برقم : ٢٨٨٢ .

الأجنبية الرجل الأجنبي للضرورة)) [١] .

وأما بعض مجالات خدمة المرأة لدينها وأمتها :

- خدمة المجاهدين : وقد مرَّت بعض الأحاديث في ذلك .
- الإنفاق في سبيل الله : قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : ((.. فيجب على النساء الجهاد في أموالهن إن كان فيها فضل)) [٢] .
- طاعة المرأة لزوجها وحسن تبعلها ، وتعاونها معه على البر والتقوى .
- تربيتها لأطفالها تربية إيمانية .
- تعلم العلم الشرعي ، وحفظ كتاب الله ، وتعليمه لبنات جنسها .
- دعوة نساء الحي ، ونشر الخير بينهنَّ ، وتحذيرهنَّ من الفتن والشرور .
- دعوة الطالبات (إن كانت مدرسة) ، والتأثير في المدرّسات والموظفات .. الخ [٣] .

١٢ - ٤: أيهما أفضل : الحج والاعتمار النافلة ، أم بذل ما ينفق فيهما إلى المجاهدين في سبيل الله ؟

الجواب : الأصل الذي يُبنى عليه جواب هذا السؤال هو أن الجهاد أفضل من جميع النوافل ؛ ولهذا قال الإمام أحمد - رحمه الله - : ((لا أعلم شيئًا من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد)) [٤] . واستدل الحنابلة على هذا التفضيل بأحاديث كثيرة ، منها حديث ابن مسعود الذي يقول فيه ﵁ : سألت رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل ؟ **قال** : ((**الصلاة لوقتها**)) . قلت : ثم أيّ ؟ قال : ((**ثم بر الوالدين**)) . قلت : ثم أي ؟ قال : ((**الجهاد في سبيل الله**)) [٥] .

قال العز بن عبد السلام - يرحمه الله - : ((وللوسائل أحكام المقاصد ، فالوسيلة إلى أفضل المقاصد هي أفضل الوسائل ، والوسيلة إلى أرذل المقاصد هي أرذل الوسائل)) [٦] ، وعليه فإن النفقة في الفاضل (أي في الجهاد) أفضل من النفقة في

---

(١) الفتح : ج٦ ، ص ٨٠ ، وانظر للتوسع قول ابن بطال في بعض ضوابط مداواة النساء للرجال .
(٢) الاختيارات الفقهية ، للبعلي : ص (٢٥٦ - ٢٥٧) .
(٣) تراجع بعض فصول كتاب : شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة ، لمحمد الهاشمي .
(٤) المغني والشرح الكبير : ج٦ ، ص ٣٦٨ .
(٥) رواه الترمذي .
(٦) قواعد الأحكام : ص ٨٨ .

المفضول (الحج والإعمار نافلة) ، والجمع بينهما طيب ، اقتداءً ببعض السلف الذي كان يحج سنة ويجاهد سنة ، والله تعالى أعلم .

١٢ ـ ٥ : في الوقت الحاضر قد يعجز بعض الناس عن الجهاد بنفسه ، نظرًا للظروف والعوائق التي تمر بها الأمة ؛ فبماذا تنصح الشباب المسلم ؟

الجواب : أنصح الشباب المسلم بـ :

أولاً : استحضار نية الجهاد والاستعداد له ، وذلك بالعمل على تخطي العوائق التي سببت العجز عن جهاد الأعداء .

ثانيًا : هناك أوجه كثيرة للجهاد سوى الجهاد بالنفس ، ينبغي عملها ، ومنها : الجهاد المالي . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « ومن عجز عن الجهاد ببدنه ، وقدر على الجهاد بماله ، وجب عليه الجهاد بماله ، وهو نص أحمد في رواية أبي الحكم ، وهو الذي قطع به القاضي في أحكام القرآن في سورة براءة عند قوله : ﴿**انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً**﴾ (١) » (٢) .

خامسًا : بعض التطبيقات العملية لتأكيد معاني الدرس :

١- المساهمة في جزء من مالك لمناصرة إخواننا المجاهدين في سبيل الله .

٢- المساهمة في دعم نشاطات الدعوة ماليًّا .

٣- الاهتمام باللياقة البدنية وتعلم فنون الفروسية « كالرمي ونحوه » .

٤- زيارة المناطق التي يكثر فيها البدع والشركيات ، ومحاولة دعوة أهلها بالحكمة والموعظة الحسنة .

٥- التصدي لحركات التغريب والعلمنة والحداثة وكشف عوارها ، والتحذير من أخطارها.

٦- استحضار نية الجهاد في الدعوة والإنفاق ، وغيرها من المناشط ، وسؤال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والإلحاح عليه بالدعاء أن يجعلنا في جملة المجاهدين ، وأن يرزقنا الشهادة .

٧- القراءة في سير المجاهدين ، والوقوف على ما في حياتهم من عِبَر وتضحيات ، ورفعة وعزة وكرامات ، وكذلك رؤية بعض الأشرطة

---

(١) سورة التوبة [٤١] .
(٢) الاختيارات الفقهية ، للبعلي : ص ٢٥٦ .

المصوَّرة التي تنقل واقع الجهاد ، أو تحكي خبره ، كشريط عمر المختار ونحوه ؛ لما لذلك من أثر في القلب يدفعه للتضحية والفداء والعزة والإباء .

سادسًا : بعض مراجع البحث :

١- معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، دار الجيل .
٢- التفسير المنير ، وهبة الزحيلي ، دار الفكر ، ط١ .
٣- عبر وبصائر للجهاد في الوقت الحاضر ، عبد الله عزام .
٤- العبودية ، ابن تيمية .
٥- التعريفات ، الجرجاني ، دار الريان ، تحقيق إبراهيم الإبياري .
٦- جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين ، عبد الرحمن السعدي ، دار ابن القيم ، ط سنة ١٤١١هـ .
٧- الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه ، محمد سعيد البوطي ، دار الفكر ، ط٢ ، ١٤١٥هـ .
٨- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، دار إحياء التراث العربي .
٩- زاد المعاد ، ابن القيم ، تحقيق : شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٤ .
١٠- لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف .
١١- فتح القدير ، الشوكاني ، دار الوفاء ، ط١ ، ص تحقيق عبد الرحمن عميرة .
١٢- فتح الباري ، ابن حجر ، دار المعرفة .
١٣- الثمرات الجياد في فقه مسائل الجهاد ، أحمد المصري ، دار فلسطين المسلمة ، ط١ .
١٤- الفتاوى الكبرى ، ابن تيمية ، مكتبة ابن تيمية ، ط٣ .
١٥- السلسلة الصحيحة ، الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط٢ .
١٦- أحكام الجهاد وفضائله ، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، مكتبة دار الوفاء ، ط١ .
١٧- بشائر الإيمان في جهاد الأفغان ، أحمد الحصين ، مكتبة البخاري ، ط١ .
١٨- أجوبة التُّسولي عن مسائل الأمير عبدالقادر في الجهاد ، دار العرب الإسلامي ، ط١ ، تحقيق عبد اللطيف محمد .
١٩- الجهاد في سبيل الله ، كامل الدقس ، مؤسسة علوم القرآن ، ط٢ .
٢٠- مستند الأجناد في آلات الجهاد ومختصر في فضل الجهاد ، لابن جماعة

الحموي ، منشورات وزارة الثقافة العراقية .
٢١- من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك ، سعيد حوى ، دار السلام ، ط٢ .
٢٢- المشوق في الجهاد ، عدنان الرومي وعلي الهزَّاع ، دار الوطن ، ط١ .
٢٣- قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، دار الطباع ، ط١ ، تحقيق عبد الغني الدقر .
٢٤- تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد ، سعيد عبد العظيم ، مكتبة الإيمان .
٢٥- مرقاة المفاتيح ، علي القاري ، المكتبة التجارية .
٢٦- موسوعة فقه ابن تيمية ، محمد روّاس قلعجي ، دار الفيصل الثقافية ، ط١ .
٢٧- المغني والشرح الكبير ، المقدسيان ، دار الكتاب العربي ، ط ١٤٠٣هـ .
٢٨- الاختيارات الفقهية ، علاء الدين البعلي ، دار الكتب العلمية ، ط١ .
٢٩- موسوعة نضرة النعيم ، إشراف صالح بن حميد وعبد الرحمن بن ملوح ، دار الوسيلة ، ط١.
٣٠- شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة ، محمد الهاشمي ، دار البشائر الإسلامية ، ط١ .
٣١- الجهاد والفدائية في الإسلام ، حسن أيوب ، دار الندوة الجديدة ، ط٢ .
٣٢- التاريخ الإسلامي : مواقف وعبر ، عبد العزيز الحميدي ، دار الأندلس الخضراء ، ط١.
٣٣- هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًّا ، محمد الخازندار ، دار طيبة ، ط١ .
٣٤- المجاهدة ، اللجنة الثقافية في مؤسسة الكلمة ، مؤسسة الكلمة ، ط ١٤١٣هـ .
٣٥- عناصر القوة في الإسلام ، السيد سابق ، دار الكتاب العربي ، ط ١٤٠٣هـ .
٣٦- الجهاد : ميادينه وأساليبه ، محمد نعيم ياسين ، مكتبة الزهراء .
٣٧- بطولات الشباب وأمجاد الشيوخ في ديوان « مجد الإسلام » محمد نوفل ، دار الفرقان ط١.
٣٨- ممرات الحق « الممر الثاني » ، رائد عبد الهادي ، بدون .
٣٩- مواقف بطولية من صنع الإسلام ، زياد أبو غنيمة ، دار الفرقان ، ط٤ .
٤٠- توجيهات نبوية ، ج٢ ، السيد محمد نوح ، دار الوفاء ، ط١ .
٤١- فضل الجهاد والمجاهدين ، عبد العزيز بن باز ، دار الأفق ، ط١ .
٤٢- الإيمان الحق وأثره في بناء شخصية المسلم ، زكريا بن عابدين ، دار عالم الكتب ، ط١ .

٤٣- الفروسية ، ابن القيم ، مكتبة دار التراث ، ط١ ، تحقيق : محمد نظام الدين الفتيّح .
٤٤- نزهة الفضلاء ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، محمد حسن عقيل موسى ، دار الأندلس الخضراء ، ط١ .
٤٥- فقه السيرة ، محمد الغزالي ، دار الريان للتراث ، ط١ ، تحقيق الألباني .
٤٦- البداية والنهاية ، ابن كثير ، دار الفكر .
٤٧- معالم غائبة عن حياة المسلمين ، ربيع السعودي ، دار معاذ ، ط١ .

فهرس
الجزء الثاني

فهرس الجزء الثاني

الموضـــــوع — رقم الصفحة

التوازن

التوبة

التوكل

الثبات

الثقـــة

الجدية

الجماعيــة

الجهـاد

انتهى الجزء الثاني ويليه - إن شاء الله -
الجزء الثالث وأوّلُه : « مصطلح الحذر »